من أنقولا إلى الرأس الأخضر

رحلة وحديث عن الإسلام

تأليف

محمد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

ح محمد بن ناصر العبودي، ١٤١٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

العبودي، محمد بن ناصر.

من أنقولا إلى الرأس الأخضر: رحلة وحديث عن الإسلام.

٢٣٧ ص ؛ ١٧ سم

ردمك ١-١٨-٧٨٥-٩٩٦٠

١- الرحلات ٢- الرحلات والأسفار أ- العنوان

ديوي ٩١٠,٤ ١٥/٠٦٤١

رقم الإيداع: ١٥/٠٦٤١

ردمك: ١-١٨-٧٨٥-٩٩٦٠



تقديم:

الحمد لله رب العالمين، الذي وفقنا إلى تحقيق ما كنا تمنيناه من الاطلاع على أحوال المسلمين، فى بلادهم بلاد الأقربين منهم والأبعدين من حيث الموقع والمكان وإن كانوا كلهم فى المحبة والمودة سيان.

والصلاة والسلام على أشرف خلقه سيد ولد عدنان الذى أعز الله به العرب حتى أصبحت لغتهم على ألسنة المسلمين في كل مكان فيه مسلمون سواء القاصي منهم والدان، وهدى به العرب والعجم، بل هدى به من هدى من بني الإنسان، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

أما بعد؛ فإن عنوان هذا الكتاب هو (من أنقولا إلى الرأس الأخضر) يقصد به أنه يتضمن الكلام على رحلة بدأت من أنقولا فى غرب إفريقية غير البعيد من طرفها الجنوبي إلى دولة الرأس الأخضر في غربها غير البعيد من طرفها الشمالي.

ولم يتضمن الكلام على ما بينهما من الأقطار لأنني سبق أن تكلمت عليها كلها دون استثناء فى كتب لي سالفة عن القارة الافريقية الخضراء، مما أغنى عن إعادة الكلام عليها مرة أخرى. إضافة إلى أنني لم أتلبث فيها في هذه الرحلة تلبثًا يقتضي المزيد من الكتابة عنها.

وقد تسألني أيها القارئ الكريم عن الكتب التى كتبتها عن إفريقية من أجل الإطلاع أو من أجل البحث عنها إن أعجبك ما جاء فى هذا الكتاب. فأجيبك بأن الحديث عنها مفصلاً هنا ليس بالمراد، وقد يكون من الحديث المعاد ولكن لا مانع من أن أذكر لك عنواناتها.

* «في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات عن الإسلام والمسلمين».
* «صلة الحديث عن إفريقية : مشاهدات وحديث عن المسلمين».
* «مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين».
* «مشاهدات فى بلاد العنصريين».
* «جولة فى جزائر البحر الزنجي».
* «نظرة فى وسط إفريقية».
* «شهر فى غرب إفريقية».
* «بقية الحديث عن أفريقية».
* «أيام فى النيجر».

وهذه مطبوعة كلها. ومن الكتب المخطوطة الماثلة للطبع:.

* « في ربوع السودان الغربي، أو المنظور المأثور عن بلاد التكرور».
* «بين غينيا بيساو، وغينيا كونكري».
* «قصة سفر في نيجيريا».
* «بقية البقية، من حديث إفريقية».
* «إلى أقصى الجنوب الإفريقي».

أما السبب فى كوننا قرنا أنقولا بالرأس الأخضر، فذلك لأمور عديدة منها أن رحلتنا هذه امتدت من أنقولا فى أقصى الجنوب الغربي من القارة الإفريقية إلى الرأس الأخضر الذي هو واقع بمحاذاة ركن في أقصى الشمال الغربي من القارة الإفريقية السمراء التى يراد بها ما كان من أقطار إفريقية خلف الصحراء.

ومنها أن الدولتين تشتركان فى أن كل واحدة منهما كانت مستعمرة برتغالية سابقة، ولذلك تتكلمان لغة برتغالية مختلطة هي التي يسمونها الكريول، وإن كان (كريول) أنقولا مختلفًا عن (كريول) الرأس الأخضر.

وشئ هام آخر يتصل بمهمتنا أو الغرض من رحلاتنا إلى العالم وهو أن المسلمين فيهما أقلية عددية قليلة، بل ضئيلة، ذلك بأن الاستعمار البرتغالي الذي ران عليهما ردحًا طويلاً من الزمن كان يمنع الدعوة إلى الإسلام. وكان يعتبر المسلمين بمثابة الوثنيين، لذلك لا يجوز لأحد أن يدعو في البلدين إلى الدين الإسلامي الحنيف. حتى الكتب الإسلامية قد حرم دخولها إليهما، لأنه لا يعترف بالإسلام دينًا سماويًا فيهما.

ولا شك فى أن المثقفين من المستعمرين البرتغاليين يعرفون أن الإسلام ليس دينًا وثنيًا، وإنما هو ديانة سماوية جليلة؛ ولكنهم يريدون ألا تكون في البلاد ثقافة غير ثقافتهم، ولا ديانة غير ديانتهم، إضافة إلى ما يحملونه من عداء دفين وحقد على الإسلام متوارث من عهود الصراع مع المسلمين في الأندلس.

وسوف يمر بك أيها القارئ الكريم في ثنايا الكتاب، وفي طوايا الحديث

ما يوضح بعض هذا الذي قلته لا سيما ما يتعلق بحاضر الدعوة إلى الإسلام هناك. والله المستعان.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

القسم الأول: أنقولا

تعتبر أنقولا بالنسبة للعالم العربي كالوجه الآخر للقمر، وهي بالفعل الوجه الآخر من القارة الإفريقية فإضافة إلى البعد النسبي لموقعها غرب القارة الإفريقية، فإنها لم تكن مجالاً للثقافة العربية الإسلامية في القديم.

وإذا قارناها بما يحاذيها من الساحل الشرقي للقارة الإفريقية في موزمبيق التي تشترك أيضاً معها في البلوى بالاستعمار البرتغالي ثم بالشيوعية بعد الاستقلال. فإننا نجد الفرق واضحاً . فموزمبيق وما كان عنها جهة الشمال قد وصل الإسلام إلى سواحلها منذ قرون متطاولة.

وقد عرفها العرب وذكروها فى كتبهم باسم أرض النحاس وباسم (سفاله) التي زارها المؤرخ العربي النقادة المسعودي قبل ألف عام.

بل صار بعضها دار إسلام، وقامت فيها ممالك إسلامية مشهورة منها مملكة كلوه الإسلامية التي زارها الرحالة ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجري من قبل ما يقارب سبعمائة سنة ووصف ملكها المسلم.

أما هذه البلاد الانقولية فإنها على العكس من ذلك لم يدخلها الإسلام دخولاً ظاهراً من قبل ثم ران عليها الاستعمار البرتغالي المتعصب الذي يكل التعليم في البلاد إلى الكنيسة الكاثوليكية التي يدين بها، ويحرم اعتناق الإسلام على رعاياه. فضلاً عن كونه يغلق البلاد دون الداخلين إليها من المسلمين.

والذي عرفه إخواننا المسلمون الموجودون فى الوقت الحاضر فى انقولا أن أول من أسلم من أهلها كان إسلامه فى عام ١٩٦٨م. أي منذ ٢١ سنة.

وقد سبق أن زارنا فى رابطة العالم الإسلامي فى عام ١٤٠٣هـ مسلم من أنقولا . ذكر لنا من انتشار الإسلام فيها أمراً مشجعاً، وذكر أن المسلمين بصدد إقامة مسجد فى العاصمة لواندا لأول مرة في تاريخ البلاد، وكان هذا مثار سرور لنا عظيم، لأننا نعرف أن المستعمرات البرتغالية كانت مغلقة أمام انتشارالإسلام إلا ما كان منها بلداً مسلماً بأكثرية سكانه قبل وصولهم إليه مثل الجزء الأكبر من (موزمبيق) الذي اكتسب اسمه أيضاً من اسم رجل مسلم هو (موسى بن بيك) كان مسلماً مستنيراً فى تلك البلاد تعامل معه البرتغاليون عندما وصلوا إلى هناك وأسموا البلاد على اسمه.

ثم كتبت إلينا الجماعة الإسلامية فى لواندا - كما أسمت نفسها فى الأوراق التي بعثتها تطلب المساعدة فأرسلنا لهم مبلغاً من المال على هيئة صك (شيك) باسم السفير المصري في لواندا الأخ محمد السّلاوي وقد صرف الشيك باسمه وصار يعطيهم منه للانفاق على المسجد، وحسناً فعل جزاه الله خيراً. وبعد ذلك أرسلنا صكاً آخر يتضمن مساعدة ثانية إلى السفارة المصرية فأعادته السفارة إلينا فى مكة المكرمة مع حاجة المسلمين هناك إليه، معتذرة بأنها (هيئة) سياسية ذات وضع خاص لا يجيز لها العرف السياسي في البلاد الأنقولية أن تتدخل في مثل هذه الأمور وكان الكتاب موقعاً باسم رجل آخر جاء خلفاً للسفير السابق الأخ محمد السلاوي.

كما كنا أرسلنا صكاً آخر إلى السفارة الجزائرية فى أنقولا لتسلمه للمسلمين فأعادته معتذرة عن ذلك بعدم وجود جمعية إسلامية مسجلة يمكن أن يسلم إليها.

وسنحت فرصة لي لزيارة هذه البلاد ضمن جولة في بلدان لم أزرها من إفريقية ومنها أنقولا.

فأخذت معي من الرابطة مبلغاً من المال للمسلمين هناك وسافرت في هذه الجولة الإفريقية التى قادتني إلى (أنقولا) وكان يصحبني صديقي السفير الشيخ عبد الوهاب بن محمد الدكوري عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ومدير مكتبها الإقليمي فى داكار. وهو مالي - نسبة إلى بلاد مالي- وسبق أن شغل منصب السفير في مصر والمملكة العربية السعودية ويعرف اللغة الفرنسية جيداً وبعض اللغات الافريقية الغربية.

وفي الأوراق التالية من هذا الكتاب سأقص عليك أيها القارئ الكريم ما رأيته وما لاحظته فى هذه الرحلة الأنقولية محسناً الظن بك كما أحسنت الاستقبال للكتب العديدة التي ألفتها عن البلدان التى زرتها فى أنحاء العالم الإسلامي وخارجه. فإن لم يرقك ما فيه، فإنني استسمحك العذر عن شئ هو فى طبع الكاتب لا يمكنه تفاديه.

والمقصود الأعظم من كتابة هذا الكتاب هو بالدرجة الأولى اطلاع المسلمين فى الحواضر الإسلامية على حالة إخوانهم المسلمين فى هذين البلدين الإفريقيين وواقع الدعوة الإسلامية فيهما عسى أن ينهضوا للقيام بالواجب الإسلامي الذي يجب أن نتعاون جميعاً على النهوض به.

موقع أنقولا:

تقع أنقولا فى غرب الجنوب الإفريقي يحدها المحيط الأطلسي جهة الغرب وجنوب غرب أفريقية (ناميبيا) من جهة الجنوب وزامبيا من الجنوب الشرقي وزائير من جهة الشمال والشمال الشرقي. وتبلغ مساحتها مليونا ومائتي ألف كيلو متر مربع.

ويبلغ عدد سكانها عشرة ملايين نسمة. وعاصمتها (لواندا) التى يبلغ سكانها مليون نسمة ولم تكن (أنقولا) وحدة قائمة بذاتها قبل الاستعمار الأوروبي شأنها فى ذلك شأن أكثر المستعمرات الافريقية، وإنما كانت فيها ممالك صغيرة وإمارات ترتكز على نفوذ قبائل أو جماعات عرقية معينة.

ولذلك لا توجد فيها لغة وطنية محلية أصيلة موحدة. وإنما هناك ست لغات معترف بها رسمياً منها لغة (كي موندو) يتكلم بها الوطنيون القاطنون حول لواندا وأما لواندا نفسها فإن اللغة الشائعة فيها هي البرتغالية لغة المستعمرين السابقين وبها يتفاهمون فيما بينهم، حيث لا توجد لغة لهم تجمعهم كما تقدم.

وعملتها هو (الكوانزا) وقد انهارت الآن حتى صارت تساوي فى السوق الحرة أقل من قيمتها الرسمية مائة ضعف كما سيأتي.

ونتيجة لهذا الانهيار فى العملة الذي نشأ عن اعتناق الدولة للمذهب الماركسي، وللحروب الأهلية الطاحنة تدنت معيشة المواطنين حتى صاروا لا يحصلون على أكثر الأشياء الضرورية للحياة.

ورئيس البلاد فى الوقت الحالي هو (جوزي ادواردو سانتوس)

وجوزي هى جوزيف التى تعني يوسف، وسانتوس تعني القديسين: جمع قديس، وكل هذا باللغة البرتغالية. وهو الرئيس الثاني للبلاد منذ استقلالها عن البرتغال عام ١٩٧٥م ، إذ كان رئيسها آنذاك اوغستينو نيتو الذي ظل فى الحكم إلى أن توفى عام ١٩٧٩م. فخلفه الرئيس (سانتوس) هذا.

وينتمي الرئيس إلى قبيلة (اوتوبن) وهي كبرى القبائل التي تقطن شمال البلاد وإن كان هو مولودًا في (لواندا) العاصمة.

وتحتل (أنقولا) موقعًا متميزًا على الجنوب الغربي من القارة الإفريقية وتزخر أرضها بطائفة من المعادن التي يمكن استغلالها.

لذلك تراقبها الشركات والمؤسسات المالية الغربية لتأخذ نصيب الأسد من ذلك عندما تستقر الأمور فيها على عادتها المعهودة فى مثل هذه الأمور.

وتتألف أنقولا فى غالب أرضها من سهل ساحلي واقع على الشاطئ الشرقي للمحيط الأطلسي، يمتد من الشمال إلى الجنوب بشكل يتسع قليلاً فى شمال البلاد وأغلب البلاد خلف هذا السهل هضبة تنبع منها عدة أنهار منها ما يتجه شمالاً بحيث يصب فى حوض الكنجو مثل أنهار سانكورو، كاساي، كوانجو، ومنها ما يتجه ناحية الغرب بحيث يصب فى المحيط الأطلسي مثل أنهار كوناني، كوانزا، ومنها ما يتجه جنوبًا مثل الزمبيري وكوفانجو. وتكثر الغابات الاستوائية في شمال البلاد بينما فى الجنوب تكثر الأعشاب وتجود المراعي الصالحة لرعي الماشية من الأبقار والأغنام.

ومناخها حار صيفاً فى المناطق الساحلية ودافئ شتاء يميل إلى البرودة فى المناطق الجنوبية. وأمطار هذه الأجزاء شتوية. أما المناطق الوسطى والداخلية فالجو فى شمالها استوائي حار رطب طوال العام وفى جنوبها ووسطها بارد شتاء معتدل صيفاً.

وقد عرفت انقولا للأوروبيين منذ سنة ١٤٨٢م عندما وصلها المستكشفون البرتغاليون الذين ما لبثوا أن جعلوا منها محطة لتجارتهم بادئ الأمر، ثم كثر الوجود الأوروبي التجارى بينما الوجود السياسى بيد البرتغاليين، واستمر ذلك مدة طويلة إلى أن أسست فيها عدة مجموعات وطنية تطالب بالاستقلال أهمها الجبهة الوطنية لتحرير أنقولا والاتحاد الوطنى لاستقلال انقولا.

وقامت تلك الجبهات بمقاومة الاستعمار البرتغالى عن طريق العصابات. ومنذ عام ١٩٦٦م سيطر رجال المقاومة على المناطق الشرقية من البلاد. وفى سنة ١٩٧٤م أعلنت البرتغال إعطاء البلاد استقلالاً ذاتياً وذلك أثر الانقلاب الداخلى الذى حدث فى البرتغال نفسها الذى سقطت بسببه الحكومة الدكتاتورية برئاسة (سالازار) الاستعمارى ونتيجة أيضاً للضغوط الدولية الخارجية والمقاومة العسكرية فى الداخل، ولم تشكل حكومة مؤقتة فى البلاد ذاتية الاستقلال إذ سرعان ما أعلنت البرتغال منح أنقولا الاستقلال الكامل سنة ١٩٧٥م حيث تألفت فيها حكومة انتقالية مكونة من جميع جبهات التحرير الوطنية ولم تلبث تلك الحكومة أن دب الخلاف فى صفوفها فشلت حركتها، وكان من شأنه انفراد الجبهة الشعبية بالحكم وقضاؤها على الحركات الأخرى فأعلن قيام الجمهورية الشعبيه برئاسة

(أوغستينو نيتو) اليسارى المبدأ فحصلت حرب أهلية مدمرة بين تلك الجبهة المذكورة والجبهات اليمينية المبعدة فكان أن تدخلت قوات كوبية ومساعدات عسكرية ومالية روسية إلى جانب الحكومة القائمة مما ساعدها على قمع حركات التمرد والمعارضة المدعومة بتأييد أمريكي شكلي.

وعدد سكان انقولا عشرة ملايين نسمة يرجع معظمهم إلى ما يسمى الآن بالبانتو أو الزنوج وإن كانوا يتألفون من عناصر عديدة وينقسمون إلى قبائل كثيرة.

ومن الناحية الاقتصادية لا تزال انقولا إحدى الدول المتخلفة عمرانياً ما عدا عاصمتها لواندا وبعض المدن الكبيرة التى كان يقيم فيها المستوطنون البرتغاليون ومن معهم من الأوروبيين فإن فيها أقساماً واسعة ذات عمارة حديثة. كما تعتبر متخلفة جداً من ناحية الإدارة. وتعتبر فقيرة فى مجال المواصلات البرية المعبدة رغم وجود بعض الطرق التى بناها البرتغاليون ولكنها خربت أيام الحرب الأهلية الأخيرة وهناك خط حديدي يصلها بزامبيا إذ يعبر من شرق البلاد حتى غربها ويستخدم عادة للأغراض التجارية. إلا أنها فى مجال الطيران توجد فيها شبكة من الخطوط الجوية الداخلية متطورة لربط المدن وبعض المراكز الهامة بعضها ببعض.

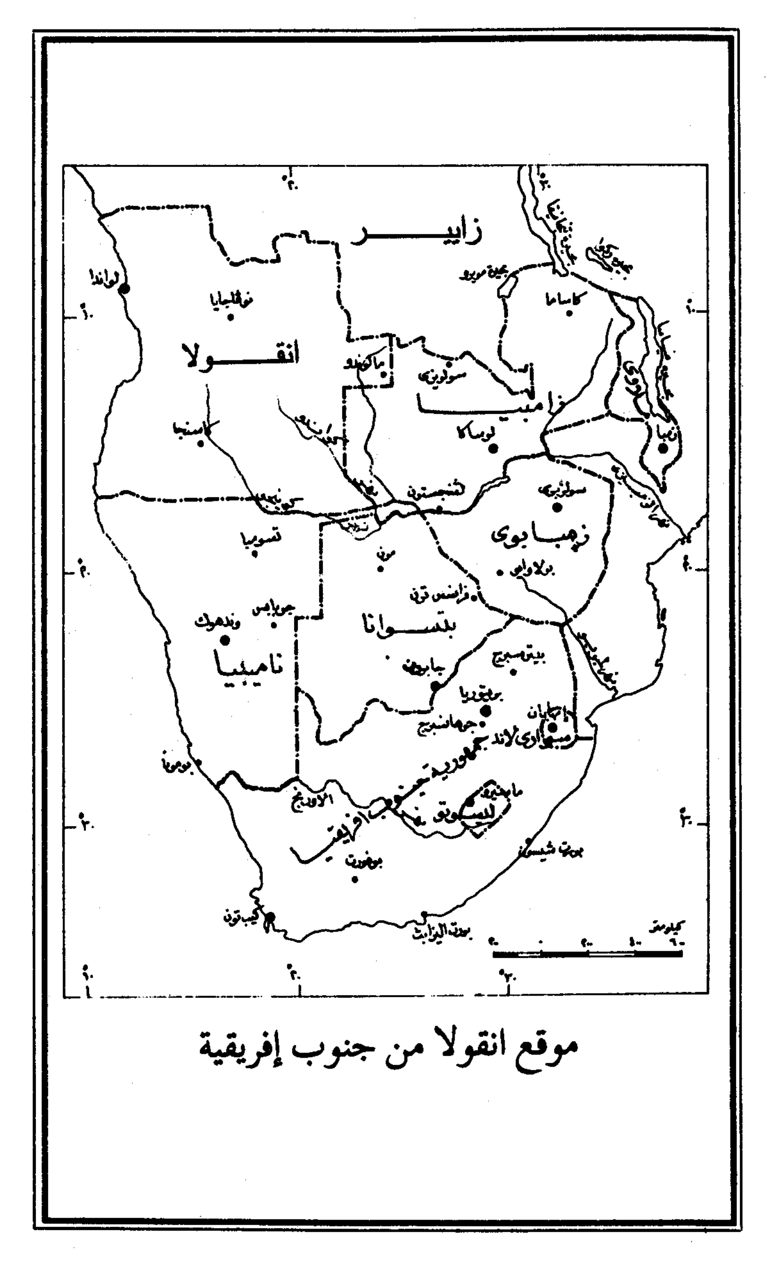
والبلاد غنية بموارد الزراعة والتعدين والبترول إلا أنها سيئة من حيث الاستخدام والتوزيع، ويعتمد الاقتصاد على المنتوجات الجيدة مثل البترول والماس، والحديد الخام، والمنجنيز ، والفوسفات والذهب والزنك.

وأما المنتوجات الزراعية فأهمها البن والقطن، وقصب السكر، والذرة والفول السوداني، والأناناس، والبقول والخضار وكانت تصدر كميات كبيرة منها إلا أن الانتاج كله قد تأخر، بل قد اندثر بسبب الحروب الأهلية والإدارة الشيوعية المتأخرة.

كما أن البلاد تشتهر بتربية الحيوانات والمواشي حيث كانت اللحوم والألبان والجلود وافرة أيام الاستعمار. وهناك الثروة السمكية العظيمة التى يمكن أن تجنيها البلاد من سواحلها الطويلة الخالية من التلوث على المحيط الأطلسي إضافة إلى الأسماك النهرية.

وسوف يأتى فى اليوميات كلام كثير عن هذه الموضوعات وغيرها في معرض المشاهدات . ومن باب ضرب المثل للحالة الاقتصادية المتردية للسكان أن مرتب المتخرج من الجامعة حديثاً يتراوح ما بين ١٦ ألف كوانزا إلى ١٨ ألفاً وذلك يساوى ما بين خمسة دولارات وثلث إلى ستة دولارات أمريكية.

ومع تدني الأجور فإن الأسعار غالية جداً ولا توفر الحكومة السلع للمواطنين ماعدا السكر والأرز والحليب وزيت الطعام فإنها تباع بأسعار مناسبة للدخول المتدنية إلا أنها مقننة تباع بالبطاقات، وأما اللحم والسمك فانه لا يحظى به إلا من يحمل عملة أجنبية صعبة. وربما نأتي على ذكر نماذج لهذا فى آخر الكتاب.



موقع انقولا من جنوب إفريقية

خريطة انقولا

هذا وقد أصبحت جمهورية انقولا دولة مستقلة منذ عام ١٩٧٥م.

ويوجد فيها سفراء لجميع دول أوروبا الغربية تقريبًا وأما الدول العربية ففيها سفراء لمصر العربية والجزائر والمغرب وممثلية فلسطينية وتربط انقولا علاقات دبلوماسية بايران بمستوى سفير غير مقيم وسفير ايران الموجود فى «هارارى» هو سفيرهم فى انقولا كما يوجد فى انقولا تجار مسلمون من غرب إفريقية من السنغاليين والماليين والموريتانيين ولكن على قلة.

المسلمون فى أنقولا:

ستأتي أحاديث مبسوطة متفرقة عن المسلمين فى أنقولا فى ثنايا الكتاب الذى اهتم أكثر ما اهتم به بالاطلاع على أحوال المسلمين . ولكننا نود هنا أن نورد نبذة مختصرة عن ذلك .

كانت أنقولا مستعمرة برتغالية، ولم يكن فيها مسلمون أصلاء من أهلها ذوي المكانة المتميزة، أو حتى ذوي الجماعة المعروفة.

وكان البرتغاليون إبان استعمارهم للأقطار الإفريقية واقعين تحت تأثير تعصب ديني مسيحي أذكته البغضاء والتعصب ضد المسلمين فى الأندلس التى كانت البرتغال نفسها من بين ممتلكات المسلمين فيها.

لذلك حرموا الدعوة إلى الإسلام فى مستعمراتهم، وحرموا دخول الكتب الإسلامية حتى على من كان مسلمًا من أهلها الأصلاء. كما حدثنا الإخوة المسلمون فى (غينيا بيساو) وهي- كانت - مستعمرة برتغالية، أن البرتغاليين كانوا يمنعون تعليم أولاد المسلمين أي شئ عن الإسلام واللغة العربية، ومنعوا المسلمين إطلاقًا من الحج فكان على

من يريد أن يحج من أهلها أن يذهب إلى أحد الأقطار الإفريقية المجاورة كالسنغال، وغينيا كونكرى ويحصل على جواز سفر منها يستطيع به أن يحج.

وقد ذكرت أحوال تلك البلاد فى كتاب : «بين غينيا بيساو وغينيا كونكري».

لهذا السبب لم تكن هناك دعوة إلى الإسلام فى أنقولا قبل الاستقلال، رغم وجود بعض الأفراد من المسلمين المهاجرين إليها من المستعمرات البرتغالية كموزمبيق وغينيا بيساو أو من بعض الأقطار المجاورة مثل زايير. إلا أن هؤلاء المسلمين كانوا أفرادًا ضعفاء فى ثقافتهم الدينية، وفى الوسائل التي يستطيعون بها أن يظهروا إسلامهم.

وبعد أن زال الاستعمار البرتغالي واستقلت أنقولا اتخذت المنحى الشيوعي وسيلة للحكم، واعتمدت على المستشارين الروس فى إدارة شئون البلاد.

ومعلوم أن المذهب الشيوعي نفسه يحارب الأديان عامة. ويحارب الإسلام بصفة خاصة.

إلا أن القلاقل والحروب الأهلية التي صاحبت إعلان استقلال انقولا ورافقته بعد ذلك جعلت الحكومة تنشغل بذلك عن هذه الأمور كما أنها لا تلتزم بما التزم به البرتغاليون من حرب ضد الإسلام دون غيره من الأديان.

لذلك وجد بعض الأنقوليين الذين ذهبوا إلى أقطار مجاورة فى افريقية للعمل مثل زايير والكنقو وحتى نيجيريا وقد التقوا بالإخوة المسلمين في

تلك البلدان فأسلموا وعادوا إلى بلادهم أنقولا وهم يحملون الإيمان فى صدورهم ومحبة الخير لأبناء وطنهم فى أن يدخلوا فى الدين الإسلامي الحنيف.

ولكن لم يكن معهم غير ذلك، فليست لديهم المعرفة الإسلامية ولا الإمكانات المالية، ولا حتى الوضعية القانونية. لأنه لا توجد فى (أنقولا) فى الوقت الحاضر جمعية إسلامية مسجلة تسجيلاً رسمياً.

وقد جهدنا فى أن نجد أية جهة عاملة فى هذا الحقل من أهل البلاد بصفة رسمية قانونية فلم نستطع، ولذلك لم نستطع أن نصرف لهم أي مبلغ من المال الذي كنا نحمله معنا وقد خصصناه لأنقولا.

وحتى سفارات الدول العربية طرقنا بابها لكي تتسلم هذه المبالغ وتنفقها على المسجد الوحيد الموجود في العاصمة (لواندا) أو على ما تراه من الأغراض الإسلامية التي نفوضها فيها. وستأتي قصة ذلك كاملة فى اليوميات.

والحاصل أن من المسلمين الجدد هؤلاء تتألف المجموعة الرئيسية من المسلمين الموجودين فى لواندا عاصمة البلاد في الوقت الحاضر.

وإضافة إلى العاصمة فإنه يعرف أن هناك جماعة من المسلمين فى الجنوب الشرقي من البلاد، وفي منطقة موسكو التي سميت على اسم قبيلة تسمى (موسيكو) وكذلك يعرف المسلمون هنا أن عدداً قليلاً من المسلمين يوجدون فى (كابندا) وفى (ويج) وفي منطقة (زايير) وهي مقاطعه انقولية داخل البلاد.

وعرفنا أيضاً أن فى (مالانغ) و (ساوريمو) و (سويو) و (بانز كنقو) و (بنفيلا) و (وامبو) و (لوبانقو) مسلمين ولكن بأعداد قليلة.

عدد المسلمين:

لا يوجد إحصاء معتمد للسملمين فى أنقولا سواء لدى الإخوة المسلمين فى العاصمة أو غيرهم.

وحتى المناطق التي ذكرناها خارج العاصمة لا يعرف عدد المسلمين فيها، وإن كان إخوتنا من أهل (لواندا) قد ذكروا لنا أن لبعض هؤلاء الإخوة الذين يقطنون فى خارج العاصمة أماكن للصلاة لم تبلغ إلى درجة أن تكون مساجد، وحددوا عدد المسلمين فى (كابندا) وأنهم مائة شخص.

ويقدر عدد المسلمين فى العاصمة بألف وثلثمائة شخص، وفي كل أنحاء أنقولا بثلاثة آلاف نسمة. ويلاقي المسلمون صعوبة في الاتصال فيما بينهم لو أرادوا ذلك لأن المدن المذكورة متباعدة نظراً لسعة البلاد وتباعد أنحائها، ولوجود قتال واضطراب فى أكثرها.

وقال لنا أحد الإخوة العارفين: إن أقرب مدينة من المدن التي ذكرناها وأن فيها مسلمين يستغرق الطيران منها إلى العاصمة (لواندا) ٣٥ دقيقة وأبعدها يحتاج إلى ساعتين من الطيران.

ومع أنه لا توجد جمعية إسلامية رسمية معترف بها في أنقولا عند وصولنا فإن هناك بعض الإخوة يسمون أنفسهم الجماعة الإسلامية، ويعملون بقدر ما تسمح به ظروفهم المالية وكلهم حدثاء عهد بالإسلام.

فمثلاً رئيس الجماعة الأخ (امبالا انتونيو رمضان) اعتنق الإسلام لما كان مقيماً فى كنشاسا قبل استقلال بلاده ثم عاد إليها فى عام ١٩٧٥م بعد الاستقلال.

والأخ (سيبا ستيان تاتي عمر) المختص بالشئون الإدارية أسلم فى عام ١٩٨٠م ومهنته خياط. والأخ السيد حسن المختص بالشئون المالية فى الجماعة أسلم فى كنشاسا ثم عاد إلى أنقولا في عام ١٩٧٥م.

والأخ (عبد الله لاندو) المختص بشئون التعاون فى الجماعة أسلم فى كنشاسا أيضاً منذ وقت قريب.

والأخ (انتونيو بدرو ايموس سعيد) أسلم بعد عام ١٩٧٥م وهو يقوم بعمل الأمين العام للجماعة.

احتياج المسلمين:

يحتاج المسلمون الأنقوليون فى الوقت الحاضر إلى كل شئ يتعلق بالعمل الإسلامي لأنه ليس لديهم من ذلك إلا الإيمان الذي يعمر قلوبهم، وثقتهم بأن الطيبين من بني قومهم يؤيدونهم.

وأول ذلك أن تعترف حكومة أنقولا بالدين الإسلامي اعترافاً رسمياً وأن ترخص للجماعة الإسلامية بالعمل على هذا الأساس.

ويقولون: إنهم يعتقدون أن الحكومة ليس لديها مانع من ذلك إذا سعى فيه رجال أقوياء بالمال والجاه وهو شئ لا يوجد عندهم.

كما ذكروا أن من أهم احتياجهم بناء المساجد فى الأماكن التى يوجد فيها مسلمون لأن المسجد يصبح مركزاً للدعوة ولتجمع المسلمين وتعرف بعضهم على بعض.

ولا يوجد الآن إلا مسجد واحد فى أنقولا كلها سوف يأتي الكلام عليه فى اليوميات عندما نزوره ونذكر مشاهداتنا هناك بإذن الله.

ويقولون: أن أهل الكنيسة يساعدهم أصحابهم سواء أكانوا من الكاثوليك أم من غيرهم من طوائف النصارى، أما نحن المسلمين فلا يساعدنا أحد.

وأما كلامهم عن السفارات العربية فى (لواندا) فإنهم يقولون: إن السفارة الجزائرية تساعدهم من زكاة الفطر . وأن السفارة المصرية ترسل وفداً فى وقت العيد من السفارة.

قالوا: وأما المساعدات المالية والثقافية فإنهم يقولون: إننا سياسيون ينحصر عملنا فى الميدان السياسي ولا يجوز لنا قانوناً أن نعمل في غيره. هكذا قالوا عن السفارات العربية بوجه عام.

وماذا عن الدعاة؟

قلت لهم: إنكم تحتاجون إلى دعاة لديهم معرفة إسلامية كما تحتاجون إلى مدرسة إسلامية في العاصمة وفى مناطق تكاثر المسلمين مثل احتياجكم للمساجد فذكروا إن ذلك صحيح. ولكنهم قالوا: إنه يوجد فى زايير من إخواننا المسلمين الذين لديهم معرفة إسلامية، ويمكن أن يأتوا إلى هنا ويساعدونا إذا تيسر لنا الإنفاق على مجيئهم أو تيسر من يقوم بذلك من المؤسسات الإسلامية فى الخارج.

ونرى أن جميع ما ذكره هؤلاء الإخوة المسلمون هو ممكن وعلى المؤسسات الإسلامية في الخارج وبخاصة في المملكة العربية السعودية أن تقوم به، أو بما تستطيع القيام به منه.

ونحن في رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة نستطيع أن نقدم الكثير للإخوة المسلمين في هذه البلاد مما ذكروه، ومما لم يذكروه، مما عرفناه من خلال تجاربنا فى حقل الدعوة الإسلامية مع الإخوة المسلمين فى أنحاء عديدة من أنحاء العالم. ولكن الشأن الآن في أن يكون لهم وجود رسمي، تمكن معه مساعدتهم، لأنه بدون ذلك لا بد أن يكون من يساعدهم مقيماً معهم وإذا صرفت المساعدة لأفراد منهم قبل تسجيل جمعياتهم فإنها تكون كالمساعدة الشخصية من الناحية القانونية ولا يظن أن تقع موقعها أو أن تصرف فيما قدمت من أجله.

فرصة مواتية:

ويجمع كل الذين لقيناهم من الإخوة المسلمين من أهل (أنقولا) ومن غيرهم حتى من العاملين في السفارات العربية أن الفرصة مواتية الآن لنجاح الدعوة الإسلامية في هذه البلاد لأن الاعتراض على ذلك قد زال بزوال الاستعمار البرتغالي. كما أن الأهالي يعتبرون أن الديانة المسيحية التي كانت مسيطرة إبان حكم البرتغاليين هي ديانة أوروبية جاءت مع المستعمرين، ولذلك لا يعتبرونها من الثقافة الأصيلة في البلاد، ولذا لا يدافع عنها إلا العاملون في الحقول الدينية الذين يدافعون بذلك عن وظائفهم. كما أن الإسلام بنقائه وبساطته، وأنه دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها إضافة إلى كونه لا يجعل بين الإنسان وخالقه واسطة في العبادة ومغفرة الذنوب هو قريب من افهام هؤلاء القوم.

ولا شك في أن الدعوة الإسلامية تمثل أو ينبغي أن تمثل جزءاً من الحياة الجديدة لهذه الأمة الإفريقية التي بعثت من جديد، بعد أن كان

الاستعمار البرتغالي المتعصب قد جثم عليها مدة من الزمان استمرت قروناً، ولذلك فإن هناك فرصة ينبغي بل يجب علينا نحن المسلمين أن ننتهزها فى الدعوة إلى الله في هذه البلاد، لا سيما مع ما أعطانا الله من المال، وحبانا من الرجال، فهل نحن فاعلون؟.

الطريق إلى أنقولا



يوم الخميس ١٤٠٩/١١/٥هـ - ١٩٨٩/٦/٧م.

الطريق الى انقولا:

غادرت فندق نوفتيل الذي أسكن فيه فى داكار -عاصمة السنغال- وقد تقاضى منى مائة دولار عن الغرفة والإفطار بعد أن كانوا قد خفضوا سعر الغرفة إلى ٢٣ ألف سيفاً وهو الفرنك الافريقي الغربي بدلاً من ٣٠ ألفاً بسبب الجواز السياسي وحددوا سعر الدولار الواحد بـ ٢٨٠ سيفاً. مع أن الإفطار عندهم أقل من المعتاد وذكرت بهذه المناسبة بلاد البرازيل عمرها الله حيث يستطيع المرء أن يجد فندقاً في منطقة جيدة بـ ١٨ دولاراً مع طعام الإفطار الجيد الذى تكون فيه الفاكهة أصنافاً مصنفة والأجبان أنواعاً منوعة، كل ذلك بالمجان تأخذ منه ما تشاء وتختار. وما نزلت في فندق صغير أو كبير فى البرازيل إلا وجدته يقدم طعام الإفطار بالمجان أي تكون أجرة الغرفة داخلاً فيها ثمن الإفطار مع أن الغرفة رخيصة. وذلك لخصب البرازيل وكثرة خيراتها، ورخص عملتها الوطنية. إن لم نقل انهيارها بالنسبة إلى العملات العالمية القابلة للتحويل.

مكتب رابطة العالم الإسلامي:

ومكتبنا في داكار هو من أنشط مكاتب الرابطة على الإطلاق من الناحية الإسلامية التى تتعلق بالسياسة والعلاقات العامة. وذلك لما يتمتع به مدير المكتب رفيقنا الشيخ عبد الوهاب الدكوري من صفات تؤهلة لما ذكرناه. وهو مكتب إقليمي بمعنى أنه يرتبط به العمل الإسلامي الذي تقوم به الرابطة فى منطقة غرب افريقية. وبعد أن انجزنا بعض الأوراق في المكتب غادرناه إلى مطار داكار فاخترقنا قلب

المدينة حيث يقع المكتب الذى تملكه الرابطة وقد وهبته حكومة المملكة العربية السعودية لها وكان قبل ذلك مقراً للسفارة السعودية فانتقلت إلى غيره أكبر منه.

وكان زحام السيارات في قلب مدينة داكار متعباً لكثرتها ولوجود بعض الحافلات التى تنفث الدخان المؤذي، وإلا فإن السيارات تغلب العناية عليها فليس فيها في الغالب ما هو محطم، أو مؤذٍ للذوق كما يكون فى بعض البلدان الفقيرة التي يجتمع فيها مع الفقرقلة النظافة.

وقل مثل ذلك عن الأبنية والشوارع فى وسط المدينة فهى أبنية جيدة مقامة من الإسمنت فى طوابق متعددة وأرصفة ذات مظهر جيد. مما يقربها من بعض المدن العربية كالمدن المصرية والسعودية المتوسطة أو من المدن الهندية المتوسطة الحجم، وهي بذلك تبعد عن مشابهة المدن الإفريقية التى يتميز أكثرها بطابع محلي. أما الطابع المحلي لداكار وربما للسنغال كلها فهو موجود فى ضواحي المدينة التي تكلمت على بعضها فى غير هذا الكتاب.

في مطار داكار:

أردنا الدخول كعادتنا بسيارة المكتب إلى قاعة كبار الزوار من ساحة المطار الداخلية وهي سيارة (دبلوماسية) وكل منا يحمل جواز سفر (دبلوماسياً) ولكننا وجدنا فى المطار جنوداً طلبوا منا أن يكون دخولنا إلى غرفة كبار الزوار (صالون الشرف) من الجهة التي تلي المدينة، من المطار مع شدة مراعاة السنغاليين للأعراف الدبلوماسية. وتقديرهم للرجال الذين تؤهلهم وظائفهم للتكريم.

وذلك لوجود الرئيس عبده جوف رئيس السنغال فى المطار يستقبل الرئيس داود جاورا رئيس جمهورية (غامبيا) التى ترتبط باتحاد اسمي مع السنغال. وكان للسنغال فضل في دفع انقلاب يساري كاد يطيح بالرئيس داود جوارا ويولي على البلاد حكماً يسارياً أرعن كالموجود في بعض بلدان العالم الثالث.

وكلا الرجلين مسلم، عريق في إسلامه بمعنى أنه من أسرة مسلمة. إلا أن الرئيس داود جاوارا كان قد ألحق فى صغره بمدرسة من مدارس التنصير بحجة أنها مدرسة عصرية فأثر المدرسون عليه وربوه تربية نصرانية وتعلم حتى نال وظائف عالية، ثم رجع إلى دينه الحنيف، فأسلم ثانية وحسن إسلامه وأثنى عليه أهله وعارفوه بالتزامه بأداء الفرائض الدينية .

أما الرئيس عبده جوف فإن كثيراً من قراء العربية لا يعرفون من حاله شيئاً حتى اسمه يغلط فيه المثقفون وكتاب الصحف وقراء نشرات الأخبار فيكتبونه (عبده ديوف) أو عبده ضيوف ويقرأونه كذلك بدال بعدها ياء أو ضاد بعدها ياء، ولا يكلفون أنفسهم الرجوع إلى أية سفارة سنغالية لسؤالها عن النطق الصحيح فى اسم الرئيس لأنهم هكذا وجدوا الاسم بالفرنسية بدالٍ بعدها جيم ظنوا أنها تنطق ياء أو ضاداً. والصحيح فى اسمه أنه (عبده جوف) بجيم عربية صريحة عليها ضمة بعدها واو ساكنة فهي حرف واحد قبل الواو وليست حرفين.

والأمر غير المهم أو هو غير الخطأ فى اسمه الأول أن أصله عبد الرحمن فهو (عبد الرحمن جوف) وصار ينطق باسمه حتى في السنغال (عبده) بديلاً من عبد الرحمن.

وهو مسلم عريق في إسلامه. بل إنه كان له نشاط إسلامي مذكور في شبابه حيث كان من أوائل من أنشأوا جمعية الطلاب المسلمين فى جامعة داكار ثم صار رئيساً لذلك الإتحاد.

إلا أن بعض الناس يعيبونه لكونه تزوج مسيحية لبنانية الأب، ولا عيب في ذلك على المسلم. قال الله تعالى: ﴿**اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾. الآية (٥) المائدة.

غير أن ذلك عاد عليه بشئ كثير من الحرج وربما من التشنيع من خصومه، وقد أخبرني أحد زعماء السنغال المقربين أنه قال له: إنني قرأت في الكتب الإسلامية أن الهدايا التي تهدى للحاكم المسلم لا تكون ملكًا له وإنما تكون ملكًا لعامة الشعب.

قال: ولذلك عندما زرت المملكة العربية السعودية وأهديت ليَّ أثناء زيارتها قطع من كسوة الكعبة المشرفة عليها كتابة الآيات القرآنية أهديتها للمعهد الإسلامي في داكار لأنها أولاً ملك للشعب فى اعتقادي، ومن أجل أن يطلع عليها عامة الناس فى المعهد، أما إذا ظلت لدي مع محبتي فيها فإن الإطلاع عليها سيكون مقصوراً عليَّ وعلى أفراد أسرتي، إلا أن المحزن أن بعض الناس اتخذ من هذا العمل وسيلة للطعن فيَّ فأشاعوا بأنني أرسلت هذه القطع من كسوة الكعبة إلى المعهد الإسلامي لأن زوجتي المسيحية طلبت مني التخلص منها، وعدم بقائها عندنا!!!.

المراسم الإسلامية في الاستقبال:

كنا نرقب استقبال الرئيس السنغالي للرئيس الغامبي من قاعة كبار الزوار فى المطار فرأيناه مثل غيره من الاستقبال في البلدان الإسلامية ومنها البلاد العربية يسير على الطريقة الغربية أو إن شئت قلت: إنها المراسم العالمية لأنها قد أصبحت بالفعل عالمية غير مقتصرة على الدول الأوروبية.

ولكن المرء مثلي عندما يراه في البلدان الإسلامية ومنها بلادنا يرد على ذهنه سؤال ملح عن السبب فى تمسك بني قومنا به، ولم لا تكون لهم مراسم استقبال رسمية خاصة مستوحاة من الآداب الإسلامية، بل حتى من المراسم الإسلامية والعربية القديمة إبان ازدهار الحضارة الإسلامية...؟

ويستطيع بنو قومنا أن يرجعوا إلى الكتب الإسلامية القديمةالتى تبحث في كيفية التعامل مع الملوك والرؤساء في القديم ومن ذلك مراسم الاستقبال والتوديع، ولا شك في أنهم سيجدون فيها الغناء مما هو مفيد ولائق بهم، ومما يؤكد لهم أنهم أحفاد مدنية عريقة ابتكرت أشياء عديدة مفيدة حتى فى مثل هذه الأمور.

لا سيما أن بعض أبناء الأمة الإسلامية قد اختاروا مواضع من هذه الموضوعات لرسائلهم الجامعية العليا.

وأذكر بهذا الصدد أن الأستاذ أحمد الأحمد من إخواننا السوريين وكان أستاذاً فى الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة كانت رسالته متعلقه بالعلاقات ما بين الخلافة الإسلامية والامبراطورية البيزنطية

فى القرن الثالث الهجري، وطلب مني أن أعيره ما في مكتبتي الخاصة متعلقاً بهذا الخصوص فأهديته عدة كتب كان من أكثرها فائدة له كتاب عنوانه «ترتيب الدول».

إلى مطار ابيجان:

تمر رحلتنا إلى لواندا عاصمة انقولا بمطار روبرت الدولي في منروفيا ثم مطار ابيجان عاصمة ساحل العاج حيث نغير الطائرة بطائرة أخرى تتجه إلى ليبرافيل عاصمة الجابون عن طريق لومي عاصمة (توجو) وكوتونو عاصمة بنين الشعبية ولاجوس عاصمة نيجيريا.

وسوف نمر بك أيها القارئ الكريم مروراً سريعاً بهذه المطارات كما مررنا بها حتى نحط رحالنا فى أنقولا فنتمهل في الحديث إليك، حتى نخشى من الملال عليك . كان الله لك. وأصلح قولك وعملك.

صعدنا إلى طائرة الخطوط الافريقية المسماة (إيرافريك) وهي شركة عتيدة قاومت تقلب أهواء وانقلابات السياسة، وحافظت على وجودها طيلة سنوات المخاض للدول الأعضاء فيها وهي عشر دول هي السنغال والنيجر والكنقو - برازفيل - تشاد ، جمهورية إفريقية الوسطى، بوركينا فاسو، توجو، بنين، ساحل العاج، موريتانيا، وقد انفصلت عنها في وقت سابق جمهوريتا الجابون والكاميرون وأسست كل واحدة منها شركة طيران خاصة بها، وذلك لغناهما بالنسبة إلى الدول الإفريقية الأخرى.

وهذه الشركة كانت إحدى شركتين كبيرتين للطيران في إفريقية

والأخرى هي شركة طيران شرق إفريقية كانت مشتركة بين الدول الإفريقية الثلاث كينيا ويوغندا وتنزانيا فاختلفت فيما بينها ليس على انحلال الشركة واضمحلالها، وإنما على أسلابها بل أشلائها. ومن الملاحظ أن الشركة التى فشلت كانت تملكها دول كانت مستعمرات إنكليزية على حين أن (إيرأفريك) هذه التى نسافر عليها الآن تملكها دول كلها كانت مستعمرات فرنسية. وذلك مظهر من مظاهر الفروق ما بين المستعمرات الإنكليزية والمستعمرات الفرنسية في إفريقية فالمستعمرات الفرنسية بعضها حافظت على هدوئها، وازدهارها، وبعضها تقدمت.

أما المستعمرات الإنكليزية فإن أغلبها قد تدهورت حالته مثل أوغندا وغانة أو تدهورت حالة الأمن فيها مثل نيجيريا.

صعدنا لطائرة (إيرأفريك) وهي ضخمة من طراز دي سي ١٠. قادمة من مدينة نيويورك، وسألنا المضيفين عن المقاعد التى نحملها في بطاقات الصعود للطائرة. فقالوا: اجلسوا حيث شئتم من منطقة غير المدخنين فلا ضرورة للتقيد بالأرقام،

وأعلنوا أن الطيران من داكار إلى مطار روبرت الدولي في ليبيريا سيستغرق ساعة وخمسا وثلاثين دقيقة.

وكان قيامها فى الحادية عشرة والنصف ضحى، متأخرة عن الموعد المحدد لها فى الأصل بثلاثين دقيقة.

أما الموظفون في هذه الطائرة الكبيرة فإنهم كلهم من الإفريقيين، وقد اختاروا المضيفات من المتوسطات فى العمر اللاتي يفترض أنهن يتحلين بحسن المعاملة أكثر مما يتحلين بالجمال النسبي للمظهر.

وضيافتهم كأس من الشراب، لأن الوقت ليس وقت وجبة من وجبات الطعام، وكان الجو غائماً فلم نتمتع برؤية منطقة مدينة (داكار) من الجو، ثم ارتفعت الطائرة عن السحاب.

وعندما صحا الجو كان المنظر تحت الطائرة هو منظر إفريقية الخضراء التى نعرفها من قبل وهي الواقعة تحت خط الاستواء أو القريبة منه ، وهي تختلف عن منطقة داكار التى هي شبه صحراوية، وليست خضراء ولذلك ترى الرمال الحمراء وأنت سائر ما بين داكار ومطارها.

كما تجلت التربة الاستوائية الإفريقية الحمراء ، وذلك فى الطرق الترابية في الغابات التي تفترش بساطًا أخضر شاملاً.

وقبيل الوصول أبصرنا تحتنا نهرًا ضخماً في هذه الغابات وهي يغذ السير إلى منتهاه فى المحيط الأطلسي الذي يقع بقربه المطار.

في مطار ليبيري:

هبطت الطائرة في الثانية إلا الثلث في مطار (روبرت الدولي) في ليبيريا وأعلنوا للركاب الذين يقصدون (ابيجان) مثلنا أن عليهم أن يبقوا في الطائرة.

واسترجعت في ذهني عهداً مضى منذ سنوات عندما زرت ليبيريا. وهبطنا في هذا المطار فاستقبلنا فيه إخوتنا المسلمون من أهل ليبيريا. وقد ذكرت ذلك في كتاب «شهر في غرب إفريقية» المطبوع.

واسم المطار بالانكليزية (روبرت انترناشنال ايربورت).

ولم يكـن فى الطائرة مـا يقطع الـوقت إلا الحـديـث مع شبـان من البـيض الأمريكيين يتـضح من مظهـرهم أنهم من أهل التـرف والنعمـة أخـبـرونا أنهم ذاهبـون إلى سـاحل الـعـاج للعـيش مـدة عند أسـر من الإفـريقـيـين أهل البـلاد فى نطاق التـعـاون بين الشـعـوب واكـتـسـاب الصداقات لديهم.

ومع ذلك رأيت في أذن أحد الشبان قرطًا ذكر لي أحدهم أنه يدل على أنه من المخنثين الذين يدعون الآن بالشاذين.

وقد نزل عدد منها من الركاب إلا أنها عندما قامت في الساعة الثانية إلا عشر دقائق لم يكن صعد إليها أحد.

وأعلن مكبـر الطائرة بالـفرنسـيـة والانكليـزية أن المسـافـة إلى مطار ابيجـان هي ساعة واحدة، ولم يـعلنوا في الطائرة بأية لغة إفريقـية، لأنه ليس فى المنطقـة لغـة إقليـميـة واحـدة، وإنما لغـات أهلهـا محليـة عـديدة مـخـتلفـة. وقـد يكون فى بعض الدول عـشـرات اللـغـات المحليـة، وفي مجموعها قد يبلغ عدد اللغات مئات.

وكان وقت الغـداء قد حان فـوزعوا على الركـاب قائمة بطعـام الغداء بالفرنسـية والانكليـزية وهي حافلة بما لذ وطاب. إذْ لم يدخـلها شئ من الخنزير أو الحرام.

ثم قدمـوا الغداء سخـيًا جيدًا اشـتمل على السمك ولحم الغنم، والخـبز الجيـد والبطاطس وأنواع مخـتارة من الأجبـان الفرنسـية منهـا اللبأ وهو اللبن الذي يـكون للدابة بعــد أن تلد مـبــاشـرة. ومع ذلك الماء المعــدني، وعصـير البرتقـال والحلوى، وكل ذلك في غاية النظافـة والذوق الرفيع،

وقال لي رفيقي الشيخ الدكوري: إن هذه الشركة قد تغيرت إلى الأحسن فى الوقت الحاضر، لأنه تولى إدارتها مدير فرنسي.

في مطار ابيجان:

انتهت الساعة التي تفصل بين المطارين الليبيري والعاجي كما يحب إخواننا المسلمون في غرب إفريقية أن ينسبوا إلى ساحل العاج فوق إفريقية الكثيفة الخضرة الغائمة الجواء.

وقد حطت الطائرة في ابيجان فى الثالثة إلا عشر دقائق بعد طيران استمر ساعة واحدة . و(ساحل العاج) من البلدان التى حافظت على الروابط المتينة مع المستعمرين السابقين وهم الفرنسيون . ومن ذلك الابقاء على التسمية الاستعمارية للبلاد:(ساحل العاج) وهي المستوحاة من هدف الاوروبيين الأوائل الذين كانوا يسعون إلى كسب المال والثروات فأسموا البلاد بأسماء تدل على ذلك مثل هذه البلاد (ساحل العاج) وجارتها (ساحل الذهب) التي غير أهلها اسمها بعد الاستقلال إلى اسم (غانة) تيمناً باسم مملكة (غانة) التي كانت أول مملكة إفريقية غربية امتد بها الزمن لقرون عديدة، وكانت مفخرة للافريقيين ، وإلا فإن (غانة) الحديثة التى عاصمتها (أكرا) ليست في موضع(غانة) القديمة.

فغانة القديمة مكانها على ضفتي نهر السنغال الذي يفصل بين موريتانيا والسنغال، ونهر السنغال كان يسميه أسلافنا العرب (نيل غانة) قال فيه أحدهم:

«نيل غانة شقيق نيل السودان ويصب فى البحر المحيط الأعظم».
ويريد بالبحر المحيط الأعظم «المحيط الأطلسي» ونيل السودان نهر

النيجر فتسميته هكذا عند أسلافنا العرب والسودان عندهم هو السودان الغربي الذي تمثل قاعدته الآن جمهورية مالي.

كان المطار قد أصابه مطر جود قبل وصولنا بدقائق، لذلك كانت المناقع فيه فى كل مكان فلوثت الأحذية وما تطامن من الثياب، لأنهم جعلونا نسير على أقدامنا من الطائرة إلى مبنى المطار حيث هو قريب منها.

أسرعنا إلى مكتب العابرين فيه، نطلب منه تحويلنا إلى الرحلة المسافرة إلى (ليبرافيل) عاصمة الجابون، وأن يتأكد من وصول حقائبنا من داكار ومن شحنها إلى ليبرافيل. ولكن الموظف فاجأني بقوله: لا حجز لك في هذه الرحلة، مع أن التذكرة عليها بطاقة الحجز، وحجزي فيها مؤكد . وبعد أخذ ورد بينه وبين رفيقي الشيخ الدكوري بالفرنسية أقر بوجود الحجز وذكر أن سبب الاختلاف أن اسمي في التذكرة العبودي وفي الحجز محمد ناصر.

وكان مطار ابيجان مزدحماً كعادته بالركاب لأنها منطلق لكثير من الرحلات العابرة، ولكون البلاد تتمتع بقوانين مرنة فيما يتعلق بالشركات الكبيرة وعدم مضايقة رؤوس الأموال.

وبعد ذلك انتقلنا إلى قاعة كبار الزوار فى المطار وفيها المشروبات المعتادة التي اخترنا منها الشاي، وهي ذات مقاعد وثيرة، ومزدحمة بالناس وأغلبهم من البيض إلا أنها ليس فيها حمام وإنما على من يريد ذلك أن يذهب إلى الحمامات العامة في قاعة المغادرة.

وتعرف السفير الدكوري على موظفة في المطار مسلمة كانت حجت

في العام الماضي. في ضيافة رابطة العالم الإسلامي فرحبت بنا وخدمتنا بالتأكد من أن حقابنا قد وصلت بالفعل وأنها شحنت إلى ليبرافيل.

من أبيجان إلى لومي:

ركبنا مع طائرة أخرى تابعة لشركة إيرافريك وهي كبيرة أيضاً من طراز الحافلة الجوية (ايرباص) التى هي من صنع أوروبي وليست كأكثر الطائرات الكبيرة صناعة أمريكية مثل طائرات بوينغ و دي سي ١٠. وقد امتلأت عن آخرها بالركاب وكلهم من الافريقيين الغربيين مما أكد ما لاحظته في عدة رحلات سابقة، من كون المواطنين الأفريقيين في غرب افريقية يستعملون الطائرات في تنقلاتهم أكثر مما يستعملها أهل إفريقية الشرقية. وأكثرهم يحمل معه أمتعة يدوية متعددة قد ناءت بها يداه وبخاصة من النساء لذلك كانوا يصلون إلى الطائرة وهم يلهثون بعد الصعود على السلم المرتفع، فكانت لأجسامهم في ازدحامهم، رائحة من العرق والصنان، يتأذى بها الأنف والعينان ولا يستطيع الأجنبي عنهم أن يشكو لئلا يقال أن ذلك تعصب عنصري منه ضدهم.

والواقع أن مثلي فيما أعرفه عن نفسي من أبعد الناس عن التعصب العنصري، لأن ذلك التعصب مذموم بل منكر في الدين وهو مخالف لقواعد الدين الإسلامي التى تؤاخذ الإنسان على ما كسبت يداه، وليس لونه مما كسبته يداه، بل هو أمر خلق عليه قبل أن يعقل، وبعبارة أكثر اختصاراً أن الإنسان يؤاخذ على خُلُقه بضم الخاء واللام ، لا على خَلْقه - بفتح الخاء وإسكان اللام.

ولأمر آخر يتعلق بالتجربة وهو أنني زرت العالم كله، وعاملت شعوبه بأجمعها على اختلاف ألسنتهم وألوانهم فوجدت فيهم الخير والشر، ولم أجد الخير من لون دون لون ولا الشر في لون دون لون آخر.

وبالنسبة للأفارقة فإنهم في مرحلة من مراحل تطورهم فى التعليم والتربية لا ندري ماذا تفضى بهم إليه، ولكنهم بالطبع يقلون في هذا الأمر عن الأوربيين الذين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من حسن الإدارة وإدراك النافع من الضار فى معاملة الشعوب الأخرى إلا بعد أن قطعوا الى هذه المرحلة مراحل دونها.

وهذا الكلام بطبيعة الحال لا يشمل المسلمين الملتزمين بالإسلام قولاً وعملاً وسلوكًا ومعاملات فأولئك لا يمكن أن يدانيهم في حسن المعاملة مع الآخرين مدان من أهل الأديان أو المذاهب الأخرى.

ولم أجد فى تعاملي مع الأفارقة ما يقدح في معاملتهم لي إلا كون بعضهم يشعر بأن البيض يحتقرون السود فيحاول أن يقابل ذلك بضده ظنًا منه أنني من أولئك البيض، وإلا ما لم يصل إليه إدراكهم من بعض الأمور المتعلقة بمعاملة الأجانب. أي إن سوء المعاملة، مثلاً ليس طبيعة أصيلة فيهم.

هذا فيما يتعلق بما أعرفه عن نفسي من البعد عن التمييز العنصري ولكن ما حيلة الإنسان إذا هجم عليه شئ ذو أذى مادي هل يحاول أن يقنعه بأن ذلك غير صحيح. أو أنه لا ينبغي أن يتأذى منه.

والقوم هذه بلادهم وتلك طائراتهم ويجب أن نشكر لهم حسن

ضيافتهم لنا ، ونحن جئنا إليهم لهدف نبيل جليل ألا وهو الإطلاع على أحوال إخواننا المسلمين في منطقتهم، وتوثيق الصلات معهم.

أعلن مكبر الصوت فى الطائرة أن الطيران من ابيجان إلى (لومي) عاصمة (توقو) سيستغرق ساعة واحدة. وكان قيامها فى الخامسة إلا ربعًا. وجميع المضيفين والمضيفات فيها كالتي قبلها هم من الافريقيين. وعندما ارتفعت الطائرة واستوت في الجو تنفست الصعداء لأن الجو برد داخلها فخف العرق حتى جف.

وكانت الضيافة شطائر من الخبز داخلها جبن أو زبدة– لا أدري فلم آكلها لأنني قد شبعت من قبل– ولكنني لاحظت أنهم يحضرون المزيد منها يعرضونه على من يريدون المزيد مع أنها كبيرة الحجم جيدة النوع ومعها البارد من شراب الفاكهة والأشربة الغازية. وبعد ذلك الشاي والقهوة. وهي بهذا تفوق بالكرم أضعافًا مضاعفة الطائرات الهندية التي تطير بين المدن الهندية المتباعدة، وقد عودتنا البخل والتقتير فى طعامها وشرابها.

في مطار لومي:

هبطت الطائرة فى مطار لومي عاصمة جمهورية (توقو) فجددت عهدًا مضى بهذا المطار وبمنظر المدينة وشاطئها على المحيط الأطلسي، وكنت زرتها أكثر من مرة، وتكلمت على (توقو) وعاصمتها (لومي) في كتاب «بقية الحديث عن إفريقية» المطبوع.

وكان هبوطها فى السادسة الا ربعًا أي بعد ساعة لم تزد ولم تنقص من الطيران.

ونهض كثير من الركاب النازلين لأنهم طلبوا من الذين سيواصلون سفرهم البقاء فى الطائرة . وكانت النسوة الافريقيات يجاهدن فى لملمة ثيابهن الوطنية التى تتألف من فوطة واسعة عريضة تضرب إلى الكعبين فوقها قميص يكون واسعًا فى أكثر الأحيان، ولكنه قصير الكمين، وذلك لباس لأكثرهن اتخذنه لباسًا وطنيًا أو إن شئت قلت: قوميًا افريقيًا فى هذه المنطقة، لأنه لباس النساء فى أكثر من دولة من دولها بديلاً من اللباس الافرنجي الضيق. وذلك لكون معظم المسافرات معهن ما يثقل أيديهن من الأمتعة والحقائب كما قدمت. ثم عادت إلى الطيران فغادرت مطار لومي في السابعة إلا ثلثًا بعد أن صعد إليها عدد قليل من الركاب.

وأعلن مكبر الصوت فيها أن مدة الطيران إلى كوتونو عاصمة بنين هي ثمان عشرة دقيقة. فهي قريبة جدًا، وسبق أن قطعتها بالطريق البري ووصفت ذلك فى كتاب : «بقية الحديث عن افريقية» وعفوًا عن تكرار اسم الكتاب، فإنني إنما ذكرت ذلك لظني أنك قد تريد الاطلاع على وصف للرحلة البرية بين لومي وكوتونو.

وكان المنظر من الطائرة عند الإقلاع كالمنظر عند الهبوط غابات كثيفة ندية وساحل من ساحل المحيط الأطلسي توشحه رمال حمر لا تفتأ تغسلها مياهه دون كلال أو ملال. وكلا العاصمتين التي غادرتها الطائرة والتى ستصلها مالك من ملاك هذه الشركة الافريقية الغربية وهما توقو وبنين.لذلك كانت الشركة شبه مجبرة على الهبوط فى المطارين كليهما رغم قرب المسافة الذي يجبرها على عدم التحليق على ارتفاع عال مع أن الطيران المنخفض ليس مريحًا للطائرات الكبيرة مثل هذه.

فى مطار كوتونو:

وهي عاصمة جمهورية بنين الشعبية. وتسمية بنين كتسمية (غانا) هو على اسم مملكة افريقية خالصة ازدهرت فى منطقة بنين التى تقع الآن فى أرض نيجيريا المجاورة ، وليست واقعة فى موضع جمهورية بنين الشعبية هذه وإنما أسموها بنين تيمناً باسم تلك المملكة الافريقية الراقية. وذلك من قادة الدولتين بنين وغانا جاء رداً على أقوال بعض الأوروبيين أو على الأدق المستفرقين- على وزان المستشرقين منهم الذين ينكرون على الأفارقة أي إسهام لهم فى الحضارة الإنسانية، ويصورونهم بأنهم كانوا متوحشين حتى جاء الاستعمار الأوروبي فأنقذهم مما هم عليه من همجية.

ومن الطريف فى أمر الطيران إلى كوتونو أن مكبر الصوت فى الطائرة أعلن أن الطيران إلى (كوتونو) يستغرق ثمان عشرة دقيقة، وأن الوقوف فى مطارها سيستغرق خمسين دقيقة.

وعندما هبطت في هذا المطار كان الظلام قد حل فلم نر من الطائرة شيئاً من معالم المطار مع أنني كنت سافرت منه قبل ذلك، وقد طلبوا منا نحن العابرين البقاء فى الطائرة .

إلى لاجوس:

قامت الطائرة فى الساعة الثامنة إلى مطار لاجوس عاصمة نيجيريا وأعلنت المضيفة بالفرنسية ثم الانكليزية أن الطيران من كوتونو إلى لاجوس سيكون لمدة عشرين دقيقة. وقد اضطربت الطائرة وهي تقابل سحاباً منخفضاً حتى صرخ أحد الركاب، واصفر لون امرأة منهم، وذلك لكونها تطير طيراناً منخفضاً بسبب قصر المسافة بين المدينتين.

ولم يكن عدد الركاب الذين صعدوا إليها من كوتونو قاصدين لاجوس كثيرًا. وكلهم من الإفريقيين.

ولم يقدموا خلال هذه الرحلة والتي قبلها أي شئ للركاب لقصر المدة.

ولم تزد مدة الطيران على ما أعلنوه وهي عشرون دقيقة، فبقينا فى مطار لاجوس بعد أن طلبوا منا ذلك.

إلى ليبرافيل:

تأخر قيام الطائرة من مطار لاجوس أكثر مما قدرناه، وهذه عادة لستها في هذا المطار عندما مررت به أكثر من مرة ومنها واحدة كنت فيها مسافرًا إلى ليبرافيل نفسها التى نسافر إليها الليلة. ولم تقلع إلا في التاسعة والنصف بعد أن ركب فيها ركاب قليل من لاجوس كلهم من الافريقيين. وأعلنوا من مكبر الصوت أن مدة الطيران إلى ليبرافيل ستكون ساعة وثلثًا.

وكان الظلام الدامس هو المخيم على الرحلة فلم نتمتع بأي منظر خارجها. وقدموا عشاء جيدًا كالغداء يدل على أن هذه الشركة الإفريقية الغربية (إيرأفريك) قد طرأ على خدماتها تطور إلى الأحسن تمثل فى هذا وفى خدماتها فى الحجز وقطع التذاكر .

فى مطار ليبرافيل:

وهي عاصمة جمهورية الجابون التى يرأسها الرئيس المسلم (عمر بنجو) وتذكرت في نفسي وأنا أدخلها كيف دخلتها لأول مرة فى عام ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م. رئيسًا لوفد رابطة العالم الإسلامي. وكنت آنذاك أشغل وظيفة الأمين العام للجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة وليست

لي علاقة إدارية بالرابطة، وإنما طلبت مني الرابطة أن أترأس وفدها لحضور الاحتفال بدخول الرئيس بونجو في الدين الإسلامي ونطقه بالشهادتين، وكان اسمه (بونجو) فقط عندما دخلنا البلاد وأسميناه عمر بعد بحث معه في هذا الأمر.

وكان وفد الرابطة آنذاك مؤلفاً من الشيخ محمد محمود الصواف عضواً والشيخ حرمه ولد بابا أحد السياسيين الموريتانيين السابقين والأستاذ محمد محمود حافظ سكرتيراً للوفد، والأخ فؤاد خوج مصور تلفاز وحضر معنا حفلة إسلام الرئيس وفود من الدول العربية منها وفد من الإمارات برئاسة وزير المالية ووفد من ليبيا يرأسه الشيخ محمود صبحي رئيس جمعية الدعوة الإسلامية فى ليبيا فى ذلك الوقت.

وقد استقبلنا فى المطار آنذاك موظفون رسميون من وزارة خارجية القابون ومن رئاسة الجمهورية .

أما اليوم فكان هبوط الطائرة فى الحادية عشرة إلا عشر دقائق بوقت (داكار) ويوافق الثانية عشرة إلا عشر دقائق منتصف الليل بتوقيت القابون. ولم يستقبلنا في المطار أحد، لأننا لم نشعر الحكومة الجابونية ولا مكتب رابطة العالم الإسلامي في الجابون ومن المقرر أن نبقى في مطار ليبرافيل إلى السادسة صباحاً حيث نغادره مع الخطوط القابونية إلى (لواندا) عاصمة أنقولا. أي أننا لا نبقي خارج المطار إلا أربع ساعات تقريباً. ومع ذلك قررنا أن نسكن فى أقرب فندق فى البلد من المطار هذه الساعات الأربع لأن المطار ليس فيه فندق. إلا أننا فوجئنا بالزحام الشديد على مكاتب الوصول الذي يقع في قاعة صغيرة ليس فيها كراسٍ.

وقد استمهلونا نحن العابرين حتى انتهوا من الركاب القادمين بعد ضجة وضوضاء مزعجة زادها ازعاجًا أن القاعة كانت تعج بأسراب من الحشرات اللاسعة مما جعل رفيقي السفير عبد الوهاب الدكوري يسرع بإخراج حبات معه من دواء حمى الملاريا فيأكل واحدة ويعطيني أخرى.

وكان هو الذي يتكلم معهم لمعرفته بصعوبة الزحام وغلبة الحر والرطوبة والعرق على القاعة فليس فيها تكييف ولا مراوح إضافة إلى أنه يحسن الفرنسية اللغة الرسمية للقوم وأنا لا أحسنها وهو - أيضًا - يريد خدمتي جزاه الله خيرًا. وبعد أن انتهوا من الركاب الواصلين الداخلين إلى ليبرافيل قامت بينهم معركة بل معارك مع ركاب ليست معهم سمات دخول وآخرين معهم سمات دخول ، ولكن الموظفين ذكروا أنها غير كافية. وأنه لا بد من حصولهم على أوراق أخرى ذكروها لا نعرف لمطالبتهم بها معنى منها قولهم : أنهم لم يحصلوا على إقامة في القابون وأن مجرد الحصول على سمة الدخول لا يكفي للسماح لهم بدخول البلاد. وكان ذلك وسط تردد الموظفين وكلامهم بأصوات مرتفعة خالية من اللياقة، أو الإحترام لمن يخاطبونهم من أبناء جلدتهم.

وبعد فترة طويلة من التردد والانتظار بل العذاب فى الوقوف مع الحشرات اللاسعة والحر الشديد والرائحة النفاذة من أجسام الناس أمروا بإدخال جميع من لم يسمح لهم بالدخول فى غرفة للشرطة فيها مكتب ولكنها ضيقة لا يزيد عرضها على ثلاثة أمتار وطولها على خمسة وجمعوهم فيها مع ضيقها وليس فيها مروحة ولا تكييف والعرق يتصبب من الأجساد.

ورأيت امرأة افريقية معها طفلها فاحتاج إلى قضاء حاجته فرفع ثيابه وقضاها فى الغرفة.

وطلبوا منا أن نبقى مع هؤلاء ولكن السفير الدكوري احتج بشدة وقال: كيف تطلبون منا ونحن (دبلوماسيون) أن نبقى مع هؤلاء الناس فى هذه الحجرة الضيقة؟

وقلت لهم : إننى أرفض الدخول فى هذه الغرفة. فقالوا: إذاً اذهبوا إلى الفندق وعليكم أن تدفعوا أجرته ٢٤ ألف فرنك إفريقي غربي أى مائتان وخمسون ريالاً ولم يبق على العودة إلى المطار إلا حوالى ثلاث ساعات إذ كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بتوقيت القابون: إن دفع هذا المبلغ - على كثرته - لهذه الساعات الثلاث أهون من البقاء هنا، ولكنهم امتنعوا عن اعطائنا الجوازات ولا التذاكر وقالوا: نبقيها هنا إلى أن تقوموا بالطائرة- فكيف نسكن فى الفندق بدون أوراق؟ والفندق بعيد جداً عن المطار، ولا نأمنهم على جوازاتنا وتذاكرنا من أن تضيع عندهم، أو يتخلف الموظف الذى تكون معه. وانتحى بنا موظف فى الشركة كبير، وقال: يجب أن تعلموا أنكم ستدفعون للفندق سبعة وعشرين ألف فرنك. وعليكم أن تتحملوا أجرة السيارة التى تنقلكم إليه فى الذهاب والإياب.فقلنا: أهذا بديل من أن تتحملوا أنتم إقامتنا لأننا سنسافر معكم بعد خمس ساعات أو أقل إلى لواندا.

فقال: نحن لا نتحمل شيئًا، وقيل لنا: إنه يريد شيئًا، ولكننا لم نعطه، لأن معاملته سيئة. وقال الشيخ الدكوري: إن كل واحد منا يحمل جواز سفر سياسياً كما ترون وهذا يخولنا الجلوس فى قاعة كبار الزوار، فامتنعوا من ادخالنا إليها.

فقلت لهم: إذاً نجلس فى قاعة المغادرة وكانت بجانبنا وفيها عدة كراس فهى أهون من هذه الغرفة؟

فقالوا: لا نسمح لكم بذلك.

فقلت لهم: إننا سوف نذهب إلى قاعة المغادرة فهى جزء من منطقة العبور ويعتبر من يكون فيها كمن لم يدخل البلاد، ولتفعلوا ما شئتم. فاشفق رفيقي الدكوري من مغبة ذلك، وقال: لا نستطيع أن نكون فى القاعة رغماً عنهم. فقلت: ليكن ما يكون وذهبت . فتبعني ولم يفعلوا شيئًا.

وبقينا فى القاعة وهي خالية من الناس وليس فيها مراوح والبعوض يسرح ويمرح فيها، ولا يحلو له الوقوع إلا على أنف أو ذراع أو حتى أن يخترق الجورب إلى الساق. وقد حملنى على تحديهم أنني تذكرت المرة الثانية السابقة لهذه التى زرت فيها القابون زيارة رسمية واستقبلني فيها فى داخل الطائرة وزير من وزراء القابون ومعه آخر برتبة وزير والأول هو الأخ (محمد موابا بيوتسا) والثاني هو الأخ (محمد هار شاني)، ومعهم مدير مكتب الرابطة فى ليبرافيل آنذاك الشيخ عبد الواحد كونطه، ومدير مكتب الرابطة فى القابون هو موظف لدينا ولو أخبرته بوصولنا لأخبر الحكومة القابونية، بل لأخبر الرئيس بوصولنا ولاستقبلونا استقبالاً رسميًا، وأنزلونا منزلاً كريماً على ضيافتهم كما فعلوا فى المرتين السابقتين. ولكنني أشفقت عليه وعليهم من السهر فى هذه الساعة المتأخرة من الليل، وقلت لرفيقي الدكوري عندما طلب مني أن نخبر مدير المكتب الأستاذ يعقوب ولد دادا وهو أخ لرئيس جمهورية موريتانيا السابق (المختار ولد دادا): إننى لا أريد أن أشق عليه ونحن

عـابرون بعـد سـاعـات قليلة ويـجب أن نكون فى المطار مـع الفـجـر. فيقتضى هذا منه أن يسهر الليل كله معنا.

وبقينا فى القـاعة، وإذا بثـلاثة من الأنقوليين العابرين مـثلنا يأتون الى قاعة المغادرة التي هي فى المطارات الدولية تابعة لقاعة السفر وفي كثير من المطارات المـتـوسطة تكـون هي قـاعــة العـابريـن، وأخـبـرونا أنهم أعطوهم نقوداً فسـمحوا لهم بالبقاء معنا فى القـاعة. أما نحن فلم نعطهم شيئـاً، وكانت هذه فرصة للتحدث مع الأنقوليين للاطلاع على بعض ما لا نعـرفـه من أمـر بلادهم كـالفنادق، وقـال أحـدهم : ان لي أخـاً مـسلماً أحضرت له هذه السبحة ذات الرائحة الطيبة من نيجيريا.

ورأينا على آخر منهم لباساً كالذى يلبسه المسلمون فى نيجيريا فظنناه مسلماً فـذكر أنه لم يسلم بعد، وإنما أعـجبه هذا اللبـاس فاشتراه ولبـسه، لأنه واسع ومخالف للباس الأوروبيين.

ثم أخبـرونا باسم الحي الذي فيه المـسجد الوحـيد فى (لواندا) وهوحـي (بالنقـا). وقـد انسنا بـهم وانسـوا بنا، وإن كـان أحـدهم لا يفـتـأ يضـرب البعوض الذي يقع عليه بشئ فى يده فيحدث صوتـاً مزعجاً.

وعـجبت من أمـر ديننا الإسـلامي الحنيف الذى اهتـدى إليه نفـر من أهل هذه البلاد البـعيدة عـن المراكز الإسلامـية .وعن جهـود الدعاة إلى الإسلام، حـتى إنه لا يوجد فـى بلادهم داعية واحـد مؤهل للـدعوة وإنما بلغنا أنهم عرفوا بالإسلام عن طريق الذين اتصلوا منهم بالكنغو وزايير، وعرفوا بعض المسلمين هناك.

هذا ولم يعطـونا الجـوازات ولا التـذاكـر رغم كـوننا لـم نغـادر قـاعـة الرحـيل. ولم نـدخل البلد. وكـوننا أخـبـرناهم بأن حـجـزنا مـؤكـد على

طائرتهم ومكتوب على تذاكرنا ولدينا سمة دخول سياسية إلى أنقولا.
ولم يكن فى قاعتهم حمام وإنما يوجد حمامات خارجة عامة على غاية من القذارة جعلتنى أتقزز إذا ذكرتها فالبول ناقع فيها رغم كونها حديثة البناء،والأوراق القذرة المستعملة منثورة فيها وفيما حولها مع أن تنظيفها لا يكلف أكثر من أن يقوم أحد العمال أو إحدى العاملات بتنظيفها.

المواطنة فى الدول المتخلفة:

ورثيت فى هذه المناسبة لمواطني الدول المتخلفة، كما رثيت لهم في أماكن أخرى من العالم، حيث يلاقون العناء من سوء المعاملة، ومن النقص فى الخدمات العامة، ومن تعسف الموظفين وفساد الإدارة ولا يستطيعون أن يجدوا من يشكون إليه أمرهم من المسئولين فى بلادهم. الذين لو شكوا إليهم لما اهتموا بهم، وإنما يقصرون اهتمامهم على مصالحهم الخاصة.

من ليبرافيل إلى لواندا:

صلينا الفجر في قاعة المغادرة فى المطار، ثم ذهبنا إليهم لنطلب التذاكر فاستمهلونا فترة حتى جاء بعدها أحدهم وهو مخمور وخاطبنا مع الأنقوليين بغلظة قائلاً:

ليسمعنى كل واحد منكم أنه يجب أن يأخذ تذكرته إذا ناديت اسمه وإلا فلا يلومن إلا نفسه!!!

يوم الجمعة ١٤٠٩/١١/٦هـ - ١٩٨٩/٦/٩م.

دخلنا طائرة (إير قابون) أى طيران القابون وهى ضخمة من طراز بوينج ٧٤٧ (جامبو) قادمة من باريس ولذلك وجدنا عليها بعض

الركـاب الأوروبيين. وهي ذات تنجيد نظيف، وكل ما فـيهـا جمـيل، إلا معاملة المضـيفين والمضيفات فـإنهم كانوا يأمرون الركاب وينهـونهم كما يأمـر المرء أولاده وينهاهم إلا أنهم أغلـظ من ذلك. مثلمـا كان الموظفـون فى المطار يعاملون الركاب فكأنهم قد اقتدوا بهم.

وقامت الطائرة في الساعة السادسة والنصف ولما تشرق الشمس بعد وذلك بتـأخـيـر ٢٥ دقـيـقـة عن الوقت المحـدد لقـيـامـهـا فى الأصل وهو السادسة وخمس دقائق. فأعلن مكبر الصوت فيها باللغة الفرنسية بعدها الانكليزية أن الطيران إلى (لواندا) سـيستغرق ساعة وخـمساً وعشرين دقيقة.

وعندما نهضت من المطار تجلت الطبيعة الإفريقية الاستوائية الكثيفة الغابات فى القابون. كـما اتضحت ضواحي مدينة ليبرافـيل وهي جميلة ذات دارات (فـيللات) ممتـدة على شاطـئ المحيط الأطلسـي غارقـة فى الحدائق.

وأمـا الأبنية المـتعـددة الطوابق فـإنها كـانت في قلب المديـنة التجـاري الذى يسميه الأمريكيون بالداون تاون وإن لم تكن كثيرة.

ثم لجـجـت الطائرة فى جـواء المحــيط الأطلسي، وأشـرقت الـشـمس عندما ارتفعت الطائرة ولم تكن أشرقت على الأرض.

وجاؤا بـطعام الإفطار. وافـر المقدار مـتعـدد الأصناف نظيفاً وكـل ما يتعلق به من أوانٍ وصحون فى غاية النظافة.

واسـتمـر المنظر تحت الطائرة سـحـابًا مطبقـاً لا ترى الا أعاليـه وإن كانت تطير غير بعيدة من الشاطئ.

في مطار لواندا:

قبيل الوصول إليها انقشع السحاب عن الأرض ولا نقول عن السماء كما كنا نقول ونحن على الأرض. ولكنها صادفت سحابًا آخر ما لبثت أن مزقته ونفذت منه إلى الأسفل آخذة فى التدني إلى الأرض. فرأينا أنها كانت تطير على ساحل المحيط الأطلسي.

وشاهدنا الأرض من تحتنا ذات أشجار نضرة ولكنها ليست بالخضراء المطبقة الخضرة . ولم أر أيضًا على هذا الساحل عمارة مزدهرة من حقول زراعية واسعة أو من قرى كثيرة عامرة.

ثم قربت من مدينة (لواندا) وصارت تطير فوق ضواح من ضواحيها شعبية غير مرتبة، بل إنها منازل غير متلاصقة، لأن كل منزل مستقل عن الآخر. وليس بينها شوارع واسعة مستقيمة إلا شوارع متباعدة، وليس فى شوارعها أزفلت.

والمدينة من هذه الضواحي الشعبية تبدو ذات مظهر نصف صحراوي، وليست في منظر إفريقية الخضراء التى عرفناها تحت خط الاستواء، وما قرب منه. فهى تبدوأشبه ما تكون من ناحية عدم شمول الخضرة بمدينة داكار عاصمة السنغال.

ثم ظهرت المدينة الفاخرة على ساحل المحيط ذات أبنية متعددة الطوابق وفى ارتفاعات عالية، وشوارع مشجرة ولكنه تشجير غير شامل. وهي في موقع جميل.

ولم استطع استكمال المنظر إلى المدينة لأن الطائرة أسرعت فى الهبوط إلى المطار فى الساعة الثامنة إلاَّ ربعًا بعد طيران استغرق ساعة وربعًا فى مدرج طويل جدًا، بعيدًا عن ساحة وقوف الطائرات.

وتحف بالمدرج أعشاب كثيفة هامدة مما يدل على أن المنطقة تشهد سيولاً فى وقت معين من السنة يتلوها جفاف كما يكون الربيع والصيف فى بلادنا العربية الشمالية.

وسارت الطائرة فى المدرج سيرًا غير سلس، لأن فى أزفلت المطار شقوقًا كثيرة إما من رداءة زفلتته فى الأصل، أو من بُعْد عهده بالإصلاح والترميم.

ورأينا طائرات عديدة من طائرات خطوط أنقولا رابضة فى المطار يميزها الشعار الذى وضعوه على طائراتهم وهو رأس وعل من نوع نادر لا يوجد بكثرة إلا فى أنقولا وهو ذو قرون مقوسة بشكل خاص تشبه الأهلة.

ثم وصلت الطائرة إلى قرب مباني المطار التى رأيتها واسعة ممتدة، وقفت بقربها حافلة واحدة وهي طائرة كبيرة إلا أن الركاب فيها ليسوا كثرة. فحملت الحافلة دفعة من الركاب عادت بعدها لتأخذ دفعة أخرى وكنا مع الثانية.

كان أول من رأيناه فى داخل قاعة الوصول رجلاً واقفًا على مكتب سأل عن بطاقات التطعيم الصحية الصفراء، ولم أكن أحمل منها شيئًا بعد أن تجاوزها العالم وصاروا لا يسألون عنها فى المطارات، وذلك لتقدم الطب فى مكافحة الأمراض، ولأنها تكون – فى الغالب – مزيفة.

وكان رفيقي السفير الدكوري يحمل واحدة منها، وقد أمسك الرجل بجوازى وأشار إلى عضده بالتطعيم يريد أنه لا بد من تطعيمي هنا فأعطاه الدكوري ثلاثة دولارات أمريكية فختم على بطاقة الدخول بما

يدل علـى أنه رأى مـعي البطاقـة صـالحـة، مع أنـه لم تكن مـعى بطاقـة أصلاً.

وقيل لي بعد ذلك: إن السبب أن البلاد موبؤة الآن بالكوليرا. وقد مات بها آلاف من أهلها.

هذا وقـد انفـقنا وقتـاً فـى ملئ استـمـارات الدخـول فى المطار لأنهم لم يعطونا إياها فى الطائرة كما تفـعل البلدان الأخرى. وهى مكتوبة بثلاث لغات أعـلاها البرتغاليـة تحتهـا الانكليزية وأسـفل منها الفرنسـية. وهي معـتادة ولا تعقـيد فيـها، إلا أن الصعـوبة أن المكان الذي يمكن أن يكتب فـيه المرء وهو واقف ليس فـيـه نور كاف، وليس فـيهـا مـقاعـد فمـلأناها ونحن جالسون على أرجلنا قرب نور الشمس المتسلل من الحائط.

هل أنا صحراوي؟

وصلت إلى ضابط الجوازات وأبى أن يقف أحدنا لصاحبه عنده، بعد أن أنهى جـوازه. ولـم يتـوقف عند جـوازي لأنني أحـمل سـمــة دخـول سياسـيـة من سـفـارة أنقولا فى داكـار، ولكنه فـاجـأني بقـوله: هل أنت صـحـراوي؟ وكـدت أقـول لـه: نعم، لأنني من أبنـاء الصـحـراء بالفـعل، ولكن تبين أنه يريد بالصـحراوي أهل الصحـراء الغربية التابعين لمنظمة (البوليساريو) وذلك أنه عرف بعضهم لأن البلدان ذات المنحى اليساري هي التي اعــتـرفت بهم. لـذلك قلت له: لا. والعــجـيب أنه يسـألني هذا السؤال وجوازي بين يديه، وفيه أنني عربي سعودي.

وعند ضباط الجمرك أفسـحوا الطريق لنا مع انحناءة احترام عندما رأوا ظاهر جوازينا وأنهما سياسيان، وكذلك كان الأمر بالنسبة لشخص يفتش الخارجين من قاعة الجمرك.

في مدينة لواندا:

وجدنا أنفسنا بسرعة خارج مبنى المطار مما يلي المدينة، وتنفست الصعداء لأنني كنت أحمل مبالغ مالية للمسلمين في هذه البلاد وفيما بعدها من غينيا كوناكري وجزر الرأس الأخضر وأخشى من أن يسألوا عن الجهة التي صرفتها لها عند المغادرة ولكن كان خوفي في غير محله، فلم يفتحوا شيئاً من حقائبنا، ولم يسألوا عن أي شئ يتعلق بالمال بسبب الجواز السياسي.

أيوم كيوم موزمبيق؟

خرجنا من المطار وأنا أتصور أن يتبادرني سائقو سيارات الأجرةأو سماسرة السائقين كما كانوا يفعلون في المطارات الحرة ناسياً أن هذه بلاد شيوعية.

والتفت إلى المواطن الأنقولي الذي قدم معنا أسأله عن (التاكسي) فهز رأسه وقال: سأحاول ذلك فانتظرناه فترة ثم عاد يقول بأسف: لا (تاكسي).

ورأيت رجلاً هندياً ممن أقاموا في هذه البلاد كما يدل على ذلك لونه الذي صار في لون الرماد. فقلت له: كيف أجد سيارة أجرة؟ فزم شفتيه وقال: لا تاكسي. فقلت له: والفندق؟ ماذا عنه؟ إنني لا أعرف فندقاً نقصده. فلوى عنقه عني وأنصرف دون جواب.

وتبادرت الى ذهني الذكريات عندما وصلت إلى بلد مثل هذه البلاد في كونها كانت مستعمرة برتغالية سابقة، أصبحت الشيوعية فيها ساحقه ماحقة فخربت البلاد، وأفقرت العباد، إلا وهو (موزمبيق)

عندما كنت فيها في مثل هذا الموقف لا أجـد فيها سيارة تنقلني من المطار إلى المدينة وأخـاف على أمـتـعـتي من الـسـرقـة والانتـهـاب، لأنني كنت وحدي عندمـا وصلتهـا فرأيت رجـلاً هنديًا ففـرحت به وسألتـه مثل هذا السؤال الذى سـألته هذا الرجل الآن فكان جـوابه أن أشاح بوجـهه عني وتركني دون جواب. إلـى أن جاملني رجل برتغالي كـان قادمًا بسـيارته الخاصة التى كان حصل عليها قبل الشـيوعية فى موزمبيق وحملنى بها إلى فندق في مدينة (مابوتو) عاصمة موزمبيق ولم يأخذ مني أجرة.

وفي هذا اليـوم طال بنا الوقـوف أنا وزميلي السـفـير الدكـوري ونحن نبـحث عن سـيـارة توصلـنا إلى أي فندق من الـفنادق. وقـال الشـيخ الدكـوري: ان هـنا رجـلاً مـاليًا- مـن أهل بلدة مـالي - يعـمل في الأمم المتحدة وامـرأة سنغالية تعمل - أيضـًا - في الأمم المتحـدة وسأحاول أن أتصل بهـمـا أو بأحـدهمـا حـتـى يرسل لنا سـيـارة تنقلنا إذْ لا وسـيلة للحصول على سيارة رغم كون جيوبنا كانت مليئة بالنقود.

وذهب بعيدًا يحـاول أن يجد هاتفًا فلم يجده وبقيت مع الحقائـب وفيها اثنتـان يدويتـان تضـمـان الغـالي والنفـيس من الأوراق الماليـة والأوراق الخاصة، ويسهل أخذهما أو إحداهما بالانتهاب ان لم يمكن بالاختلاس.

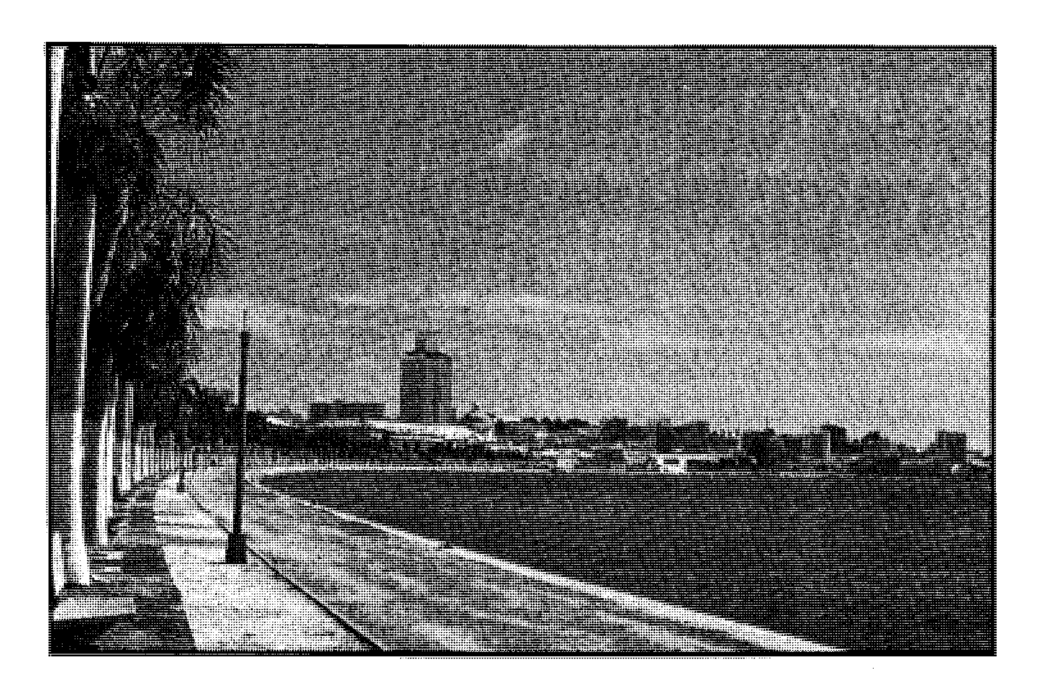
وكـان وقوفنا عند البـاب الخارجي لـلمطار وقد أقـفر من الأجـانب ولم يبق إلا مـتسكعون وفـقراء وأطفـال نصف عراة من أهل البـلاد وهم فى أسوأ مظهر من مظاهر البلاد الافريقية تحت خط الاستواء وهم يرقبوننا بأعين يشعر معها من هو فى مثل موقفنا بالخوف والارتياب.

وجاء بعض الصبيـة يسألون ويلحفون ويشيرون عنـدما عرفوا أننا لا نعرف كلامهم بإشارة التعليل والتحـقير التى يرمز إليها بضم الإبهام مع

السبابة وهي التي تليه من أصابع اليد علامة على أنه يكفيهم حتى الشئ القليل فكان الجواب: أن منع الجميع أرضى للجميع وليس معي من عملتهم نقود ولو كان معنا شئ لما اعطينا منه أحدًا في مثل هذا الموقف.

وجاء الفرج عندما قدمت طائرة فجاء بعض المستقبلين يقفون معنا عند الباب الخارجي للمطار فأنسنا بوجودهم. وخرج بعض الركاب ولكن كان للجميع من ينتظرهم بالسيارات ومنهم من يغيب عنا ماشيًا على قدميه. وبعد حوالي الساعتين من الوقوف المستمر وقفت حافلة صغيرة خاصة ليست عليها أية علامة من علامات سيارات الأجرة وقال لى سائقها: أين تريدون؟ وكان رفيقي الدكوري قد ذهب فى إحدى روحاته للبحث عن الهاتف وهو يعرف الفرنسية التى يوجد عدد من الناس هنا يعرفونها ولكنني تذكرت أنني أعرف قدرًا لا بأس به من اللغة البرتغالية تعلمته من سفري فى البرازيل. فاتفقت معه على أن ينقلنا إلى فندق (بانوراما) بخمسة دولارات أمريكية، وكان يذكر اسم الدولار بصوت منخفض وهو يتلفت يمينًا ويسارًا. وعلمت بعد ذلك أن سبب ذلك أن الحكومة تحرم على المواطنين حيازة العملة الصعبة التي يأتي على رأسها الدولار أو تملكها بأية وسيلة من الوسائل. كما تبين لنا أيضًا أنه غبنني بهذه الدولارات الخمسة من حيث ظننت أنني غبنته لأن الدولار يباع فى السوق السوداء بأكثر من سعره الرسمي مائة ضعف. وأن الدولارات الخمسة هذه تساوي بالسوق السوداء مثل أجرعاملين اثنين فى الشهر. فقلت له: اذهب وابحث عن رفيقي ووصفته له لأنني لا أستطيع أن أحمل الأمتعة حتى أذهب وأناديه. ولا أستطيع أن أتركها وكان الدكوري لا يزال يكرر البحث عن هاتف فذهب السائق وجاء به.

وركبنا ونحن لا نكاد نصدق وسار بسيارته بعد أن نقل حقائبنا بسرعة إلى السيارة وليس معنا أحد في هذه الحافلة الصغيرة. وانطلق بسيارته من المطار وما أسرع أن وصلنا إلى ضواحي المدينة التي يقع المطار غير بعيد منها، بل هو ملاصق لها ثم دخل إلى:



لواندا

مدينة لواندا:

وسار في شوارع المدينة التي تقع عليها المنازل الجيدة المؤلفة من أبنية متعددة الطوابق واخترقها إلى أن وصل إلى قلب المدينة الرئيسي على شاطئ خور وهو ما نسميه الآن بالخليج من البحر المعتنى به، وقال أحدنا لصاحبه: ألا تخشى أنه فهم أن الأجرة هي خمسون دولارًا؟ لأن المسافة كانت طويلة؟

وعندما قربنا من الفندق وقف وطلب أجرته خمسة دولار والتقطها منا مشفقاً من ألا يستطيع الإمساك بها وهو يقول: (بر قادو) أي شكراً بالبرتغالية. ثم أنزل حقائبنا في باب الفندق وانصرف.

فندق بانوراما:

ومعنى بانوراما: نظرة عامة أو منظر عام وهو فندق يصدق عليه هذا الوصف ويستحق أن يخصص له مثل هذا العنوان اذْ لا تزال على مداخله صور النجوم الخمس الذي كان مستواه فيها قبل الشيوعية إلا أنه لم يبق فيه غيرها مما يستحق له أن يكون ذا نجمتين أو ثلاث. رأينا في مكتب الاستقبال فيه رجلاً قصيراً سمح الوجه ، وإن كانت الوجاهة بعيدة عنه شأن أكثر الناس في هذه البلاد.

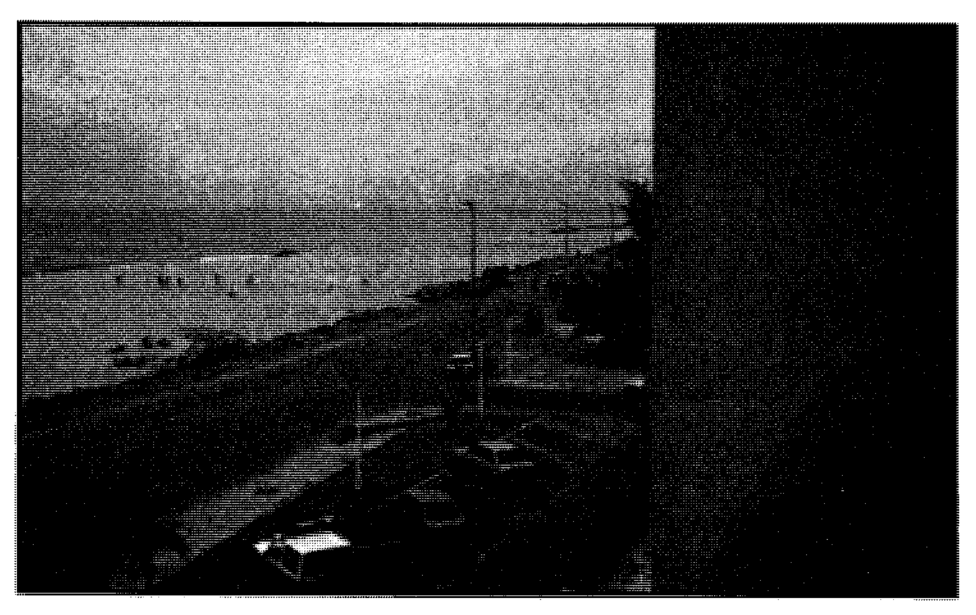
فطلبنا منه غرفتين فيه فقال: نعم لكن بخمسين دولاراً لكل غرفة أجرة مع وجبة الإفطار دون ثمن. ويجب أن يكون الدفع بالدولار أو بالفرنك الفرنسي. وكأنما أنزلنا عنده بالمجان.

ولبثنا قليلاً وهم يعدون الغرف، وكان السهر قد بلغ مني مبلغه إذْ لم أنم البارحةإضافة إلى تعب السفر المتواصل منذ ضحى أمس.

وفي الساعة الواحدة ظهراً أعطونا مفاتيح الغرف فإذا بها خالية من الماء والمصابيح الكهربائية . أما الماء فذكروا أنه لا يأتي للفندق إلا لمدة عشر دقائق في ضحى كل يوم . ومنه يجمعون في حوض الحمام في الغرفة بعض الماء الذي يمكن للنزيل أن يغترف منه إذا احتاج إلى الماء مع أن لونه متغير، وذكرت خادمة الغرفة أنه غير صالح للشرب وهي من أهل البلاد الفقراء الذين لا يلقون بالاً لمثل هذه الأمور إلا إذا كان فساد الماء عظيماً ظاهراً للجميع، وجاؤا ببعض المصابيح إلى الغرفة مع

أننا لم نكن نحتاج إلى نور الكهرباء في تلك الساعة لأن الغرفة تطل على شاطئ البحر وقد بدأت الشمس تدخلها من جدراها الزجاجي الذي وضعت عليه ستارة سميكة.

وموقع الفندق فريد حقاً فهو في الطرف الجنوبي من جزيرة تسمى جزيرة (لواندا) حيث تضيق الجزيرة فلا يكون فيها إلا هذا الفندق ومرافقه وحدائقه يحيط به البحر من الشرق والغرب.



صورة التقطتها من نافذة غرفتي في فندق بانوراما لشاطئ جزيرة لواندا الواقع على المحيط الأطلسي

أما من جهة الشرق فإنه يطل على خور بحرى يسمونه خليج (لواندا) قد التف حول جانبه الغربي القسم الذي كان فاخراً من المدينة بأبنيته الشامخة الفخمة، ويطل جانبه الغربي على المحيط الأطلسي، وقد أكثروا فيه من المرافق والحدائق إلا أنها كلها أو أكثرها قد خربت وصارت مجرد شواهد على الإهمال.

ومن ذلك بركة السباحة التي ليس فيها ماء.والمصاعد التي ليس في داخلها نور، لذا يجب عليك أن تعرف موضع الرقم الذي تريده من المصعد. ثم إذا أغلقت بابه تلمست الرقم فى الظلام فضغطت عليه.

والتكييف المركزي فيه قد فسد فأحدثوا مكيفات منفردة لكل غرفة ولا تزال تعمل. والأنوار المتعددة التي تدل على العناية العظيمة بالتمديدات الكهربائية قد خربت.

ومع ذلك فقد فرحنا لمجرد الحصول على غرف فى فندق فى لواندا بهذه السرعة والسهولة لأن بعض الناس كان قد أخبرنا أنه لا بد من حجز مسبق فى الفنادق وقال وربما كان قوله هذا هو من باب التنادر: إنه لا بد لمن يريد أن يأكل فى مطعم في البلد أن يحجز قبل أيام . ولا أدري صحة ذلك. وأنا أتحدث عما رأيته أو سمعت من غيري في البلد وظهرت لي صحته.

لا خبز ولا شاي:

حان وقت الغداء فنزلنا لمطعم الفندق وقد تجاوزت الساعة الواحدة وقد اجتمع عند بابه عدد من ذوي اللون الأبيض فصدنا موظف عنده بجفاء وكأنما جئنا لنسأل غداءنا وقال: بعد عشر دقائق، ولكن بعد دقيقتين فتح المطعم واندفع إليه الناس. فأول من جاء رجل معه ورقة يسأل عما نفضله من الخمر وذكر اسمها صراحة (واين). فقلنا له: لا نريدها، فكأنه لم يصدق بذلك فكرر علينا فقلنا له: نحن مسلمون، لا نشرب الخمر. وجاؤا أولاً بالشوربة وهي من الصلصة لا طعم لها.

ثم جاءت امرأة بالصحن الأول وهو قليل من الأرز مع قطعة من السمك. ثم جاءت بالصحن الثاني وهو قطعة من اللحم مع بطاطس مطحونة. وطلبنا الخبز فقالوا: لا يوجد عندنا خبز ثم طلبنا الشاي بعد الغداء فقالوا: ليس عندنا شاي . ويمكنكم أن تطلبوه من (البار) ولكن البار اعتذر أيضاً بعدم وجوده لديه. وكان ثمن هذا الغداء غير المتكامل (٤٤١) كوانزا فوقعنا عليها.

الحساب الدقيق:

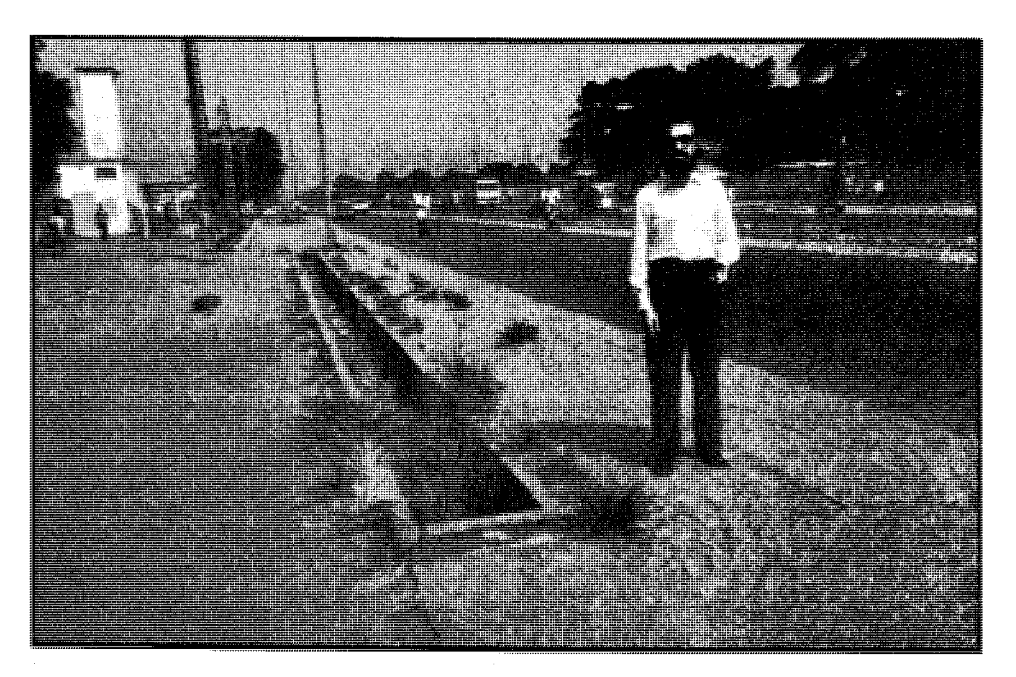
سألنا موظفاً في الاستقبال عن صرف الدولار الأمريكي بعملتهم وهي الكونزا فأحضر ورقة وكتب القيمة٢٩,٦٢ تسعة وعشرون كوانزا واثنان وستون بالمائة من الكوانزا بالدولار الواحد. إلا أننا علمنا بعد ذلك أن قيمة الدولار في السوق الحرة تتراوح ما بين ألفين وخمسمائة وثلاثة آلاف كوانزا أي أكثر من قيمته الرسمية بمائة ضعف، ومع ذلك لم يكملوا الثلاثين فيه، بل نقصوها ٣٨ بالمائة من الكوانزا. وحسبنا وجبة الغداء هذه فإذا بها تساوي خمسة عشر دولاراً أمريكياً بالصرف الرسمي والذي يجب أن ندفعه لهم على حين أن المبلغ يساوي بالصرف الحر سُدُس دولار. ولكن أين تجد الطعام خارج الفندق؟.

ثم جاءت مسلمة قريبة للشيخ الدكوري وهي سيدة سنغالية اسمها عائشة تعمل مع الأمم المتحدة في أنقولا وهي رئيسة النساء الافريقيات متزوجة ولها ثلاثة أولاد. وهي مثقفة تجيد عدداً من اللغات العالمية، وكان مجيئها فتحاً مبيناً لأنها حضرت بالسيارة التابعة لها من خلال عملها في تلك المنظمة الدولية. فكان أول ما طلبناه منها أن ترينا المسجد الوحيد في (لواندا) الذي يقع في حي (بالانقا). فذهبت على أن تعود في الخامسة.

البحث عن المسجد:

والمقصود من ذهابنا إليه هو رؤية المسجد، والبحث عن زعماء المسلمين العاملين في الجمعية الإسلامية لنبحث معهم في الأمور الإسلامية، ولنصرف للجمعية مبالغ مالية أحملها معي.

فاخترقنا أحياء جيدة من قلب المدينة الذي يشبه المدن العربية المتوسطة الحجم ولا يشبه المدن الافريقية الخالصة للإفريقيين، ولا غرو فى ذلك لأنه من بناء البرتغاليين الذين كانوا قد بنوه لأنفسهم ظناً منهم أن استعمارهم لهذه البلاد الانقولية او استملاكهم إياها سيدوم.



في جزيرة لواندا (الشارع الرئيسي)

ثم غادرنا قلب المدينة إلى حي (بالانقا) ولكن لم يكن أحد معنا يعرف من نذهب إليه من العاملين في الجمعية فقال سائق سيارة (عائشة) وهو

مسيحي من أهل البلاد : إنه يعرف دار رجل مسلم يجدر بنا أن نأخذه معنا ليدلنا على المسجد وعلى من تريدونه من المسلمين.

طرقنا باب الدار فخرج رجل بعد أن تلبث قليلاً وقال السائق: وجدته يصلي العصر، ثم خرج علينا وعلى وجهه نور الإيمان وطمأنينة اليقين، واسمه: (أحمد جان ممفبا) وهذا الاطمئنان واليقين رغم كونه حلت به مصائب منها أنه - كما قال - تبخر في يوم جمعة ليطيب رائحة ثيابه فشم ثيابه زملاؤه من الموظفين فى الإدارة الحكومية التى كان يعمل فيها فظنوه ساحراً تبخر ليسحرهم بسحره، ففصلوه من العمل. ومع أن هذه قصة غريبة فقد سألت عدداً من غير أهل البلاد الذين يعملون هنا وهم من مالي والسنغال فحكموا بإمكان وقوعها، لأن القوم على غاية من التصديق بالأمور التى لا يصدق بها إذا اتصلت بما وراء الطبيعة.

قال: والمصيبة الثانية أنه كانت لديه سيارة يسترزق منها فأصاب محركها عطب فتوقفت .

كان يخبر القوم بذلك وهو يتحدث به إلى سائق السيارة التي نحن فيها وهي سيارة مكتب الأمم المتحدة التي أحضرتها (عائشة) ولم يكن قد عرفنا بعد، بأننا من السعودية وأنه يمكن أن تكون معنا نقود. وسيأتي حديث عن الرواتب والأجور فى هذه البلاد والأمور المحزنة المضحكة حولها فيما بعد إن شاء الله.

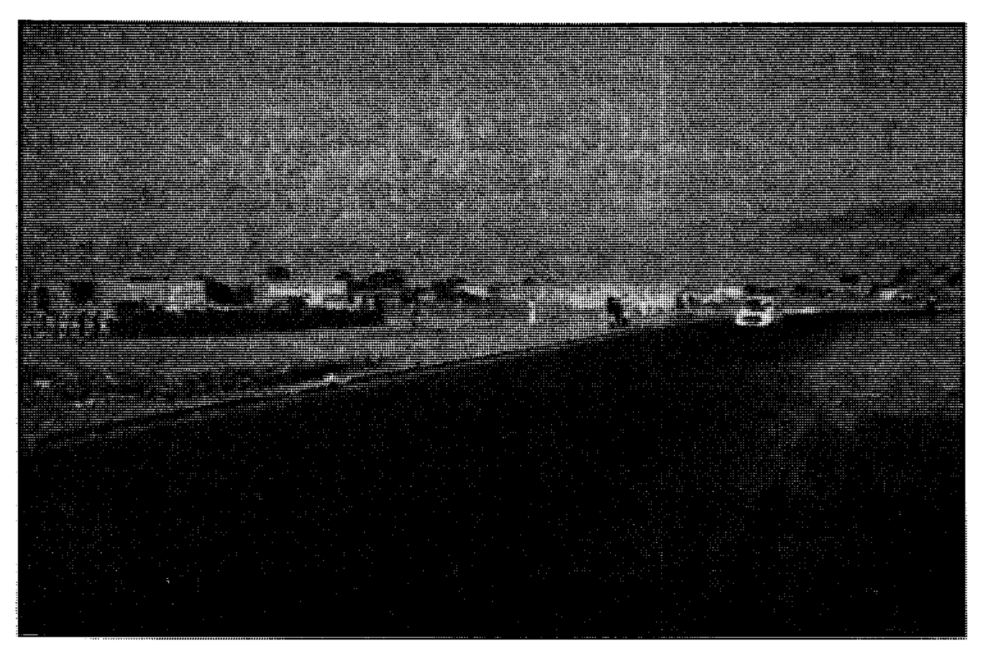
كيف أسلم؟

حدثنا الأخ أحمد جان ممفبا أنه أسلم فى عام ١٩٨٢م وعن سبب إسلامه أنه أسلم كما أسلم إخوانه هنا وذلك لكونه سافر إلى بعض

البلدان المجاورة وهي زايير والكنقو التى كانت قديماً تسمى (الكنقو برازافيل) فاتصل ببعض المسلمين وأسلم على أيديهم . وإلا فإنه لم يأت إليهم دعاة للإسلام في هذه البلاد، ولو كان جاء دعاة مخلصون صابرون لأسلم جمهور كبير من الناس، وذلك لأن الإسلام دين الفطرة وهو الذي يتفق مع التقليد الصحيح إضافة إلى أن أكثر أهل البلد هم مسيحيون بالاسم نصرهم البرتغاليون من دون أن يسمعوا بأي دين سماوي آخر، وأكثرهم دخل المسيحية بسبب الحرص على عمل أو لأنه لقن إياها وهو صغير فصار مسيحيًا دون اقتناع. ومع أن إسلام الأخ (أحمد جان) هو حديث بالنسبة إلى مقاييسنا وهو عام ١٩٨٢م فإنه يعتبر بالنسبة إلى أكثر الإخوة المسلمين من القدماء فى إسلامهم، لأن أكثرهم أسلم بعد هذا التاريخ.

فى حي بالنقا:

وهو على اسم نوع من الأيايل: جمع أيِّل، وهو الكبير من الغزلان أو الوعول كما يسميها بعض الناس. وإن كان الفرق عندنا من حيث اللغة العربية الشاعرة كبيرًا بين الأيِّل والوعل والغزال. فهذا الحيوان (بالنقا) موجود في أنقولا أكثر مما يوجد في أي مكان آخر من العالم، ولذلك وضعوا صورة رأسه بقرنيه الهلاليين شعارًا لطائراتهم على خطوط الطيران، وربما كانوا وضعوه شعارًا على غيرها.



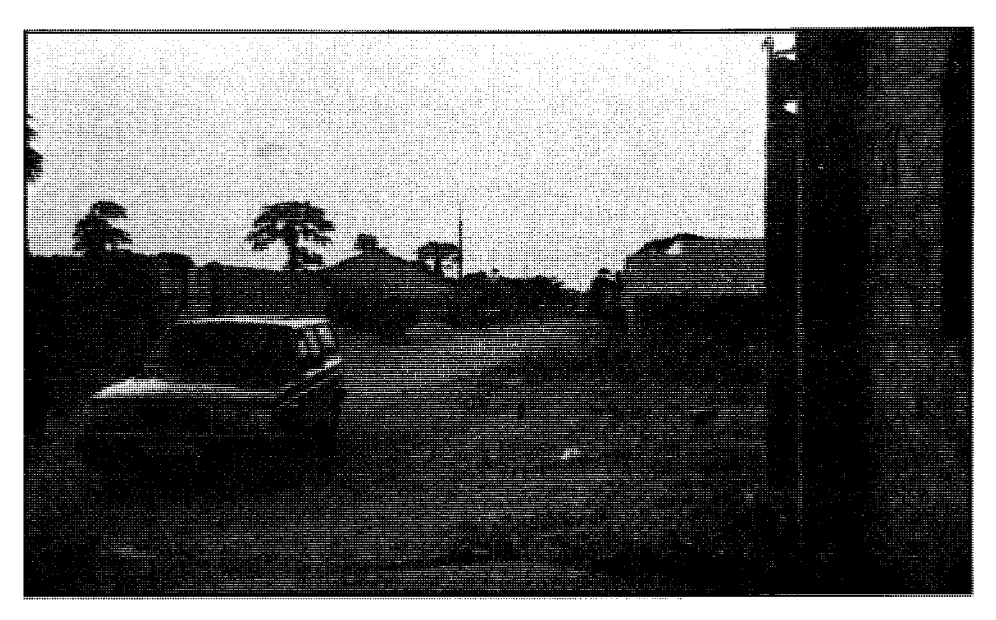
شارع حديث في ضواحي لواندا

وحي بالنقا هو الذي يقيم في أطرافه أخونا أحمد جان وفيه يسكن رئيس المسلمين الذي يكون واسطة بينهم وبين السلطات الحكومية، وفيه يقع المسجد الوحيد في العاصمة (لواندا) وربما في أنقولا كلها حسبما بلغنا من المسلمين هنا وإن كانوا يذكرون أن هناك تجمعات إسلامية صغيرة في عديد من البلدان، وربما كان فيها أماكن للصلاة على هيئة غرف صغيرة وأما المساجد كما نعرفها فإنه لا يوجد في أنقولا شئ منها غير هذا المسجد.

لم نجد رئيس المسلمين في بيته:

فأمعنت السيارة في حي (بالنقا) وهو شعبي بمعنى أنه لعامة الشعب وهم هنا من الفقراء فالشعب الآن كله فقير ولكنه فقر دون فقر كما كان يقال قديماً. وهو ذو شوارع واسعة، لكون أطرافه حديثة وبعضها لا

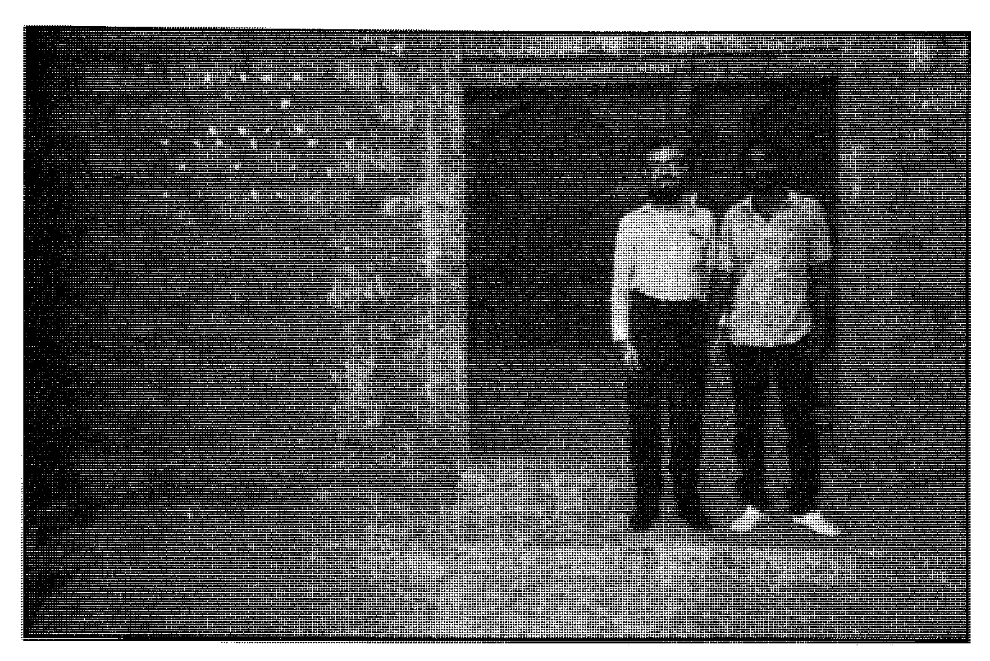
يزال فيه فراغات من الأراضي لم تبن وليس فيه من الميزات للشوارع الجيدة غير السعة التي لا تكلفهم شيئاً فهي خالية من الأزفلت ماعدا الشارع الرئيسي في الحي. وليس فيها أرصفة مثلما عليه الحال في أكثر الشوارع والأحياء خارج مدينة (لواندا). وأكثر بيوته مبنية بلبن الإسمنت ومسقفة بالصفيح المسنم.



الشارع الذي يقع عليه مسجد الفتح في لواندا وسيارة الأمم المتحدة واقفة هناك

مسجد الفتح:

وصلنا المسجد الأول في أنقولا وقد أسموه اسماً على مسمى في الحاضر ويدل على التفاؤل في المستقبل وهو مسجد الفتح. وهو فتح قلوب، لا فتح حروب. فلم يرسل المسلمون من الحواضر الإسلامية جنوداً للدعوة حتى باللسان، بل إن بعض ممثلي المسلمين الموجودين في السفارات العربية لم يقبلوا حتى أن يوصلوا المساعدات المالية التي قررتها رابطة العالم الإسلامي لهؤلاء الإخوة كما سيأتي.

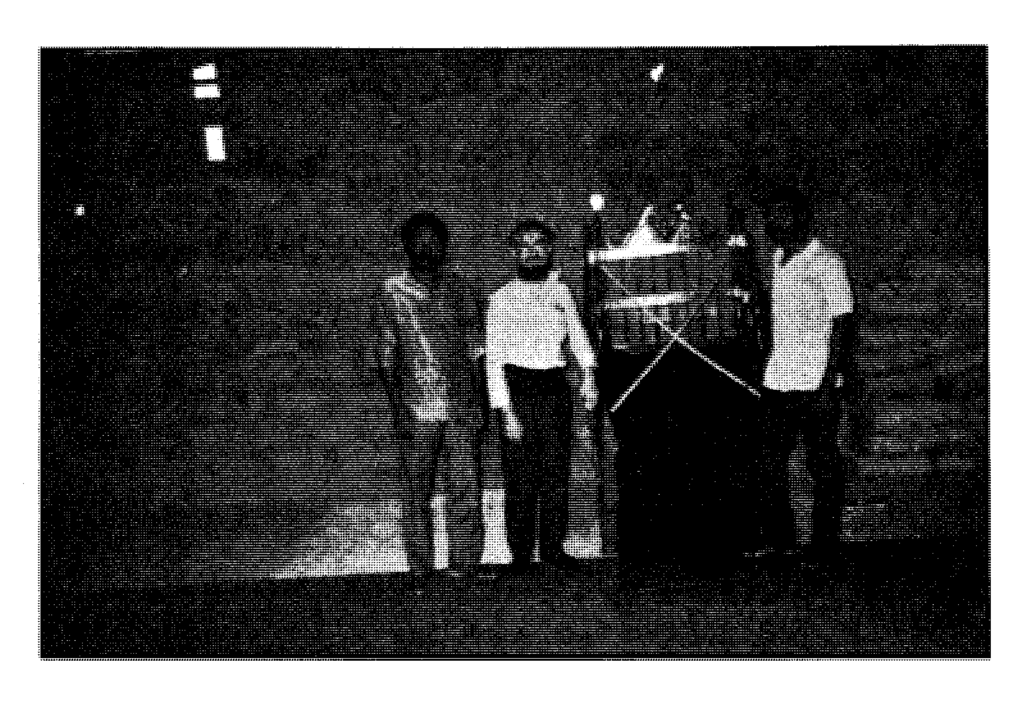


المؤلف واقف في المدخل الخارجي لجامع الفتح في لواندا مع الأخ المسلم أحمد جان

وجدنا المسجد مبنيًا بالإسمنت المسلح القوي وهو واسع المساحة بالنظر إلى إمكاناتهم الضعيفة . وقد بنوه قويًا، جيد البناء بأعمدة قوية وحيطان مثلها مما يدل على الإخلاص فى العمل وبنوا بجانبه ملاصقاً له بناء أعدوه ليكون مدرسة إسلامية ترشد الكبار ، وتعلم الصغار.

واكتمل بناؤه الى رؤس العمد فسقفوه بالزنك المؤقت على شكل مسطح خلاف المعتاد بأن تكون أسقف البيوت هنا على شكل مسنم وذلك لأن النفقة قصرت بهم عن إكماله.

ومن أوجه النقص فيه أن الأفنية التي تحيط به ضيقة مما يؤكد أنه إذا كثر المسلمون أو حتى إذا صلى المسلمون الموجودون الآن كلهم فيه الصلوات الجامعة كالجمعة والعيدين فإنه سيضيق بهم.



بجانب محراب مسجد الفتح في لواندا مع الأخوين المسلمين الأنقوليين

ووجدنا في المسجد أحد الإخوة المسلمين يصلي واسمه (ساندولا عبد الله) أسلم فى عام ١٩٨٤م . ولم يقل هو ولا الحاضرون أنه حديث الإسلام، لأن أكثرهم – كما قلت – كذلك.

وقد تحدثنا معهم بما طيب نفوسهم وبشرناهم بما أعده الله تعالى من الثواب الجزيل في الآخرة فضلاً عن الثواب العاجل من الاطمئنان النفسي واللذة بحلاوة الإيمان فى الدنيا لهم وأمثالهم من الذين يصبرون على دينهم مع قلة الأنصار وكثرة الخصوم، وضآلة الامكانات. والتقطنا لهم وللمسجد صوراً تذكارية.

حديث عن أول مسجد:

والحديث عن مسجد الفتح هذا الذي هو أول مسجد يبنى في أنقولا

حديث شجي، بل واجب، لأنه يمثل فتحًا إسلاميًا جديدًا لمنطقة كان أعداء الإسلام قد أقاموا دونه فيها سدًا حديديًا منيعًا من التعصب ساعد على استمراره وصموده ضعف المسلمين وتقاعسهم أو حتى جهلهم بهذه البلاد.

أخبرونا أن بناء المسجد ابتدأ من عام ١٩٨٦م على مراحل، وأنه مستمر حتى الآن إلا أنهم الآن سقفوه هذا السقف المؤقت من أجل أن يستعملوه للصلاة. وأن الأراضي الصالحة للبناء في البلاد كلها هي ملك للدولة، والدولة لا تبيع لهم أرضًا يبنون عليها المسجد، لأنها لم تعترف بهم، بمعنى أنه لا توجد جمعية إسلامية رسمية معترف بها يمكن أن يكون العقد باسمها. وإنما تبيع الدولة الأراضي في هذه الأحياء السكنية على عامة الناس ليقيموا عليها بيوتًا لهم.

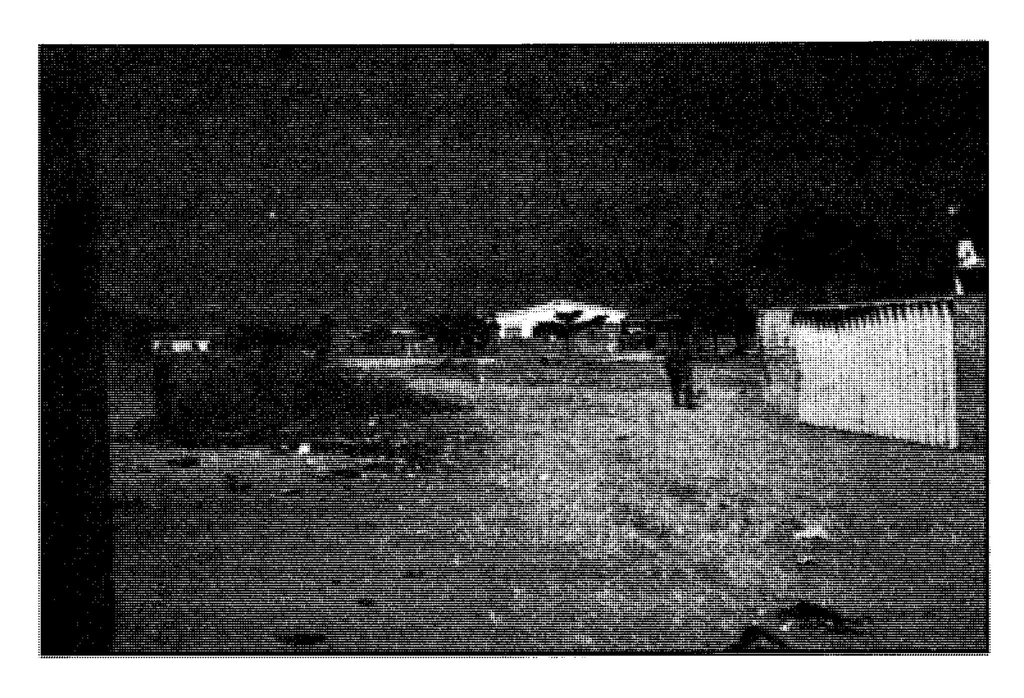
فكانت الوسيلة الوحيدة للحصول على الأرض أن أحد الإخوة المسلمين الأقوياء في دينهم ومكانتهم اشترى من الحكومة أرضًا بحجة أنه سيقيم عليها منزلاً له ثم باعها على المسلمين بيعًا ليس رسميًا غير مسجل في الدولة وذلك بثلثمائة ألف كوانزا.

و (الكوانزا) وهي عملتهم الوطنية صارت قيمتها تنزل مع مضي الأيام فكأنها الذي قال فيه الشاعر من باب التهكم.

فيا له من عمل صالح
يرفعه الله الى أسفل

فقد وصلت قيمتها الآن الى جزء واحد من مائة جزء من قيمتها الرسمية التي لا تزال الدولة تتمسك بها كما تقدم. فثلثمائة ألف (كوانزا) تساوي الآن بالصرف الحر مائة دولار وبالصرف الرسمي ثلاثة آلاف دولار لكل دولار (٣٠) كوانزا أو أقل.

والمسـجـد يحـتـاج إلى تكملة فـى البناء والملحـقـات وإلى فـرش وأثاث ومنارة ومـرافق ومكبـرات للصـوت. ومـعنا الآن مـبالـغ ماليـة يمكن أن تكفي لذلك. إلا أنهم قالوا قبل أن يعرفـوا أن معنا شيئًا لهم : إن المهم في الأمـر أننا الآن غيـر مسـجلين فى الحكومـة، ولا تعـترف الحكومـة بنا، لذلك يصعب علينا أن نجمع التبرعـات. وقد فهمنا منهم أنه لا توجد لهم جمعية رسمية، وإنما هم جماعة أسموا أنفسهم بذلك وكاتبونا فى رابطة العــالم الإسـلامي فـي مكة المكرمـــة بهـذه الصـــفـة وأرسلـوا لنا أوراقًا مطبـوعة ولكن بـلغنا أن الحكومة أوقـفت عـملهم هذا وأوقـفت الحسـاب الذي كـان لهم بصـفـتـهم تلك على اعـتـبـار أنهم شـخـصيـة مـعنوية غيـر مرخص لها بالعمل.



منظر في حي ناشئ في لواندا

وقالوا لنا: نحن لا نريد النزاع مع الحكومة فهي قوية ونحن ضعفاء . وكل الذي نريده أن تعترف بنا الحكومة وبجمعيتنا كما اعترفت بالجماعات النصرانية.

كما ذكروا لنا أن المسجد أقيم من تبرعاتهم الخاصة المحدودة جدًا، لأن الدخول متدنية إلى حد محزن بل لا يكاد يصدق وهم ضعفاء وكلهم فقراء. إلا أننا ذكرنا لهم أننا أرسلنا إليهم مبلغًا بواسطة السفارة المصرية هنا فذكروا أنهم تسلموا معونات من السفارة المصرية وكان السفير المصري السابق الأخ (محمد السلاوي) جزاه الله خيرًا تسلم المبلغ الذي أرسلناه إليه وصار ينفقه عليهم ويدفعه إليهم على هيئة مواد للمسجد حرصًا على المبلغ لئلا يصرف في غير محله ولإنه إذا دفع إليهم نقودًا كان ذلك تدخلاً في الشئون الداخلية لا ترضى عنه دولة شيوعية مثل هذه الموجودة في أنقولا. كما أنه إذا دفع المال إليهم بالعملة الصعبة ضاع عليهم إذ تصرفه الحكومة لهم بالسعر الرسمي الذي يعطي عن المائة دولار بالصرف الحر دولارًا واحدًا.

ثم أرسلنا بعد ذلك مبلغًا آخر ولكن السفير كان قد ترك لواندا، وحل محله آخر أعاد إلينا الصك (الشيك) دون أن يصرفه معتذرًا عن عدم صرفه للمسلمين.

ثم مررنا أيضًا ببيت رئيس المسلمين فلم نجده واتفقنا مع الأخ (أحمد جان) على أن يتفق مع أحد الأشخاص من الذين عندهم سيارات بتأجير سيارته لنا يوميًا فوعدنا بذلك في الثامنة صباحًا .

الخبز بالعملة الصعبة:

قالت عائشة: إن ألزم ما يلزم لمن يسكن في الفندق هنا الماء فالماء حتى غير النظيف ينقطع مدة طويلة، ولا يجد المرء في الفندق ما يغسل به وجهه أو يديه . وأما الماء الصالح للشرب فإنه لا يوجد إطلاقاً، فيجب أن تشتروا صندوقين من الماء المعدني للشرب ولغيره مثل غسل الأيدي والوجوه عند الحاجة. ولا يوجد هذا الماء إلا في سوق حكومي واحد يبيع كل ما فيه بالعملات الصعبة، فلا يقبل العملة الوطنية لا من المواطنين ولا من الأجانب، ثم قالت: والخبز أيضاً إنكم لن تجدوه إلا بالعملة الصعبة فالفندق ليس فيه خبز كما عرفتم ذلك في الغداء، ولا يوجد أحد يبيع الخبز بالعملة المحلية. فأوقفنا السيارة ودخلنا متجراً كبيراً مكتوباً عليه (ايتوى فرانكس) ومعناها: السوق الحرة. ومع أنه على مستوى المدينة وتملكه الدولة فإن حجمه وما فيه من البضائع لا يتعدى حجم أحد الأسواق المركزية المعتادة في بلادنا التي يكون في المدينة الواحدة عشرات مثله.

أما أنواع البضائع التي فيه فإنها أقل مما يكون في الأسواق الصغيرة أوالمتوسطة عندنا بكثير، ومع ذلك وجدنا عليه زحاماً من الناس فيهم من هم فى مظهر الأوروبيين وفيهم عدد من الخلاسيين وهم المولودون من بين اللون الأبيض والأسود مع أنهم في الأمكنة المعتادة من المدينة غير كثير. وفيه طائفة من السود ذوي المظهر الحسن من حيث التغذية واللباس والغالب أنهم من غير أهل البلاد ، وممن يعملون لدى هيئات دولية فيها. أعطينا أمين الصندوق وهو في مدخل المتجر مائتي فرنك فرنسي وأخبرناه أننا نريد أن نشتري ماء معدنياً ونريد بقية المبلغ بالعملة

الصعبة فرنكات فرنسية، أو دولارات أمريكية فلم يرد بشئ، وإنما أخذ المبلغ وأعطانا ورقة بأنه تسلمه وتخول لنا أن نشتري بالمبلغ كله ما نشاء من هذا المتجر.

ولم ينفع معه الكلام وقالوا: هكذا الأمر عندهم أن يلزموك بالشراء بجميع ما تسلمه لهم من عملات أجنبية.

واشترينا خبزًا وجبنًا فرنسيًا ومشروبات غازية بعضها معروف لنا مثل (الفانتا) التي هي من شراب البرتقال.

كما اشترينا برتقالاً غير جيد وهو صغير الحجم، أصفر اللون الكيلو الواحد بما يعادل ثلاثة ريالات ونصفًا وشايًا، لأنه لا يوجد في الفندق شاي إلا في وجبة الفطور. وفاكهة من الباباي الذي ينبت في المواطن الاستوائية المطيرة، ومنها أجزاء من بلادهم .

ولاحظنا من مقدار ما يشتريه بعض المواطنين من المشروبات الغازية والخمور مثلاً أنهم يبيعونها لغيرهم أو أنهم يشترون لمجموعات كبيرة من الناس.

وكان أصعب ما فى الأمر طول الانتظار عند المحاسبين فكانوا يبطئون وكأنهم يرتبكون وبعضهم يقف فوق رأسه بعض الموظفين كالمراقبين. وعندما انتهينا منهم أوقفنا موظف كبير عند الباب وأخذ ورقة الحساب وجعل يطبق كل ما ورد فيها على ما نحمله من البضائع، وهكذا كل من أراد الخروج من المتجر ثم قطع جزءًا من الورقة احتفظ بها وأعطانا باقيها.

وقد اقتضى هذا منا حوالي الساعة والنصف فى شراء الخبز والماء بالعملة الصعبة.

وعندما وصلنا الفندق اتفقت مع زميلي الشيخ الدكوري على أن ننتقم منهم بعدم العشاء في مطعم الفندق الذي لا يقبل إلا العملة الصعبة. وأن نأكل مما اشتريناه من خبز وجبن وفاكهة هذه الليلة، وبذلك نوفر ما أخذوه منا من النقود التى لم نرد الشراء من المتجر بها !.

يوم السبت ١٤٠٩/١١/٧هـ - ١٩٨٩/٦/١٠م.

صباح لواندا:

وإن شئت قلت: أنه صباح أنقولا مع أننا لا نجزم بأن بقية هذه البلاد الواسعة هي مثل لواندا العاصمة فيما له صلة بالإدارة ونظام الحكم.

أزحت ستارة النافذة الواسعة في غرفتي فأسفرت عن منظر لشاطئ المحيط الأطلسي ذي رمل نقي ولكنه عار من النبات والأشجار تماماً مثلما رأيته أمس في وسط النهار حيث يحلو لكثير من الناس اللبث بقرب البحر عارياً من وجود أي إنسان.

وليس المراد بذلك أن شاطئ البحر ليس عليه أشجار فهذا طبيعي في غير البلدان المطيرة ولكن هذا الشاطئ (اللواندي) ليس فيما بينه وبين المعمور من الأرض أي عود أخضر إلا أشجار من الجزورينا وهو الأثل الأمريكي مغروسة على الشارع العام في الجزيرة.

وفي شاطئ البحر غربان ضخام سود الألوان إلا من زنار أبيض شديد البياض يلتوي حول ظهر الغراب وصدره وهي تحجل أي ترقص عندما تقع أو تريد الطيران، ورأيتها تتلاحق في طيرانها في الجو وتكاد تتعارك أو تتعانق لا أدري فأنا لا أفهم فحوى أفعال الغربان.



شاطئ المحيط الأطلسي كما رأيته من غرفتي

وكأنما كان المشي يشق عليها في الرمل لذلك رأيتـها تتبخر إذا سارت وإذا كانت تفتـخر بذلك فإن لها الحق بأن يقـول لسان حالها : اننا مـعشر الغـربان لبنى جنسنا من الـغربان أحـسن تنظيـماً فى حـيـاتنا من الحكام الشيوعيين لابن جنسهم الإنسان فى هذه البلدان.

وفهـمت الســـر في كونهـا تقــع في هذه الساعـة على شاطئ البـحر وهى أنها تلتـقط ما قد تجـده مما جاء به جزر البـحر، بعد أن بخل عليـها البر.

وطيـور كالغـرانيق الكبـيرة بيض شـديدة البـياض تقـع على اليابسـة العـارية من النبات وعـهدنا بـها أنهـا لا تقع إلا قرب المـيـاه أو علـى رؤس الأشجار وهي أيضـاً تبحث عما قد تأكله في هذه الرمال.

والغريب في أمرها وهي البيض أنها لا تقع أبدًا بقرب الغربان السود وإنما تكون في مجموعات بعيدة عنها وكذلك الغربان فهل في الطيور تمييز عنصري أيضاً؟ ربما. فالطيور على أشباهها تقع ولولا التمييز العنصري عندها لما وقعت على أشباهها فقط. غير أن موضع الشك في الأمر هو من يدعي الأفضلية هنا أهي الغربان السود والمنطقة منطقة المواطنين السود؟ أم هي الغرانيق البيض التي ربما كانت – من هذه الناحية – بقية من بقايا البياض الذى رحل مع المستعمرين البرتغاليين عندما طردهم الوطنيون الأنقوليون. ودخل في الحلبة أيضاً خنزير ضخم رمادي اللون ببطنه الناصل، ورجليه القصيرتين اللتين تغوصان في الرمل فيبدو على البعد كأنما يزحف على بطنه، وهو يلتمس القاذورات والعذرات فيأكلها لكي يأكله الناس الكافرون بعد ذلك. وشابان رياضيان بجسمين من الأبنوس المحترق المجدول العضلات وهما يركضان على الشاطئ يبغيان قوة عندهما ما يكفي منها. ورأيت رجلاً يخلص شبكة رأيتها مهجورة على الشاطئ أمس مغطاة بخرق بالية ، وقد أمضى وقتاً في ذلك العمل وانصرفت ببصري عنه ولما ينته منه.

وإذا انتقل البصر إلى الشارع المجاور للشاطئ وإن كانت تفصل بينهما مساحة من الرمال البيض فإنه يرى سيارات عديدة قد بكرت إلى الشارع الأزفلتي الذي لحقت بزفته الرداءة أو لنقل: أنه اخلقّ كما اخلقّت شباك ذلك الصياد.

والجميل فى صباح (لواندا) هذا مياه البحر التى تداعب الشاطئ الرملي بحنان وهي تغسلها أوقل: إن شئت – إنها تبادلها صفاء

بصفاء. والجو الساجي الذي هو لا حر ولا قر فهو كطبيعة القوم في هذه البلاد التي يحس الغريب مثلنا أنهم ممن يركن إليهم ولا ينفر القلب منهم. بل إنه يشعر أنهم ذوو طبيعة ودية وعدم عداء للأبيض الغريب إذا كان جاء إليهم زائراً بعد أن رحل الأبيض المستعمر عنهم. وهذا القول هو في الشاطئ الواقع جهة الغرب من جزيرة لواندا الذي تطل عليه نافذتي في الفندق وأما الآخر فإنه واقع جهة الشرق من الجزيرة وعليه مباشرة تقع حديقة فندقنا لأن الجزيرة تضيق في موضع الفندق ويقع على ما يسمونه (خليج لواندا) والذي ليس فيه شئ من الارتياح هو معاملة الموظفين في مطعم الفندق عندما نزلنا لنتناول طعام الافطار فوجدناه مغلقاً وكلمنا أحدهم بجفاء قائلاً: انتظروا وكانت الساعة قد جاوزت السابعة والنصف. ثم بعد دقيقتين، أوثلاث فتح الباب.

ودخل قبلنا إلى المطعم أناس ربما كان ينتظرهم شغل عاجل، فكان العمال ينتهرونهم وكأنما هم يمنون عليهم. وقد يكون سبب عملهم معروفاً وان لم يكن لائقاً فرواتبهم ضئيلة وسواء أساؤا أم أحسنوا سوف يقبضونها لا تنقص ولا تزيد. بل كانوا يريدون من دون قصد أن ينتقموا من حكومتهم التي ظلمتهم في أشخاص هؤلاء الغرباء الذين يملكون ما لا يملكون من الدرهم والد ينار الذي يصرف في كل الديار.

وقصدنا مائدة خالية فجلست عليها أنا ورفيقي الدكوري فجاء الموظف وأمرنا بغلظة أن نقوم منها وأن نجلس على مائدة أخرى فيها أربعة كراس وعليها شخصان. مع كثرة الموائد الخالية. ولم نر تفسيراً لذلك إلا لكونهم لا يريدون أن ينظفوا غطاء الموائد كلها.

أما طعام الإفطار فإنه شراب لا أعرفه تركناه لأن البلاد موبؤة بالكوليرا وأكلنا قطعة خبز واحدة لا يزيدون عليها إذا استزدتهم ومعها

زبدة مغلفة وقطعة صغيرة من الجبن وكأس من القهوة أو الشاي وهذا هو كل إفطارهم الذي نوهوا بأنه داخل في أجرة الغرفة التي هي خمسون دولارًا لليوم تعادل بالصرف الحر راتب ستة أو سبعة من هؤلاء الموظفين في الشهر. أو لنقل: إنها تعادل راتب واحد منهم لمدة ستة أشهر أو سبعة. سيان.

جولة في مدينة لواندا:

حضر الأخ (أحمد جان ممفبا) ومعه سائق سيارة استأجرها بعد موافقتنا بستين ألف كوانزا ويساوي ذلك بالصرف الذي صرفنا به الدولار ٢٢ دولارًا .

وكان بعض الذين سألناهم عن أجرة السيارة أمس ذكروا أن مثلنا لا يجدها إلا بمائة دولار في اليوم ولكن الأخ استأجرها من صاحبها وهو يعرفه ساكنًا في الحي معه بهذا السعر الرخيص فأعطيناه خمسين دولارًا أجرة ليومين.

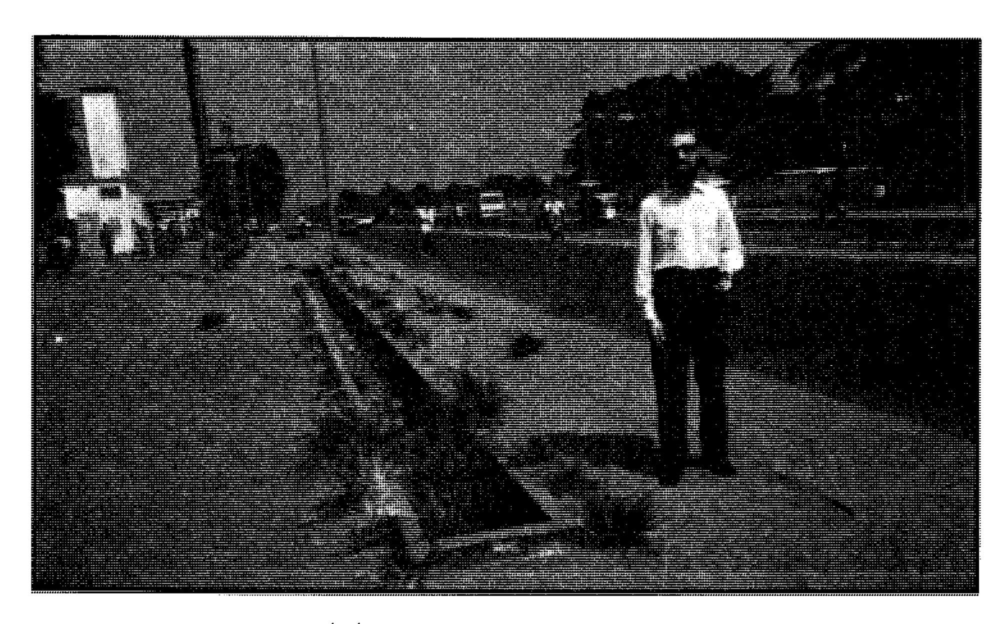
وعلى ذكر الدولارات أقول: إنني أعطيت الأخ أحمد مائة دولار قطعة واحدة صدقة أرسلتها معي ابنتي الدكتورة فاطمة وهي أستاذة فى كلية البنات في الرياض فلما أعطيته إياها لم يكن يصدق، وأسرع يضعها فى حذائه تحت جوربه يخشى عليها أن تنكشف أو أن تنتهب لنفاستها، ولأن الحكومة تحرم على المواطنين تملك العملة الصعبة بأي وسيلة كانت ومع ذلك يكون لا مفر لبعضهم من البحث عنها بأي ثمن لشراء بعض الأشياء التي لا تباع بالعملة المحلية.

وقلت له: هذه من الله سبحانه وتعالى يسرها لك على أيدينا وسوف أعطيك أيضًا بعد ذلك مائة دولار تصلح بها سيارتك الخربة التى

تسترزق منها فبلغ به التأثر مبلغه وقال: أنا منذ أن رأيتكم علمت أن الله تعالى كان معي. فقلت له: هذا صحيح، والدليل على ذلك أننا لم نسمع باسمك من قبل وأنت لم تعرف بوجودنا ويسر الله تعالى التعارف الأخوي الإسلامي بيننا.

جزيرة لواندا:

ابتدأت الجولة فى أنحاء الجزيرة التي يقع فيها فندقنا ويسمونها (ايليا دي لواندا) بمعنى جزيرة لواندا بالبرتغالية فأيليا: جزيرة، ودي: أداة إضافة تقع بين المضاف والمضاف إليه مثل كلمة أوف الانكليزية. وذلك برفقة الأخ أحمد جان والسائق واسمه (بدرو ماكومو) وهو من سكان لواندا إلا أنه ينتمي إلى قبيلة باكونقو التي تقطن الشمال وتوجد في الكنقو الذي عاصمته برازفيل. وفي زايير أيضاً. وسيارته صغيرة يابانية مستعملة ولكن لا بأس بحالتها.

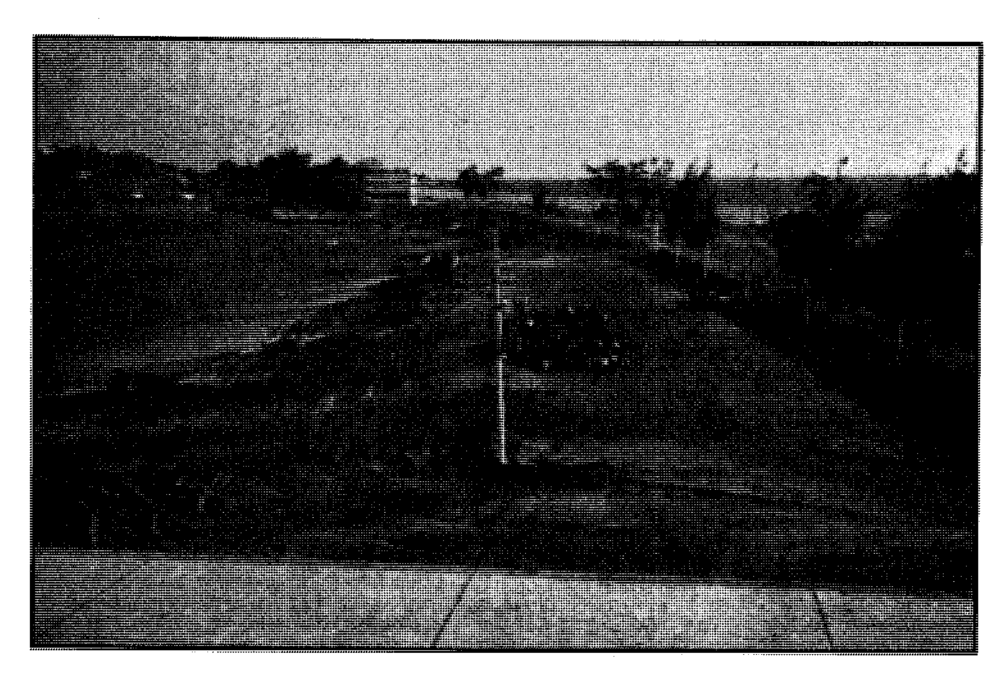


في الشارع الرئيسي في جزيرة لواندا

فانطلقنا من فندقنا صوب الشمال مع الشارع الرئيسي فيها ووقعنا فجأة بمساكن شعبية فيها نسوة لفت الأخ أحمد جان أنظارنا الى بعضهن وقال: إنهن يرتدين لباس المسلمات مع أنهن لم يسلمن، وذلك لجماله وستره. وهي قليلات العدد، ولباسهن فوطة واسعة فوقها كالرداء السوداني أو التونسي يلف حول العنق وأحياناً فوق الرأس أيضاً ويستر النصف الأعلى من الجسم وقد يصل أسفله إلى الركبة وليس هذا باللباس الشائع للنساء فى هذه البلاد كما أسلفت.

والبيوت الشعبية هذه بعضها من الطين وبعضها من لبن الإسمنت سقوفها إما صفيح أو من القش وهي تقابل القسم الفاخر من مدينة لواندا يفصل بينهما من جهة الشرق لها خليج لواندا.

وحاولت إخراج المصورة لتصوير بعضها فاضطرب الأخ أحمد جان وكذلك السائق وقالا: التصوير هنا ممنوع منعاً باتاً لأن رأس الجزيرة هذه فيه مركز للشرطة والجيش وكذلك هذا الشاطئ هو حد البلاد من جهة الغرب والحدود لا تصور مع أنه مجرد شاطئ رملي ليس فيه أية مواقع. وذكروا أن سكان هذه البيوت الشعبية هم من الطارئين على (لواندا)وليسوا من سكانها الأصلاء ولذلك يتعيشون على صيد السمك.



رأس جزيرة لواندا

ورأينا فى وسط الجزيرة حديقة ليست ناضرة يسمونها غابة الجزيرة من أشجارها النارجيل والجازورينا وفي حواشيها وحواشي الشوارع الذي حولها نبات من الصبار وهو البرشومي عندنا والتين الشوكي في مصر، ولكن لا أدري أيثمر هنا أم لمجرد الزينة. وفي مقابلها على الشاطئ مربعات كبيرة من الإسمنت المسلح يضعونها على الشاطئ ويدفنون ما يلي الجزيرة من الأرض بغية توسيع رقعتها أو على الأقل حمايتها من التآكل. وقبل الوصول إلى نهاية الجزيرة فى طرفها الشمالي ارتجف الرجلان وقالا وهما يهمسان: إن ههنا مركزًا للعسكر فيجب أن نعود، ولا نخرج المصورة.

فقلت لهما: إن التصوير ضروري لي ولكن في غير هذا الموقع .

فأجاب أحمد جان: يمكنك أن تصور وأنت جالس في داخل السيارة وأما خارجها فإنه ممنوع وصورت شارع الجزيرة وبعض جوانبها من داخل السيارة .

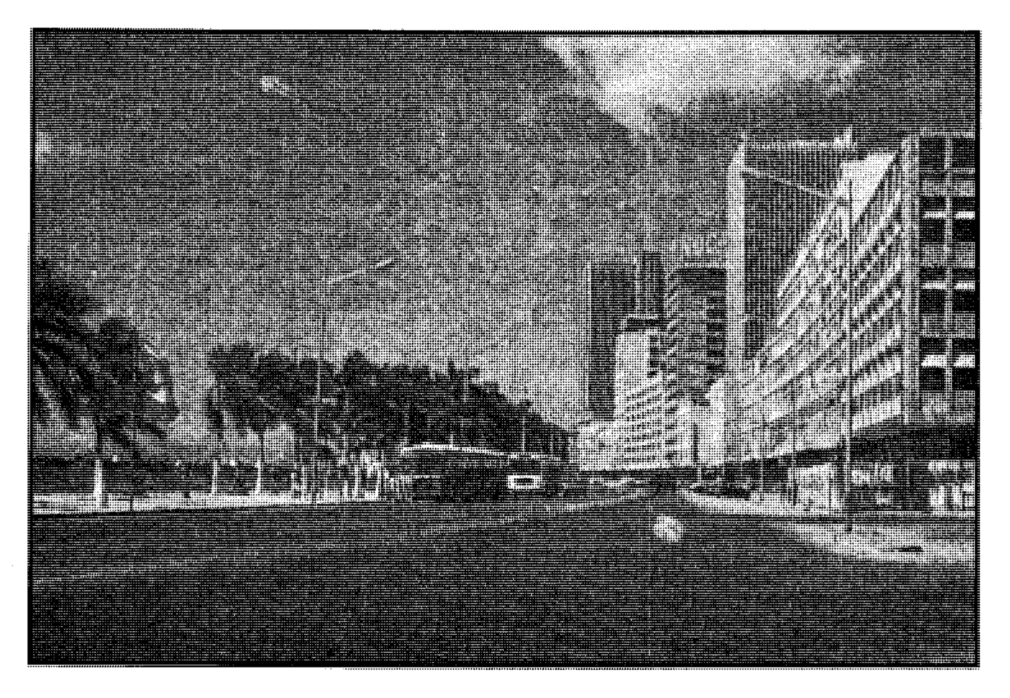
مركز الصناعة التقليدية:

مررنا بمكان في الجزيرة، فيه حانوت من الحوانيت الصغيرة التي ذكرتني بحوانيت الحدادين في بريدة قبل خمسين عاماً . كتب عليها أنها للمصنوعات الوطنية فنزل الرجلان قبلنا للاستئذان من جندي كان قريباً منه فأذن لنا.

ورأينا من أهم ما عندهم مقادير قليلة من العاج والخشب، وهم يصنعون ذلك وقد عرضوا قلائد من العاج رأيت ثمنها غالياً فقال الشيخ الدكوري: إنها عندنا فى داكار أرخص من هنا. وأما الخشب فإن الذي رأيتهم يصنعونه منه تماثيل مستوحاة من بيئتهم المحلية لا تناسب أن تجعل في بيوتنا.

خليج لواندا:

انتهت جزيرة لواندا تحت جسر عريض دخلنا منه إلى خليج لواندا وهو خور غير واسع على هيئة هلال وسطه إلى الجنوب وطرفاه إلى الشمال. ولكنهما ممتدان أكثر مما يمتد طرفا الهلال وتقع مدينة (لواندا) الفاخرة الاستعمارية - إن صح أن للمدن مذاهب - واسميناها بالاستعمارية لأنها بنيت في عهد الاستعمار البرتغالي، فى تنسيق جميل حول خليج لواندا.



شارع الشاطئ في لواندا

وأقرب ما فيها إلى البحر شارع الشاطئ المسمى بالكورنيش ذو أرصفة واسعة جيدة تقع عليه الأبنية المتعددة الطوابق مما يلي المدينة . أما من الجهة التي تلي البحر فليس عليه أي شئ إلا أشجار من نخيل الزينة التي لا تثمر.

شارع مارجنال:

طلبت من السائق أن يقف فى شارع مارجنال فى جنوب الخليج الذي هو رأسه لألتقط صورة لشارع البحر وللمدينة الفاخرة وهو تلتوي عليه التواء القلادة على عنق الحسناء التي لا ترى منها إلا جهة وجهها. فأرجف القوم وقال الأخ (أحمد جان) وهو يعرف الفرنسية ويترجم لي رفيقي الدكوري كلامه بها: إن التصوير ممنوع وينبغي أن لا يروا

المصورة فهم سوف يصادرونها ويعاقبون حاملها وكلهم جواسيس علينا. أما إذا كان اجنبيًا مثلك فإنهم سيصادرون الأشرطة. ويطلبون منا أولاً إبراز رخصة التصوير.



صورة من داخل السيارة لشارع مارجنال الجميل في لواندا

قال: وحتى إذا لم يصادروا الأشرطة الآن فإنهم يصادرونها عندما تريد الخروج من أنقولا، ولم يدر أن القوم جاملونا ولم يفتشوا أمتعتنا عند القدوم لكون جوازاتنا سياسية وأننا ننتظر منهم أن يعاملونا بمثل ذلك عند المغادرة. فأسرعت التقط صورة للشارع وأنا داخل السيارة جالس فيها.

وقال لي القوم بعد ذلك من الساكنين فى هذه البلاد من غير أهلها من إخواننا الماليين - أهل مالي - وبعض العاملين فى السفارات العربية: إن الحكومة حكومة يسارية شيوعية وتخشى من أن يدبر المستعمرون

السابقون من البرتغاليين خطة لاسقاطها واستبدالها بحكومة أخرى موالية لهم. إضافة إلى كونها الآن تشهد ثورة عارمة تقوم بها منظمة يونيتا التى تسيطر على أجزاء من داخل البلاد. وقد يصل أنصارها الى أطراف لواندا بل انهم فجروا قبل شهر قنبلة فى داخل (لواندا).

وحكومة أنقولا أيضاً تحارب قواتها حكومة جنوب إفريقية العنصرية التي تحتل اقليم ناميبيا المعروف بجنوب غرب إفريقية. وفيها الآن ستون ألف جندي كوبي تخاف عليهم من معارضيها لذلك تحرم التصوير وتشدد على الأجانب، وتعاقب من تزعم أنه يعاونهم على الاطلاع على ما لا تريدهم أن يطلعوا عليه.

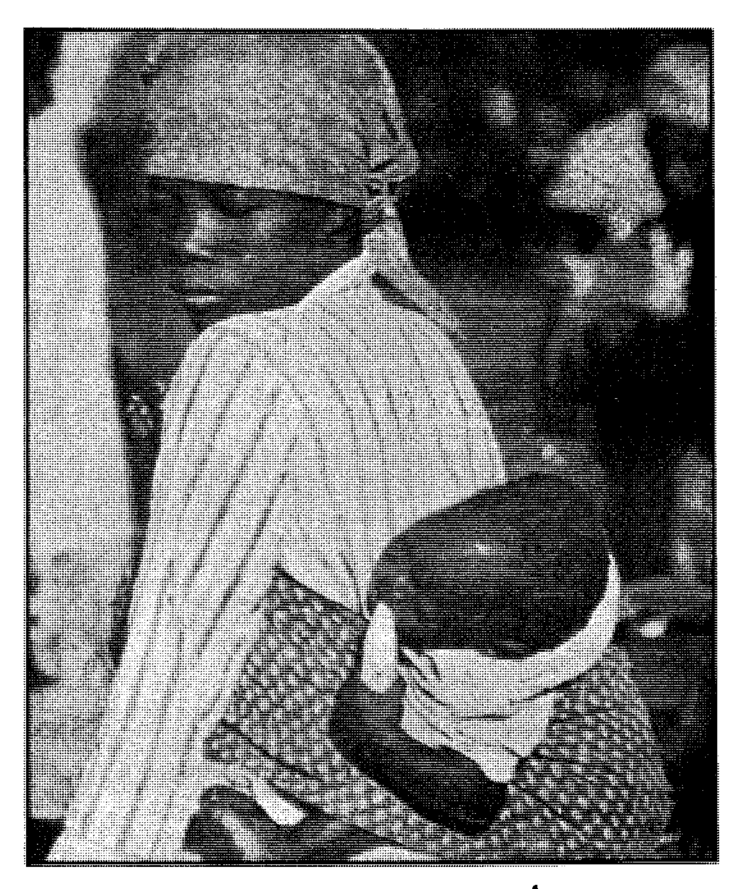
ومع أننا لسنا من أولئك الذين تخشاهم حكومة انقولا فإننا نخاف أن نقع فى أيدي من لا يعرف هذا ولا يفرق بين أجنبي وأجنبي بخاصة إذا كان يجمع بينهما البياض.

وفي هذا الشارع شارع مارجنال محطة للحافلات وهي كثيرة وكذلك موقف للسيارات غير رسمي، وليست سيارات أجرة معتادة ولكنها السيارة الخاصة من سيارات نقل صغيرة وسيارات ركوب معتادة قد تحمل الناس بأجر يتفق عليه. ولكنها لا تكون موجودة في كل وقت.

شعب من البانتو:

أوقفنا السيارة وخرجت أرقب هذا الشعب الذي كان موجوداً بكثرة فى هذا الشارع وما حوله وقد رأيت منذ أمس أعداداً كبيرة فى أحياء مختلفة عند زيارة مسجد الفتح فإذا به يشبه شعب الأقسام الغربية من زاييير المجاورة التى كانت تسمى الكنقو البلجيكي. وفيه شبه من بعض

أبناء الكنقو التى كانت تسمى قديماً الكنقو الفرنسي ثم صارت تسمى بعد الاستقلال، كنقو برازافيل. إضافة إلى عاصمتها مدينة برازافيل وتسمى الآن (الكنقو) مجردة فهم قصار الأجسام، أو يميلون إلى القصر، وأجسامهم لطيفة تميل إلى النحول، وقلما يبصر المرء فيهم سميناً أو حتى غليظ الجسم، وربما كان أقرب الافارقة بهم شبهاً هم أهل الجابون من ناحية المظهر الخارجي، وعدم الجمال فيما يراه السائح الأجنبي القادم من البلدان العربية مثلي، وإن كان الجمال أو عدم الجمال هو أمر نسبي، ورب جميل عند قوم قبيح عند آخرين.



إمرأة من البانتو تحمل طفلها على ظهرها

وأمر مميز للبانتـو أو من يسمون الزنوج عند الأوروبيين وهو الرائحة النفـاذة المميزة التي ينفرمنهـا أمثـالنا الذين لم يعتادوا عليهـا فـهي هنا ظاهرة فيـه ظهورها في الأفـارقة الذين يعيشون تحت خط الاستواء أو أكثر من ذلك. وقد زاد مظهرهم سوءاً مما يعانونه من فقر وعوز وربما ما يعانيه بعضهم من جوع ونقص في الثياب تحت حكم هذه الحكومة الشيوعية المثقلة بأعباء الحرب الداخلية والخارجية. وإن كانت الحرب الخارجية ما بينها وبين حكومة جنوب إفريقية العنصرية قد وضعت أوزارها وقد تنتهي كليًا فإن المظنون أن تستمرالحرب الأهلية ما بين الحكومة ومنظمة (يونيتا) اليمينية التى تمقت الشيوعية والشيوعيين وقامت لهذا الغرض كما تقول. فمعظم ثياب الناس خلقة وأكثرها غير نظيف، والجو رطب، وإن كان الهواء ربيعياً خاليًا من الحرارة.

الوقود أرخص من الماء:

وفى هذه البلاد الأنقولية زيت كثير يكفي حاجة البلاد، ويصدرون منه مقادير غير كبيرة للخارج، ولذلك عجبت عندما أخبرني السائق وهو يضع (بنزينـاً) في سيارته بأن اللتر الواحد بستة وعشرين كوانزا، فهذا المبلغ إذا صرف الدولار بالسعر الرسمي فهو كثير لأنه يقرب من قيمة الدولار الواحد التي تقل عن الثلاثين كوانزا بقليل، ولكنه بالعملة المحلية التى يساوي الدولار الواحد منها فى السوق الحرة ثلاثة آلاف أو يقرب من ذلك. ويمكن لصاحب السيارة من أهل البلاد أن يشتري (البنزين) لسيارته بهذا السعر الرخيص ولكنه لا يستطيع شراء الماء المعدني اذا أراد إلا بالعملة الصعبة وبثمن يبلغ للتر فيه أكثر من ثمن لتر البنزين عشر مرات.

كناسات البلدية:

في كثير من البلدان الشيوعية كالصين الشعبية ورومانيا أو اليسارية مثل بورما لم أر من يكنس الشوارع إلا النساء وهن يفعلن ذلك بمكانس من القش ذات أيد طويلة ولم أر أدوات الكنس العصرية ومنها العربات التي ترشف الغبار آليًا من الشوارع في البلدان الشيوعية إلا في بودابست عاصمة المجر، وربما كانت توجد في غيرها ولكنني لم أشاهدها.

وهناك الكناسات الشهيرات فى الهند وهي بلد غير شيوعية، غير ان كناساتها ينبغي لكي تصبح الشوارع نظيفة أن يكنسن أنفسهن منها لأن مظهرهن مظهر غير نظيف.

وحتى عملهن كما شاهدته ينحصر فى كنس أوساط الشوارع بمكانس من القش وترك الكناسة وغالبًا ما تكون من التراب الدقيق على جانبي الشارع فتأتي السيارات وتطيرها وتأتي الريح وتبعثرها فتعود إلى الشارع.

أما فى هذه العاصمة الشيوعية الإفريقية فإن كناسات البلدية وقد رأيتهن مجتمعات في مكان على رصيف الشارع مظهرهن جيد من ناحية اللباس ومظهر الشارع من حيث الكنس والتنظيف لا بأس به، وإنما فيه عيب بل عيوب لا قبل لهن بكنسها مثل الكسور التى فى الأرصفة والحفر في أطراف الشوارع.

فى قلب المدينة:

ويسمونه السنترو بمعنى وسط المدينة وهو في الحقيقة الجزء الفاخر

منها. ويتألف من أبنية عالية ذا ت طوابق عالية يصل بعضها ٢٤ طابقاً مثل مبنى فندق برزدنت وبعضها على هيئة برج مستدير بهندسة فاخرة ومن ذلك مبني يقع فيه المصرف الوطني، يقع على شارع البحر. وآخر مهم جداً وهو مبنى وزارة الداخلية، وأهمية وزارة الداخلية هنا تنبع من حالة الأمن الداخلي البالغة السوء. وقد حرص الأخ أحمد جان على أن ينبهنا على أن التصوير هنا ممنوع اطلاقاً. وإلى الشمال من هذا الحي الفاخر أو الذي كان فاخراً مبنى مهم أيضاً وهو ادارة ميناء لواندا على خليج لواندا.

حي دريتا دريتا:

لم نقض طويل وقت في ذلك الحي الذي كان ممتازاً وذهب امتيازه حسا ومعنى ومنه ذهبنا إلى حي يسمى (دريتا دريتا) ولا أدري معنى التسمية يقع فيه مكتب الأمم المتحدة، ووجود الأمم المتحدة هنا مهم جداً في هذا الوقت لأنها وسيط رسمي في انهاء الحرب في الجنوب بين حكومة جنوب إفريقية العنصرية وبين أنقولا وهي أيضاً ستشرف على انسحاب القوات الكوبية من أنقولا.



شارع رئيسي في ضواحي لواندا

أردت أن أخرج المصورة واختلس منها صورة ولكن الأخ أحمد جان سارع يقول: احترس فهنا وزارة الزراعة وهي في شارع مغروس بنخيل الزيت وأشجار من أشجار الظل قديمة.

وفي هذا الحي مستديرة، وهي الشبيهة بالميدان تدور حولها السيارات القادمةمن اتجاهات متعارضة ليس في هذه المستديرة غير التراب فليس فيها خضرة أو تجميل. وجميع البيوت في هذا الحي مبنية بالإسمنت ولكن بعضها مهجور الآن لأنه يحتاج إلى إصلاح وأهله الأصلاء من البرتغاليين غائبون وصادرته الدولة ولا تقدر على إصلاحه لانشغالها بالحروب الداخلية والخارجية مع اعتناقها المذهب الشيوعي الذي يحصر كل شئ في الدولة كما قدمت.

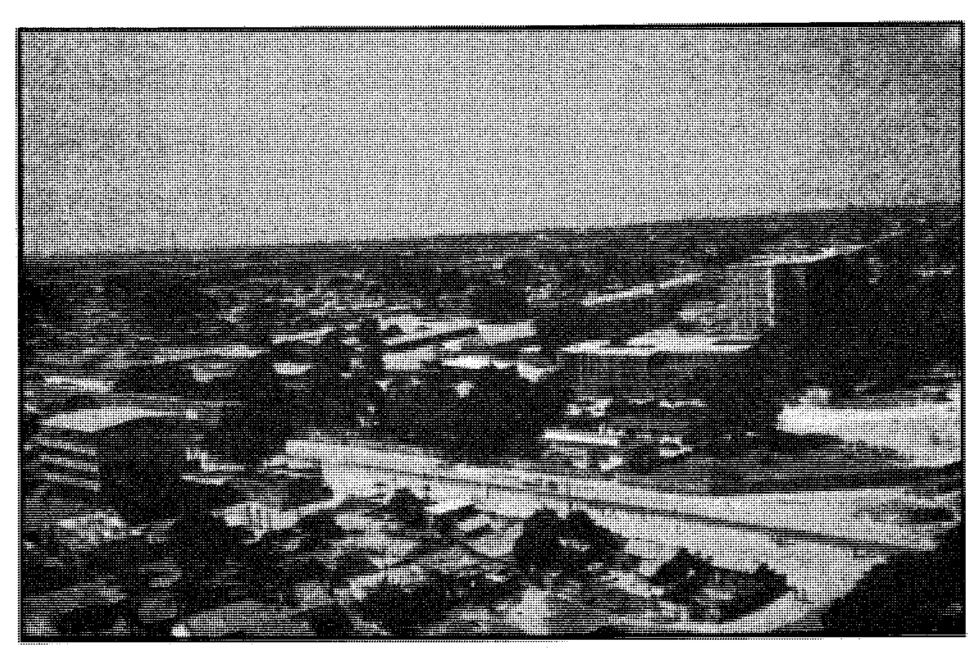
حي ماكولوس:-

ويسمونه بايرو ماكولوس، وبايرو بمعنى حي بالبرتغالية.

مررنا قبل الوصول إليه بمبنى المحكمة الشعبية وقد نوه المرافقون بأنها لا تحكم بالقانون ولا تتقيد به وإنما تصدر أحكامها نيابة عن الشعب بناء على ما يراه حكامها.

ثم صعدنا تلة غير عالية عليها هذا الحي (ماكولوس) واهم شوارعه شارع يسمى (شارع البعثات) وبالبرتغالية (رواد مسيون) وذلك لأنه عليه مقار أكثر البعثات السياسية والتجارية.

ومن ذلك كبار السياسيين والعسكريين الكوبيين،ولذلك تشتد الحراسة عليه ولا تكاد تخلو أبواب المباني فيه من الحراس.



صورة لجانب من لواندا التقطها المؤلف من أعلى

عند الخطوط الأنقولية:

كانت تذاكرنا - في الأصل - من ليبرافيل التي قدمنا منها أمس إلى لواندا على أن نبقى فيها حتى يوم الخميس حيث نعود من الطريق نفسه أى إلى ليبرافيل وذلك على ظن أننا نستطيع أن نزور بعض الأقاليم أو حتى القرى التي فيها مسلمون خارج العاصمة غير أنه تبين لنا أن ذلك صعب من جهة الحكومة، ومن جهة الأمن .

وقالوا لنا إخواننا هنا: إن الخروج إلى ضواحي المدينة البعيدة عن أطرافها التى تفضى لخارج المدينة ليس سهلاً لأمثالكم لأن الحكومة تخشى من الأجانب، ولأن ثوار يونيتا التى تقاتل الحكومة موجودون بصفة غير منظورة حتى فى الأماكن القريبة وكذلك اذا رأيت الشرطة سيارة تريد الخروج عن منطقة أنقولا وهي لا تعرف سائقها معرفة حقيقية أو لا تثق به ثقة تامة، فإنها تبقيه عندها وتعطي السيارة لسائق من عندها موثوق به يوصل ركابها أو حمولتها إلى الجهة التي كانت تقصدها ثم يعود بها بعد ذلك إلى (لواندا) فيسلمونها لسائقها.

لذلك رأينا أنه لا بد من اختصار الرحلة ولم نجد رحلة تذهب إلى (ليبرافيل) إلا التى حجزنا عليها وهي اسبوعية، فرأينا أن نسافر إلى برازافيل عاصمة الكنقو يوم الثلاثاء القادم مع هذه الخطوط الأنقولية للطيران. عند الدخول من باب المكتب كان جندي مسلح غليظ جالساً عنده يأخذ من كل داخل من المواطنين بطاقته الشخصية ويبقيها عنده وإذا خرج من المكتب أعادها إليه.حتى النساء لا تستطيع الواحدة منهن أن تدخل الى مكتب الخطوط هذا اذا لم يكن معها بطاقة وحتى نساء بيضاوات من الأوربيات ربما كن من العاملات في البلاد أخذ منهن بطاقاتهن.

أما نـحن فقـد جاملنا واكـتفى بأخـذ بطاقة صـاحبنا المسلـم أحمـد جان والظاهر أنه قال للجندي إنهم لن يكلمـوا الموظفين لأننا بالفعل جلسنا في داخل المكتب ننتظر الأخ أحمد لكي يتكلم معهم.

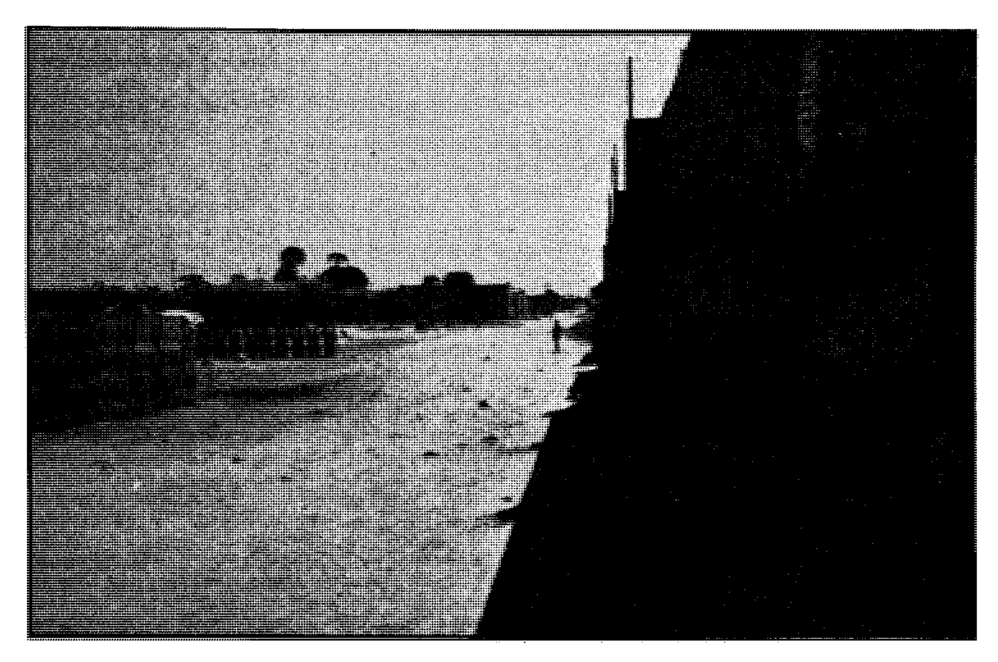
وقد ظللنا فيه فتـرة لا لكثرة المراجعين وإنما لبطأ الموظفين والموظفات فى انجاز الأعمال. ثم جاء الخبـر اليقين من الأخ أحمد جان يقول بأنهم لا يقبلون تغيير التذكـرة التي معنا، ولا بد لنا من شراء تذاكر جديدة الى برازافيل كل واحـدة بمائة وثمـانية عـشـر دولارًا أمـريكيًا تدفع بالعـملة الصـعـبـة. وأن هذا المكـتب ليس مـخـولاً بقطع التـذاكـر المـطلوبة وإنما يقطعـها مكتب آخر ذكـروه. إلا أنهم قالوا: إنه مـغلق هذا اليوم الـسبت. ولا يفـتح إلا في يوم الاثنين. فـخـشـينا ألا نجـد الحـجـز لأننا سنسـافـر الثـلاثاء فـقـالت الموظفـة: إن الحــجـز لا خـوف عليـه، لأن الذي يدفع بالدولار تكون له الأولـوية على غـيره فـي الركوب. ولـو كانت مـقـاعـد الطائرة محـجوزة قبله. وهذه مزية للدولار الذي لا ينفك الشيوعيون عن ذم أهله، ورميهم بعظائم الأمور.

حي العائلة المقدسة:

تركنا حي البعـثات والخطوط الأنقوليـة الجوية التي تقع فيه قـاصدين حيًا اسـمه : ساكـرادا فاميـلا.. ومعناه العائـلة المقدسة وهذا اسم مـأخوذ من الديانة المسيحية.

ورأينا في أحد شوارعه سيـارة نقل صغيرة (وانيت) قذرة وهي أيضـًا باليـة ومحطمـة وقـد كتـبت عليـها كلمـة تاكسـي، ومع غرابة مظهـرها وحقارته بالنسـبة إلى ما نركبه من السيارات فى بلادنا فـإنها لو حصلت لنا عندمـا كنا مـتـعطلين عند باب المطار لا نجـد سـيـارة أجـرة تنقلنا إلى

الفندق لفضلنا ركـوبها فى حالتنا تلك على الانتظار واقفين علـى حقائبنا ذلك الموقف. ولاحظنـا كثـرة الجـنود من الجـيش والشـرطة فى مـلابس معتـادة أو جيدة فهـي أعلى مستوى بكثـير من ملابس العامـة من سائر الناس. والمنازل فى هذا الحي أغلـبهـا قديم ولكنه حـسن المظهـر فالقـديم بقـيت من حـسنه سـقـوف من الآجـر مسنـمة. وأكـثـر مـا في هذا الحي ظهوراً كنيسة كاثوليكية، ومبنى الاذاعة.



شارع في حي جديد من لواندا

وفي شارع واسع جداً من هذا الحي يقع مبنى الهاتف ثم ميدان معتنى به يتـوسطه نصب لذكرى الجنود الذين قـتلوا خلال حـرب الاستـقلال. ولم نستطع تصويره لأن التصويـر ممنوع ولا حتى داخل السيارة لكثرة الجنود الذين كـانوا يمرون مـاشين أو يقـفون ولـكثرة السـيـارات فى هذه المنطقة.

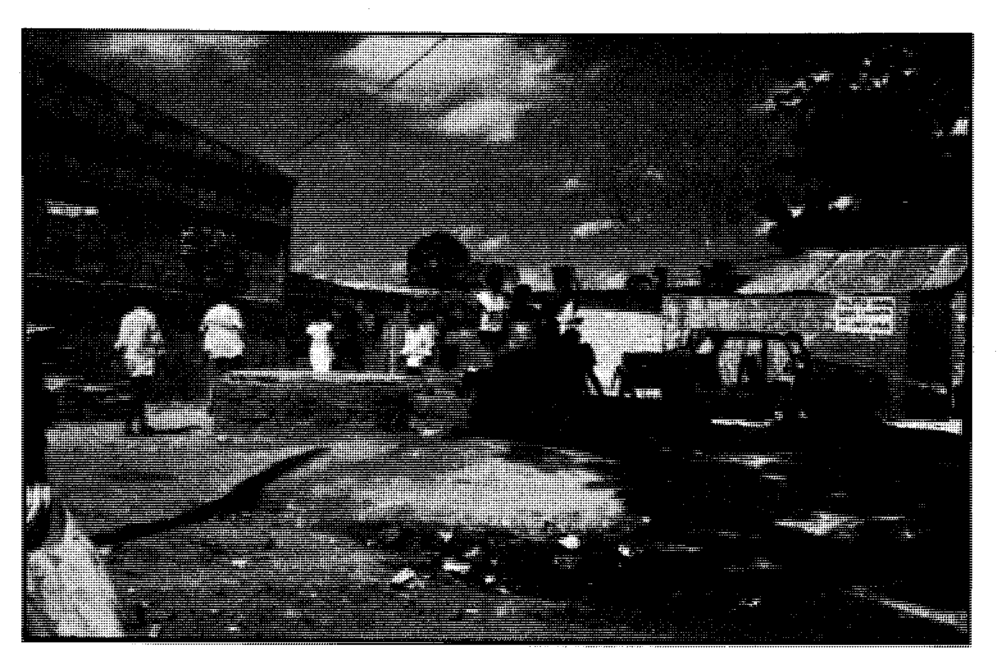
السيارات في لواندا:

وعـدد السيـارات فى شوارع (لواندا) كـثيـر، مع أن القيـاس أن تكون قليلة ، لأنهـا دولة شيوعـية تحدد اسـتيـراد الكماليـات ودخول المواطنين فيهـا تكون محدودة في العادة، ولأن البـلاد في حالة حرب أيضـاً.إلا أن كـثـرة السـيارات لهـا سـببـان أولهـمـا قديم، وهو كـون البـلاد فى عـهـد الاسـتـعمـار البـرتغـالي تحكم بحـكم رأسمـالي، يعـتـمـد على المبـادرات الفـردية والأهليــة إلى جـانب جــهـود الحـكومـة، وذلـك يجـعـل الذين يسـتطيعـون أن يحصلوا علـى قيـمة السـيارة كـثيـراً كمـا هو معـروف. والثـانـي: أن أنقولا دولـة (بترولـيـة) فـهي تسـتـخـرج منه ما يكفـيـها ومـا تصدر بعضه، لذلك لا تخشى من استيراد البترول إذا كثرت السيارات. وقد أباحت لأفراد الشـعب أن يشتروا سيـارات مستعمـلة إذا استطاعوا أن يجـدوا ثمنها بالعـملة الصعـبة ولا تسـاعدهم الحكومـة على ذلك، بل يجب أن يحــصلوا على العـمـلة الصـعـبــة بوسـائلهم الخـاصــة. وإنما تسـاعـدهم بأن تتـسلم المـكس وهو (الجـمـرك) المفـروض على السـيـارة بالعملة المحلية. أما استيراد السيارات الجديدة فإنه ممنوع منعاً باتـاً.

حي كالمبا:

ولعلك تلـمح من اسـمـه انه ليـس كـالحي الأول الذى سـمـاه بـاسـمـه المستـعمرون البـرتغاليون وسكنـوه بخلاف هذا الحي (كالمبـا) فإنك ربما تكون مـثلي قد رأيت فـــى اسـمه الملامح الإفـريقيـة (كالمبا) وصلنـا اليه عندما دخلنا شارعاً رئيـسياً فيــه ردئ الزفلتـــة، مغـبر الشوارع إلا أن بعضـهـا تسربـت إليه المياه المستعملــة فركدت فيـــه فصـــار ترابه أسود أوأخـضـر. والبـيـوت فيـه هي بيـوت الإفريقـيين الفـقراء مـبنيـة من لبن

الإسمنت ومسقفة بالصفيح الصديء على هيئة رثة فبعضها عليه نصف سقف وبعضها قد أصابه الخراب ولم يستطع أهله اصلاحه، ومع ذلك لا يزالون ساكنين فيه. وذلك رغم قربه من الأحياء التى كان يسكنها البرتغاليون وذوو اليسارمن الإفريقيين في عهد الاستعمار.



صنبور الماء في حي كالمبا الشعبي في لواندا

ومن أهم الظواهر في هذا الحي (صنبور ماء) فى ركن من الرصيف قد أسود ما تحته من كثرة تسرب الماء منه وعليه طائفة من الإفريقيات معهن بعض الأطفال الذين رأيت سر أحدهم منتفخاً ناتئاً كما يوجد في أكثر البلدان الإفريقية ويكون مرجعه في الأصل إلى عدم استعمال الوسائل الصحية عند قطع السر في المولود.

وأوعية نقل الماء من هذا الصنبور إلى البيوت هي الصفيح الذي كنا نسينا النقل به فى بلادنا منذ عهد بعيد. وتحمله الإفريقية فوق رأسها

فهو الذي تحمل عليه كل شئ حتى في داخل المدن ويرجع ذلك إما لقوة عظام الرأس بسبب كثرة تعرض الشخص للشمس أو لسبب في أصل تكوينه.

وقد رأيت الإفريقيات في سائر أنحاء إفريقية يحملن الأحمال الثقيلة على رؤسهن، وقل أن ترى منهن من تحمل شيئاً على ظهرها إلا ولدها. وفي بعض الأحيان تحمل على الاثنين فيكون ولدها خلف ظهرها، ويكون حملها فوق رأسها. والشعب في هذا الحي كما في سائر أنحاء المدينة هو الإفريقي الأصيل الجنس الذى يقطن تحت خط الاستواء وما كان عنه الى الجنوب قليلاً وهو الذي يسميه الأوروبيون بالزنوج والزنوج فى كتبنا العربية القديمة هم جنس من الإفريقيين الذين يقطنون على الساحل الشرقي للقارة الإفريقية فيسمونهم الزنوج أو الزنج ويسمون تلك البلاد بلاد الزنج.

والبحر الذى يقع إلى مشرقها هو بحر الزنج، وقد بقيت من هذه التسمية العربية تسمية لإحدى جزر ذلك البحر وهي قريبة من الساحل الإفريقي باسم (زنجبار) أي بر الزنج (أوزنج بر) بتقديم المضاف على المضاف إليه ومد الباء فى (بر) على عادة اللغة السواحلية التي هي السائدة في تلك المنطقة في مد كثير من الكلمات العربية التي تؤلف حوالي نصف تلك اللغة، بل إن اسم اللغة نفسها من العربية (فالسواحلية) منسوبة إلى السواحل : جمع ساحل والمراد بها سواحل إفريقية الشرقية الواقعة الآن فى شرقي كينيا وتنزانيا.

وليس كل أسود زنجياً في اصطلاح قومنا العرب القدماء فالسودانيون الذين كان أسلافنا يريدون بهم أهالي السودان الغربي الذي تقع

جمهورية مالي في قلبه وتقع السنغال والنيجر وشمال نيجيريا وغرب تشاد في أطرافه ليسوا زنوجاً عندهم، وكذلك الكانم والبرنو والأحباش ومن أشبهوهم من الأقوام السود البشرة.

ساحة مايو:

وعدنا إلى الأحياء المعتادة من لواندا وهي كما قلت إسمنتية متعددة الطوابق وإن كان غالبها في هذا الحي يتألف من طبقتين فهي جيدة المظهر والشوارع وأرصفتها واسعة، إلا أن الاهمال قد ران على بعض هذه الأرصفة فتهشمت وبعضها محي الخط الذي يفصل فيها بين الرصيف والشارع. إلا أنها لا تزال أرقى من كثير من الأحياء المعتادة في المدن الإفريقية التي استقلت قبل أنقولا بعشرين سنة. وهي تشبه الأحياء المتوسطة من الأحياء القديمة في القاهرة . أوبعض المدن الهندية التي تشبهها.

ومررنا بساحة مهمة يسمونها (براسا دي مايو) أي ساحة مايو براسا: ساحة أو ميدان بالبرتغالية ومايو هو شهر مايو الخامس من شهور السنة الرومية. وهي واسعة بل بالغة السعة، ومغروسة بأشجار من أشجار الظل ومفروشة أرضها بالحشائش التي طرزت حواشيها بالزهور . وتدور حولها السيارات التي تأتي من اتجاهات متعددة بعضها متعارضة. وقد ذكرت بلاد البرازيل عمرها الله تعالى بمناسبة ذكر كلمة (براسا) لأنها كثيرة هناك لكثرة الساحات في مدن البرازيل الزاهرة . وفي البرازيل تعلمت جملة صالحة من اللغة البرتغالية نفعتني في هذه البلاد الأنقولية وقبلها في (غينيا بيساو) وهما من المستعمرات البرتغالية السابقة.

فذكر لي الأخ (أحمد جان) أنه سبق أن ذهب للبرازيل للتجارة وذلك أن الخطوط الأنقولية تنقل المواطنين إلى مدينة (ريو دي جانيرو) بأجر زهيد بالنسبة إلى غيرهم وإن كان غالياً إذا حول إلى السعر الرسمي للدولار ولكنهم يأخذون منهم بالعملة المحلية . وذكر أن أجرة الذهاب والإياب إلى ريودي جانيرو تعادل (٤٩) دولاراً أمريكياً بالعملة المحلية التي لا يطالبون المواطنين بمصدرها بطبيعة الحال.

فقلت له: ومن يريد أن يشتري تذكرة واحدة للذهاب فقط..؟ فقال: لا تعطى الحكومة ذلك. لأنها تخشى أنه سيهاجر ويظل في البرازيل وهي تريد أن يبقى الناس هنا!.

قال: وقد سافرت زوجتي أكثر من مرة بهذه الطريقة تشتري بعض البضائع الرخيصة هناك وتبيعها بضعف قيمتها فى هذه البلاد ولكن شرط ألا تكون كثيرة تلفت أنظار أهل المكوس (الجمارك) عند العودة.

قال: ومع ذلك فإن عدد المسافرين إلى البرازيل قليل، لأن عدد الذين يستطيعون أن يوفروا مثل هذا المبلغ (٤٩) دولاراً هو قليل جداً.

المتحف الوطني للآثار البشرية:

واسمه (موزي ناسونال انتروبولوجيا) لهذا المعنى. دخلنا إليه من الباب الرسمي الذي يفضي إلى فناء خارجي فيه حديقة صغيرة قبل الوصول إلى المتحف فردنا جندي عند بابه إلى باب آخر كان مغلقاً فطرقناه حتى استجاب من فيه وفتحوا الباب فتراطن عليهم أخونا ومرافقنا أحمد جان فسألوه عن الساعة ليروا ما إذا كان الوقت المتبقي يتسع لزيارتنا وإلا اعتذروا إلينا وردوا الباب ثانية في وجوهنا.

فذكرنا أن الساعة هي الحادية عشرة إلا ربعاً، ولاحظت أن جميع الموظفين الذين فيه وهم ثلاثة رجال وامرأتان ليس في معاصمهم ساعات، ولذلك سألونا عن الوقت.

أول مايرى الداخل إلى المتحف صورة بارزة في مدخله لامرأة إفريقية ليس على صدرها ستر كتبوا عليها أنها من جنوب البلاد.

ومن المعلوم أن (أنقولا) واسعة ممتدة وتقطنها قبائل إفريقية متعددة غير أن الطابع العام لها هو طابع واحد وبخاصة في أعيننا نحن الذين لا نرى فيهم إلا أنهم الإفريقيون سود البشرة ذوو التقاسيم المميزة في الوجوه. ومن بعد ذلك رأينا شيئاً وقفت عنده كثيراً ولولا أن التصوير ممنوع داخل المتحف لصورته وهو أنموذج مجسم صغير لجسر إفريقي على مجرى مائى كأن يكون جدولاً كبيراً أو نهراً صغيراً. وهو جسر بدائي ولكنه عجيب ذلك بأنهم أقاموه من الحبال المفتولة التي جعلوها كالشبكة القوية إلا أنها ممتدة، وجعلوها ترتكز على دعامتين من الحجارة فوق ضفتي المجرى إلا أن الجسر يرتخى فى الوسط فيكاد وسطه يلامس الماء وهو جسر يعبر عليه الناس إذا اعترض طريقهم مجرى مائي لا يستطيعون الخوض فيه. وذكر أنه موجود فى بونت بارا فى شمال أنقولا.

ثم انتقلنا إلى رؤية نماذج للبيوت الإفريقية التقليدية في بلادهم ونصوا على أنها من الجنوب وإن كنت رأيت مثيلات لها داخل إفريقية تقريباً، وقد بنوها مستديرة من الطين وبداخله الأعواد، وجعلوا لها سقوفاً من القش مستديرة أيضاً لها رأس كرأس القمع وهو المحقن.

وبيت نوهوا بأنه لزعيم القبيلة مبنى من الخشب على طبقتين وله

حافة عريضة ناتئة لتقيه من المطر. واعتقد أنه من عصر حديث أو بني على أيدي صناع مهرة تعلموا فن البناء بالأخشاب تعلماً متقدماً . ذكروا أنه من شمال البلاد. ثم جملة من البيوت من شرق البلاد هي الأكواخ الإفريقية بعينها كما نعرفها مبنية من الأعواد المطلية بالطين ومسقفة بالقش على شكل سنام. وبعضها كما ذكرته إلا أنها على شكل مستدير، وفوقها السقوف القشية كأنها غطاء الطبق. وكذلك أيضاً عرضوا نماذج لبيوت عرفتها مشاهدة في عدة أنحاء من إفريقية قبل ذلك، وهي مجموعة من الأكواخ التى أقيمت من الطين المدعم في داخله بالأعواد وسقوفها قش إلا أنها يجمع بينها سور من الأعواد . وهي في حدود السبعة او الثمانية نوهوا بأنها تكون للرجل وزوجاته وأولاده . وينبغي أن نتذكر هنا أن الرجل الإفريقي وبخاصة اذا كان غنياً أو قوي الجسم، أو كبير القدر عند بني قومه يتزوج زوجات كثيرة لا يحد عددها إلا عدم قدرته على الزيادة أو عدم رغبته فيها.

ثم عرضوا مخلفات حقيقية مصنوعة من الأخشاب صناعة رثة ذكروا أنها من مخلفات قبيلة (تشيكو) منها كرسي خشن ضيق يجلس عليه شيخ القبيلة وصندوق معتاد من الخشب، إلا ان صناعته غير متقنة. وكذلك مائدة خشبية يتألف ظهرها من خشبة واحدة غير ناعمة وتمثال من الخشب أيضاً.

الشجرة المقدسة:

يكثر الشجر المقدس في البلاد التي تكثر فيها الأشجار لأن الغابات تخيفهم، وهم ينتفعون من الأشجار في حياتهم، وإن كان ذلك بطريقة بدائية وعلى أوجه محدودة .

وقد وضعوا تمثالاً لهذه الشجرة المقدسة عندهم من الطين، وليس فيها أغصان كتبوا عليها أنهم يقدسونها لأنهم يعتقدون أنها تحميهم من الأذى كذا قالوا.

الشعب العاري:

انتقلنا إلى قاعة خاصة بالتماثيل والنماذج الجسمية ومنها صور لنساء عاريات من الثياب إلا ما يستر العورة المغلظة، ومع ذلك ذكروا أنهن كذلك مع أنهن يعشن في منطقة غير حارة. وهذا من المظاهر الكثيرة على أن الشعب الإفريقي الأصيل في هذه البلاد لا يألف الثياب وأن لبسها ليست عادة أصيلة عنده.

وقد رأينا فى هذا المتحف نماذج وتماثيل من أنحاء البلاد المختلفة كلها تدل على ذلك. وفي ركن آخر عرضوا أحزمة وقلائد طوالاً كالمسابح الذي يستعملها المتصوفة قالوا: إنها خاصة للنساء وهي من الخرز.

أوعية الحليب والحبوب:

رأيناهم اعتنوا بوعاء من الفخار فرفعوه عن الأرض بحبلين مشدودين إلى خشبتين معروضتين فى الأرض ذكروا أنه لخزن الحليب وقد رفعوه لئلا تصل إليه الحشرات. ومثله جرة من الفخار كبيرة يحفظون فيها الحبوب كالأرز ونحوه الأيام الطويلة ولكنهم لم يرفعوها عن الأرض بل هي موضوعة فوقها، لأنه يمكن ابعاد الحشرات عن هذه الحبوب إذا وصلت إليها بخلاف الحليب.

وهي تشبه جرة كبيرة كان بنو قومنا من غير الأغنياء يخزنون فيها التمر ويسمونها المقعدة وقد ذكرتها في كتاب «معجم الألفاظ العامية».

ومن أطرف ما رأيته فى هذه القاعة نـقاير وهي الحجارة التي تدق بها الأشيـاء من أجل سحـقهـا وتكون منقورة فى حـصاة كـبيرة وهـي كانت مَستـعـملة عندنا في الماضي وانـقرضـت الآن، ولكن الطرافـة في هذه (النقاير) الإفريقية أنها واسعـة دون عمق بحيث يتناثر ما يدق فيها إذا لم يحافظ عليه وأن عمدها أي اليد التى تدق بهـا هي حصاة كذراع اليد كما كان عندنا قـديماً إلا أنها معكوفة حـتى صارت كأنهـا المطرقة فكان الدق يتم كالضرب بالمطـرقة وليس كالهرس كمـا كنا نعرفه. ومسحـقة أخرى ولكنها مـن نوع شائع فى الخارج ولم يكـن معروفـاً عند بني قـومنا، وهو سحق الأشيـاء على حصاة ملساء بحجر مـدور كروي الشكل، يضغط عليه بقوة اليـد فيسحق به. ثم عرضوا فى مكان آخـر أدوات متعددة من القش كـالفرش ونحـوه ونوهوا بأن ذلك من الجنوب وقـد مثلوا نسـاء تلك الجهة وكلهن عاريات الصدور.

المسحاة الانقولية:

هكذا نسميها وهي عند بعض الإخـوة العرب تسمى (المجرفة) ولكني رأيت منها أنواعاً غريبة في هذا المتحف ذكروا بأنها من شمال أنقولا.

وأنقولا بلاد كـبيرة واسـعة، ومن الطبـيعي أن تكون الفروق مـوجودة بين سكانها وبخـاصة أنهم كانوا من البدائيين الذين يعـيشون فى مناطق محلية معينة لا يكادون يبرحونها لأنها تفي بحاجاتهم المحدودة.

ولا ينتـقلون مثل بـني قومنا في طلـب الرعي والكلأ لأن بلادهم ليس فيهـا ما يكفيهم من الرعي لذلك يكونون مضـطرين للاحتكاك بالآخرين واكتسـاب العادات والتقاليد منهـم . وهذه المسحاة الأنقولية دقـيقة الرأس تتسع بعد ذلك ثم تضيق عندما تصل إلى النصاب وهو العود الذي يدخل

في المسحـاة والفأس ونحوهمـا يمسك به من يستـعملها. وليست الغرابة في هذه المسحاة وحدها وإنما أيضـًا في نصابها فـهو من الخشب كالمعتاد ولكن له دعـامة من الخشب على هيئة نصف دائرة بحـيث صار أشـبه بالقوس الذي يرمي به. وبجـانبها عرضـوا مهاريس - جمع مـهراس - وهو المدق الذي يدق به الأشـيـاء التي لا يراد سـحـقهـا مـثل الأرز الذي يراد تقشـيره بدقه فـيها دون تكسـيره وكنا نسـتعملهـا في هَرْس الجريش وهو البر الذي يقشـر ويستعمل جريشـًا مثلما تستعـمل الهريسة. وهذه المهارس الإفريقية مـثل التي كانت عندنا هي من الخشب، والأيدي التي تهرس بها هي من الخشب أيضـًا.

القتال على المراعي:

استرعى انتباهي مما عرضـوه حربـة في رأسها شعبتان والحربة هي الرمح أو رأسـه وكانت هى الوسـيلة الفعـالة مع السيف فى الحـرب عند القـدمـاء، إلا أن التى لهـا رأسـان لم تكن شـائعـة الاسـتـعـمـال وإن تكن مـوجـودة.ولا يسـتـعـمل مـثل هذه الحـربة ذات الرأسين إلا قـوم من المحاربين، وقد ذكـر لنا الدليل فى المتحـف أن القبائل الإفريقـية فى أنقولا كانت تقع بينهم حروب على المراعي كل قبيلة تمنع غيرها من أن ترعى في منطقتها.

كما عرضوا أقواسًا تطلق سهامًا لبعـضها رأسان ذكروا أنها تستعمل ضد الإنسان والحـيوان وبجانب القوس الجعبـة وهي الوعاء الذي تجمع فـيه السـهـام. فتـؤخذ منـه عندما يراد اطلاقـهـا، وهي من الجلد، وهناك بنادق قـديمة من التي تحشـى بالبارود كـتب عليهـا أنهـا صناعة وطنيـة

يراد بذلك أنها مصنوعة في البرتغال وهذه العبارة مثل سائر ما في المتحف كانت مكتوبة إبان الاستعمار البرتغالي ولم يغيروها.

والصيد:

كأنما لم يكن صيد البر ذا أهمية عندهم لذلك لم أر له أدوات أو نماذج تمثله وإنما الموجود هنا أدوات صيد النهر ونوهوا بأنه صيد النهر فهناك القوارب الصغيرة المنحوتة من خشبة واحدة يركب فيها رجل أو رجلان وتركب في الأنهار لصيد السمك أو نحوه. وهناك قفة كبيرة من القش المجدول لها غطاء مرتفع عنها قليلاً ذكروا أنهم كانوا يضعونها في النهر فى المساء فإذا جاؤا فى الصباح وجدوا فيها سمكًا يدخلها ولا يهتدي للخروج منها.

التفاهم مع البدائيين:

من ألطف ما رأيناه لوحة بل لوحات فيها واحدة هي أعجبها وهي مخصصة في بيان كيفية التفاهم مع البدائيين الذين كانوا يسكنون في الغابات، ولا يعرفون أية لغة يعرفها غيرهم. وهذه اللوحة تبين كيفية إخبار الرجل البدائي في الغابة بأنه يوجد أسد فيها يجب عليه أن يحترس منه. وقد وضعوا لذلك تسع هيئات من هيئات الكف فتصور في أصابع كفك أمامه صورة تحذير ثم صورة أشجار وآخرها صورة أسد ليعرف أن بقربه أسدًا فلا يبقى في الغابة أو يبتعد عنه.

وهذا يدل على أن هذه البلاد فيها أقوام على غاية من التأخر والبعد عن المدنية بحيث لا يمكن التفاهم معهم بأية لغة أخرى يعرفها سواهم.

وهو أيضًا دليل لما قلته من أن في بلادهم أماكن خصبة بحيث لا

تضطرهم إلى البحث عن غيرها وإلا لتعلموا لغات الناس، وتفاهموا معهم.

أواني الفخار:

نوه أهل المتحف بأن صناعة الفخار وهي طبخ الطين كانت معروفة بل شائعة في شرق البلاد حيث الحدود مع زامبيا، بل إنهم عرضوا منها أنواعًا متقدمة ومنها تماثيل وأوانٍ.

وظني أن الأمر صحيح لأن زامبيا ومنطقتها هي التي كان أسلافنا العرب الأقدمون يسمونها أرض النحاس ويقولون أنها وراء سفالة.

و (سفالة) التي يراد بها السفلى هي ساحل موزمبيق وما كان عنه جنوبًا كأنهم أخذوها من ظنهم أنها أسفل الأرض. مثلما كان الناس ولا يزالون يعملون فى صنع الكرة الأرضية المجسمة بأن يكون أعلاها في الشمال وأسفلها في الجنوب.

وأرض النحاس وسفالة وصلت إلى درجةمن التحضر أو من استعمال الأدوات الحضرية لم يصل إليها سكان أنقولا هؤلاء . ولا شك أن ذلك بسبب الاحتكاك بالعرب والسواحليين الذين كانوا يجاورونها فيما يسمى الآن بتنزانيا وما كان عنها جنوبًا. ومن مخالفات أهل زامبيا أشياء مصنوعة من الفخار . ولا أشك في أن هذه التي عرفوها هي من تلك أو متأثرة بها. وليست من مصنوعات أهل أنقولا الأصلاء. والله أعلم.

والفن الانقولي:

كان للفن الذي هو النحت والرسم اهتمام في هذا المتحف فمن ذلك

صورة لإله الفن عند قبيلة (باكا) هكذا كتبوا عليه وأظن أن تلك القبيلة البدائية ليست في وضع يجعلها تفكر في إله الفن لأن مشاغلها في الحياة اليومية تمنعها من التفكير في الفن وإلهه إن كان له إله خاص به في هذه البلاد بزعمهم. وقد صوروه على هيئة رجل له عنق طويل وأذنان عريضتان كالجناحين في أعلى رأسه وليستا في مكان الأذنين من الرأس كالمعتاد. ثم تمثال آخر للساحر نوهوا به وللسحر والسحرة فى البلاد الإفريقية سلطان كبير لا يزال لم يتغير أو كان تغييره عند قوم منهم دون قوم. حتى الأفارقة الذين كان لهم ماضٍ حضاري مرموق وكانوا من المسلمين القدماء فى الإسلام كأهل السودان الغربي الذين هم أهل مالي وما جاورها لا يزال للساحر عندهم اعتباره رغبة ورهبة.

وقد مثلوا هذا الساحر الإفريقي رجلاً بارز العينين قد طلى جسمه بالمساحيق وثبتت في جسمه مسامير عديدة. وتمثال آخر لامرأة وهي تضع مولودها قد استندت إلى امرأة أمامها، وجلست خلفها القابلة وهي تضع يدها أسفل المرأة حيث الولد.

وفي غرفة ذكروا أنها خاصة بالأعمال الفنية لاتحاد الفنانين الانقوليين تماثيل من ألطفها تمثال لرجل إفريقي كتبوا أنه يفكر في أمر هام، وهو لذلك في وضع خاص بالأفارقة عندما يكونون كذلك وقد جلس القرفصاء بمعنى أنه جلس على مقعدته ونصب رجليه ثم وضع مرفقيه على ركبتيه ووضع كفيه على هامته أي أعلى رأسه وهو منكس الرأس. وبجانبه تمثال مطلي باللون الأحمر وكلاهما من الخشب مثلوا فيه الرجل الأبيض عندما يفكر في أمر يشغل باله وقد وضع ذقنه على يده ونكس رأسه إلى الأرض.

الخصائص الجسدية:

ومما يذكر أن التماثيل في هذا المتحف وكل النماذج التي تمثل الإفريقيين قد لاحظوا فيها إظهار الخصائص الجسدية الإفريقية لمن هم تحت خط الاستواء أو حواليه منهم وأهمها بروز الشفتين، ولم يحاول فنانوهم الاقتصاد في طول الشفتين وبروز الفم، حتى التماثيل البدائية هي كذلك فهي صادقة على الخصائص المظهرية لهم أو قد بالغوا فيها، ولا أدري الحامل لهم على ذلك أهو الحرص على الصدق في التعبير عن الواقع أم هو لكونهم يرون أن ذلك من الجمال أو على الأقل لا يرون أنه يعارض الجمال المظهري كما يراه غيرهم.

وآخر التماثيل الفنية التي اطلعونا عليها تمثال لزعيم إحدى القبائل الإفريقية البدائية الوثنية في أنقولا وهي قبيلة لواندا التى تسكن على حدود زايير ذكروا أن له أكثر من مائة زوجة بجانبه تمثال لإحدى زوجاته الأثيرات لديه وهو يمثلها بارزة الشفتين كما ذكرته.

عودة إلى الجولة في لواندا:

عدنا إلى الجولة في العاصمة الأنقولية ويقع المتحف في المدينة القديمة وهي الجيدة وإن يكن خارجًا عن القلب الفاخر فيها. وفي أحد أرصفته العريضة رأيت أطفالاً سودًا كسائر أهل البلاد وهم يرقصون الرقص الإفريقي التقليدي الذي كان يرقصه أهل الغابات وهو الذي ينثني فيه الراقص بعنف، ويهز فخذيه أثناء الرقص.

وعلى ذكر السود أقول إن المرء لا يكاد يرى البيض في هذه المدينة إلا أعدادًا قليلة منهم في قلبها الفاخر، وهم من بقايا المستعمرين البرتغاليين الذين كانوا غادروا البلاد ثم عاد إليها منهم عدد قليل جدًا.

وحتى الخلاسيين الذين هم ذوو الألوان المختلطة ما بين السود والبيض ويكونون نتيجة للاتصال ما بين اللونين هم قليل هنا، وليس الأمر في هذه البلاد كما عليه الحال في بعض المدن الساحلية في البرازيل مثل ريودي جانيرو، و (سلفادور) و (رصيفي) فإنهم هناك كثير. وإنما الغلبة هنا للون الأسود حتى أكثر من البلدان السوداء الخالصة السواد مثل نيروبي ومن الأمثلة الإفريقية الأصيلة غير الرقص الإفريقي منظر امرأة على رصيف عريض جيد لا يكون في العادة في شوارع البلدان النامية وقد وضعت رأس امرأة أخرى فوق رجليها وهي تفتل شعرها غدائر أي جدائل صغيرة قصيرة تكون أقصر من الأصبع لأن شعرها قصير وتكون تلك الغدائر واقفة تماماً.

وهذه عادة منتشرة في إفريقية الاستوائية طالما ذكرت قول امرئ القيس إذا رأيت من يكون شعرها كذلك في قوله يصف شعرًا:

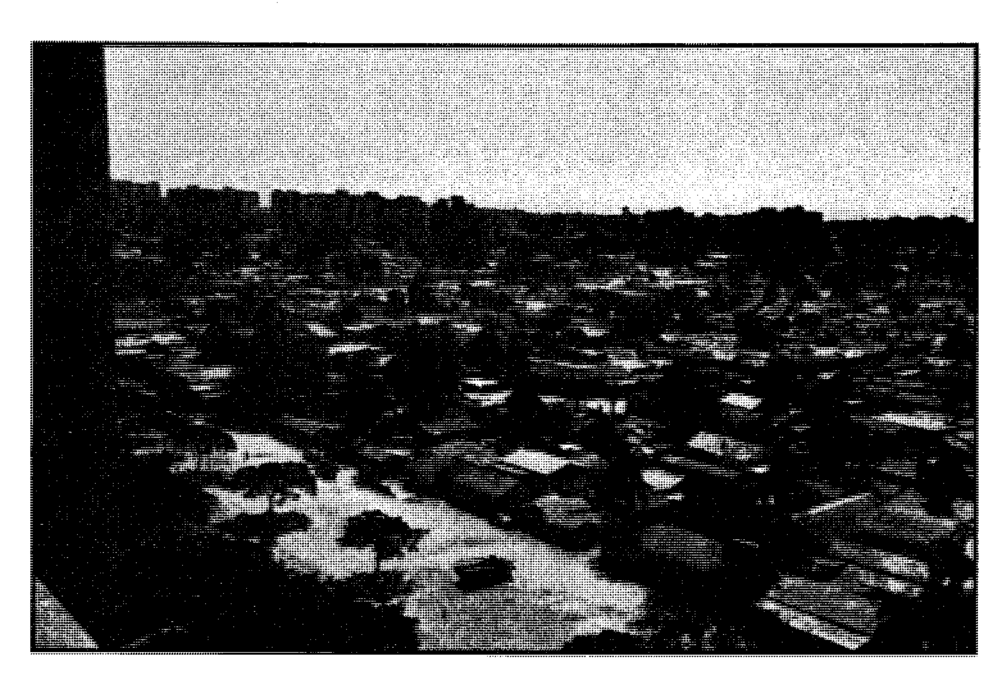
غدائره مستشزرات إلى العُلَى
تضل العقاص في مثنى ومرسلِ

والغدائر هي الجدائل وهي خصلات الشعر المفتولة ومستشزرات أي مرتفعات إلى الأعلى، هكذا يصف امرؤ القيس الشعر الجميل والجميل عندنا وعند أهل النصف الشمالي من الأرض أن يكون الشعر ناعماً بل حريرياً منساباً. هذا وقد حلت الظهيرة إذ كانت الساعة تقترب من الواحدة والشمس حارة يشعر المرء بالضيق منها إلا أن الهواء إذا هب كان منعشاً خالياً من السموم وذلك لوقوع المدينة على شاطئ المحيط .

وقد أخبرونا أنهم الآن يعتبرون أنفسهم في فصل الربيع، وأن الشتاء عندهم فيه برد ليس شديداً.

شارع هوشي منه:

من مظاهر تمسك هذه البلاد الأنقولية بالشيوعية تسمية شوارعها وميادينها بأسماء شيوعيين مشهورين في العالم مثل شارع (هو شي منه) وهو زعيم الشيوعيين الفيتناميين الذين قاتلوا المستعمرين الفرنسيين في بلادهم فتغلبوا عليهم، ثم قاتلوا المتدخلين الأمريكيين في بلادهم فهزموهم أيضاً. وهو شارع طويل يصل ما بين المدينة الجديدة وبين الأحياء الشعبية خارجها.



الحي الجيد وخلفه قلب المدينة في لواندا التقطها المؤلف

وفي أطراف المدينة رأيت (قلاباً) وهوالسيارة التي تحمل الرمل ونحوه وليس في مؤخرتها حاجز وهي تذرو الرمل في الشارع تطيره الريح، ويتبدد مع كل (مطب) في الشارع، واعترض الشارع أيضاً نهر صغير من المجاري المكشوفة وهو مجتمع المياه المستعملة . وبهذه

المناسبة نذكر أنه ليس في لواندا نهر وإنما جلبوا الماء إليها في قناة من نهر (كوانزا) الذي أسموا عملتهم على اسمه (كوانزا) ذكروا أنه يبعد عن المدينة بحوالي مائة كيلو متر.

الماء في لواندا:

رغم كون البلاد الأنقولية ذات أنهار وبحيرات وكونهم سحبوا الماء إلى لواندا من نهر مفعم بالمياه في عهد المستعمرين البرتغاليين الذين كانوا يظنون أنهم باقون في هذه البلاد وأنهم لن يغادروها لأنهم اعتبروها أرضاً برتغالية فيما وراء البحار، وليست مستعمرة فإن خلفاءَهم الذين تولوا الأمور فى البلاد وهم من المواطنين الأفارقة اعتنقوا الشيوعية التي تفقر الغني ولا تغني الفقير وقد ابتلوا أيضاً بالثورات أو لنقل المعارضات الداخلية المسلحة فمنعهم ذلك عجزاً أو تعاجزاً عن



صورة لطرف جزيرة لواندا التقطها المؤلف من نافذة فندق بانوراما

التفرغ لمشكلات البلاد الملحة ومن ذلك توفير مياه الشرب والاستعمال لسكان العاصمة الأنقولية التى ناهز سكانها المليون نسمة في الوقت الحاضر منهم طائفة قدموا إليها من الأرياف فصاروا عالة على مرافقها، بل ومساكنها، لأن الدولة الشيوعية تلزم نفسها بإيجار البيوت لمواطنيها بأجور زهيدة.

وفي أنقولا أنزلت المواطنين فى منازل كان يشغلها المستعمرون البرتغاليون فى السابق، ولكنها لم تكف المواطنين، وعجزت الدولة عن بناء مساكن جديدة كما تفعل بعض الدول الشيوعية المستقرة التى شاهدتها فى أوروبا الشرقية والصين الشعبية. فالماء في أنقولا ينقطع حتى عن الفنادق التي يسكنها الأجانب ويقدمون للبلاد أجرة بالعملة الصعبة مقابل سكناهم. فضلاً عما ذكروه لنا من أن مياه النهر التي تأتي للعاصمة قد اختلطت بمياهها بحيرة ملوثة فصارت المياه كلها ملوثة غير صالحة للشرب بل هي متغيرة اللون والرائحة.

مع إمام المسلمين:

غادرنا قلب المدينة وما يطيف به من أحياء جيدة إلى ضواحيها للالتقاء بإمام المسلمين فى هذه المدينة ويسكن في حي (بالنقا) الذي يقع فيه مسجد الفتح المسجد الوحيد فى أنقولا الذي قدمت ذكره.

تركنا شارعًا ازفلتيًا يخرج من ضواحي المدينة أبرز ما فيه نساء يركضن ترتج صدورهن يحاولن أن يلحقن بالحافلة قبل أن تفوت. فدخلنا شارعًا واسعًا متفرعًا منه ليس فيه من حسنات الشوارع غير السعة فهو ترابي وترابه غير مستو ففيه نتوّات وحفر ونقر. ويتوسط هذا الشارع حيًا تحت الإنشاء جميع شوارعه وأزقته غير مزفتة. إلا أن

تخطيطه جيد بمعنى أنه مستقيم وهو من الشوارع التي رأيتها من الطائرة في أطراف المدينة خالية من الزفلتة. ومعظم البيوت التي عليه هي من لبن الإسمنت.

سوق مركزي:

مررنا بمبنى فى هذا الحي لم يكمل وهو مبني بالإسمنت وقد كتب عليه اسمه فلفت المرافقان أنظارنا إليه بأنه (سوبر ماركت) وأنه سيخدم الحي وذكروا ما استدعى أن نفرده هنا بعنوان وهو أنه حكومي مثل سائر الأسواق بل حتى الحوانيت المهمة فى هذه البلاد الشيوعية. وأنه يبيع بأسعار رخيصة، إلا أنه لا يبيع لغير أهل البلاد ولا يستطيع الواحد منهم أن يشتري إلا بمبلغ محدود.

فذكر لنا الأخ أحمد جان أنه عندما كان موظفاً كا ن يتسلم قرابة عشرين ألف كوانزا مرتبا وتعويضاً عائلياً ويساوي هذا المبلغ بالصرف الحر أقل قليلاً من سبعة دولارات أمريكية. وتعطيه الحكومة بطاقة شهرية تخوله الشراء من أسواق الحكومة مثل هذا السوق بما يعادل هذا المبلغ فقط فى الشهر لا يمكنه أن يزيد عليه، ولو كان معه مال قارون. فالأشياء المباعة بالبطاقة ولكنها بطاقة مرنة بحيث يجوز لك أن تشتري ما تشتهي في هذا المبلغ فبعضهم يشتري بها خمراً وبعضهم يشتري خبزاً مثلاً.

ولكن المشكلة أن الأشياء الضرورية لا تكون موجودة فى أسواق الحكومة فى أكثر الأحيان. فلا يجد المرء لحماً أو سمكاً إلا فيما ندر، والشئ المتوفر هو الأرز والسكر والحليب المجفف وزيت الطعام. أما غير المواطن فى البلاد فإنه يشتري من السوق الحر الذي قدمت ذكره

ولا يبيع إلا بالعملة الصعبة فلا يقبل عملتهم المحلية، إلا أن الشراء منه مفتوح يستطيع المرء أن يشتري منه أي مقدار بهذه الصفة. ووجه النقص فيه أن بعض السلع لا توجد فيه اطلاقاً.

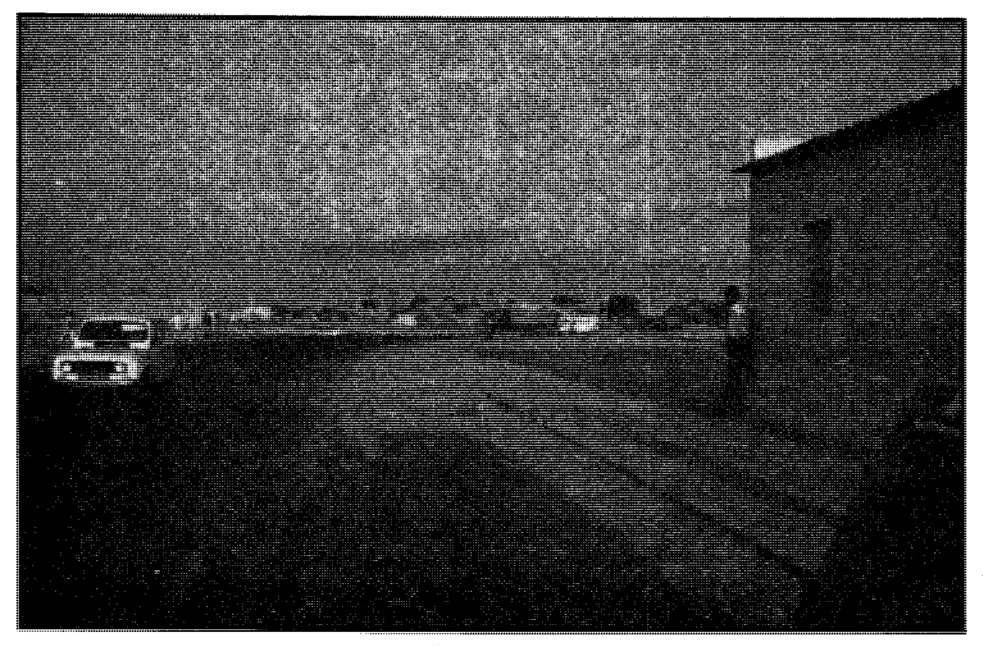
فى بيت الإمام:

الهدف من زيارة الإمام هو السلام والتعرف عليه، وحثه علي مواصلة الجهد في الدعوة إلى الله واحتساب الأجر في ذلك. وقد بلغنا عنه فى هذا المجال ما شجعنا على ذلك. وأمر مهم أيضاً وهو معرفة أحوال المسلمين من شخص مثله يمارس هذا الأمر بصفة عملية .

ويذكر هنا أنه يؤم المسلمين محتسباً الأجر والثواب من الله فلا يتقاضي شيئاً من راتب أو غيره. وذلك لقلة عدد المسلمين من أهل البلاد، ولكون أكثرهم فقراء. أما المسلمون الموجودون فى سفارات البلدان الإسلامية وكذلك الخبراء وأعضاء البعثات العاملون في الأمم المتحدة فإنهم فى وادٍ والدعوة إلى الله في واد آخر. رغم كونهم يعتبرون من الأغنياء أو ميسوري الحال فى هذه البلاد بالنسبة إلى فقر المواطنين وتدني دخولهم. وقفنا عند بيت الإمام وذهب الأخ أحمد جان يستأذن بعد أن سلم ورفع صوته ولكن لم يستجب له أحد.

وتجمع عليَّ أطفال من أهل الحي فانتهزت فرصة غياب الرقيب لأن الشارع لم يكن فيه غيرنا أحد وصورتهم فابتسموا للصورة وفرحوا كثيراً وأعطيتهم قليلاً من المال ليقتسموه ففرحوا أيضاً وصاروا يلاحقونني ويبتسمون طمعاً فى المزيد ولظنهم أنني أسر بملاحقتهم واستمرار ابتسامهم.

وكنت أتأمل البيوت في الحي فأجدها من لبن الإسمنت ذات سقوف من الصفيح الذي لم يصدأ بعد لكون أكثرها جديداً.



في حي شعبي في أطراف لواندا

وجدنا الإمام الأخ (لوكيسا بالارمضان) وهذا هو اسمه مشغولاً أيضاً ببناء غرف إسمنتية له في بيته الذي يقع في فناء واسع مسور فيه سيارة صغيرة ذكر لنا فيما بعد أنها وسيلته الوحيدة للعيش .

متى أسلم الإمام:

لا بد لك إذا قابلت مسلماً من أهل هذه البلاد أن تسأله السؤال التقليدي. متى أسلمت يا أخي؟ وذلك لكونهم جميعاً حدثاء عهد بالإسلام. وأجاب الأخ رمضان على هذا السؤال بقوله: لقد أسلمت في عام ١٩٦٨م وسبب إسلامي أنني سافرت إلى زايير، ولم أكن أعرف عن الإسلام شيئاً من قبل شأني فى ذلك شأن سائر أبناء وطني.

فالتقيت ببعض المسلمين في زايير وهداني الله إلى الإسلام ولله الحمد. ثم قال: أنا أعلم أن معرفتي بالإسلام محدودة، وأن الذى يؤم بالمسلمين يجب أن يكون عارفًا بالأمور الإسلامية الفردية، ولكن ما العمل وأنا أكثر المسلمين هنا من المواطنين معرفة بالإسلام. وإذا لم أؤمهم فى الصلاة فإنهم لا يجدون إمامًا غيري.

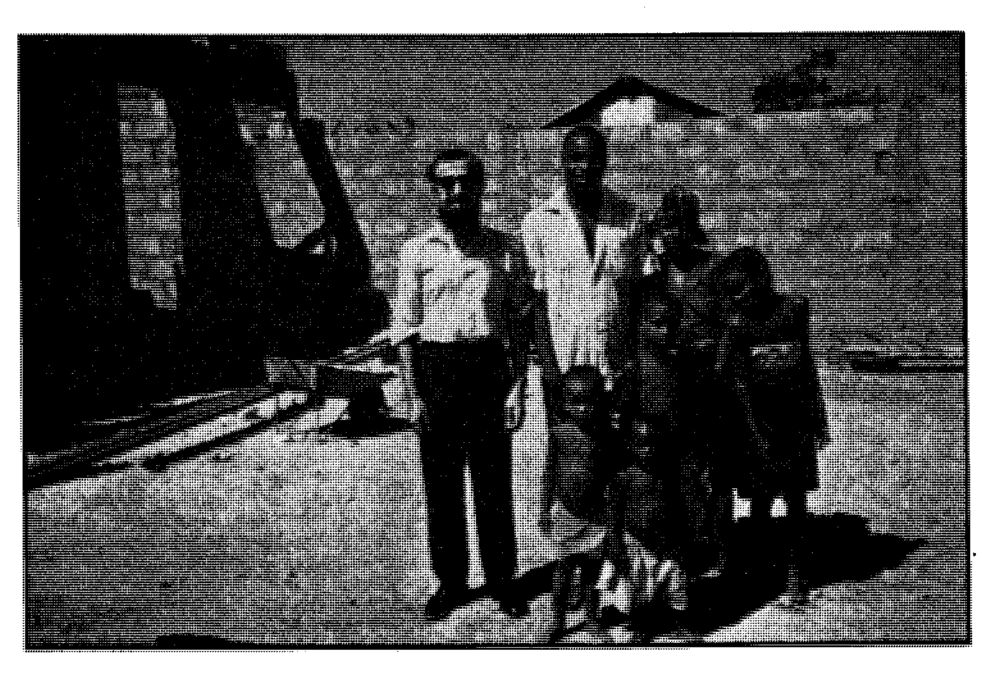
وقال: منذ أن هداني الله تعالى إلى الإسلام وأنا اجتهد في اكتساب المزيد من المعرفة عن ديني الحنيف، ولكن الكتاب الذي يتحدث عن الإسلام باللغة البرتغالية التي هي لغة المتعلمين فى هذه البلاد، أو باللغات المحلية الأنقولية غير موجود، لذلك كنت أطلب المعرفة عن طريق القراءة والكتابة بالفرنسية.

والأخ رمضان يتكلم الفرنسية جيدًا، وبها كان يحدثنا فيترجم رفيقي السفير الدكوري كلامه.

ثم أرانا شيئًا عجيبًا، ذلك هو تفسير آيات من القرآن بالفرنسية، كتبها بخط يده سواء الآيات العربية أو ترجمة المعاني بالفرنسية فهو يكتب العربية كما يراها في المصحف دون أن يفهم معناها إلاَّ من الترجمة. واطلعنا من ذلك على إضبارة كبيرة تشتمل على جملة كبيرة من هذه الآيات الكريمة المكتوبة مع ترجمة معانيها بخط اليد.ثم تكلم عن الإسلام طويلاً وناقشناه فى كل ما يتعلق بالمسلمين هنا فحصلنا منه على معلومات ميدانية مهمة وكان يتكلم عن الإسلام فى هذه البلاد بحماسة وعلي وجهه نور الإيمان والطمأنينة. وبعض ما قاله في الفصل المتعلق بالإسلام والمسلمين في (أنقولا).

كانت زيارتنا للأخ الإمام مفاجأة ولم يعلم بها من قبل لذلك لم يعد

نفسه لاستقبال ضيوفه فكان - مثلاً - يرتدى لباساً كان عليه وهو يساعد بناء واحداً كان يبنى له غرفة بلبن الإسمنت وقد جلسنا داخل إحدى الغرفتين اللتين لم يكتمل بناؤهما وقدم لنا كرسيين عتيقين وجلس على لبن من الإسمنت. وكنت أتأمل بيته وهو يتحدث إلينا فأجده ذا فناء واسع فيه شجرة واحدة من أشجار الموز.



مع الأخ الإمام رمضان في بيته ومع أسرته

وكان من الأشياء التي ذكرها هنا وكرر ذكرها أن الزم ما يلزم المسلمين فى الوقت الحاضر للانطلاق فى العمل الإسلامي هو اعتراف الحكومة بهم حتى يتمكنوا من فتح حساب مصرفي لهم يضعون فيه التبرعات، وينفقون منه على المسجد بطريقة قانونية، إلا أنه قال: إنني أعلم أن الحكومة لن تعترف بنا بجهودنا الخاصة لأننا ضعفاء، ولابد من أن تتقدم إحدى الحكومات أو الجهات الرسمية من خارج

أنقولا إلى حكومة أنقولا وبالذات للرئيس جوزيه بدرو دو سانتوس وتطلب منه ذلك. ثم كرر قوله: إننا ضعفاء، لأن عددنا قليل، وليس فينا من موظفي الحكومة الكبار أحد. فطيبت خاطره وقلت له: إن قلة عددكم ليس مانعاً من التفاؤل بالنصر والظفر لكم فقد كان الرسول ﷺ فى أول دعوته ليس معه إلا أبو بكر وبلال. وبلال إفريقي كما تعلم وانظر الآن إلى خارطة العالم ومواقع الإسلام فيها تعرف عظمته، وقد وصل إلى أماكن لم يكن أهله يحلمون بأن يصل إليها من قبل، ومن ذلك بلادكم الأنقولية هذه. وقد بلغ عدد المسلمين فيها حتى الآن زهاء ثلاثة آلاف شخص.

وهناك أماكن بعيدة منعزلة فى جنوب المحيط الهادئ دخلها الإسلام حديثاً وثبت أقدامه فيها رغم تمكن المسيحية فيها، وحجب المعلومات عن الإسلام عن أهلها ردحاً طويلاً من الزمن امتد حتى الآن فى أكثر الأحوال. أما من جهة تدخل حكومة إسلامية نحو حكومتكم فإن رابطة العالم الإسلامي التى نمثلها سوف تسعى فى هذا الأمر لدى أحد الرؤساء المسلمين ليتصل برئيس جمهورية أنقولا ويطلب منه الاعتراف بالمسلمين بمعنى أن يسمح لهم بتسجيل جمعيتهم رسمياً حسب القوانين المرعية فى البلاد.

وبهذه المناسبة أذكر أنني ورفيقي السفير الدكوري مدير مكتب رابطة العالم الإسلامي فى داكار، وممثلها الإقليمي فى غرب إفريقية قد بحثنا هذا الموضوع الليلة الماضية واتفقنا على أن أفضل السبل لتحقيقه هى ان تطلب رابطة العالم الإسلامي من الرئيس عبده جوف رئيس جمهورية السنغال أن يكتب رسالة إلى الرئيس (جوزيه بدرو دو سانتوس) رئيس

أنقولا فى هذا الأمر وأن يحمل تلك الرسالة وفد من رابطة العالم الإسلامي تقوم الرابطة بدفع تكاليف سفره، ويسلمها إلى الرئيس الأنقولي ويتألف من الأستاذ مصطفى سيسي سفير السنغال في تونس ومستشار الرئيس السنغالي والسفير الشيخ عبد الوهاب الدكوري.غير أننا لم نر من المناسب أن نخبرهم بذلك. وإنما اقتصرنا على وعدهم بالسعي في هذا الموضوع.

وقد جربنا صدق ما قالوه فى كوننا نحمل مبالغ مالية لهم لم نستطع تسليمها إليهم، ولم يجرؤوا على طلبها منا لفقدان الناحية القانونية فى هذا الأمر لأنه إذا تم التسليم لشخص باسم جمعية غير معترف بها. فإنه يكون -في الواقع- تسليماً له بصفته الشخصية ومن الصعب ضمان أن يصرف المبلغ فى مصرفه إذا تم بتلك الطريقة لا سيما في بلاد مثل أنقولا يشمل العوز والفاقة أكثر سكانها ويجعل ائتمانهم على نقود كبيرة مخاطرة بمصير تلك النقود.

وقد لاحظ الشيخ الدكوري أن الإمام والأخ أحمد جان كانا يستعملان لفظ كنيسة المسلمين للمسجد يريدان بذلك معبد المسلمين وذلك عندما يتكلمان بالفرنسية عن المسجد. فصححنا لهما ذلك وقلنا إنه لا يجوز أن يسمى المسجد باسم كنيسة المسلمين، وإنما يجب أن يسمى باسم (المسجد) فهذا صار اسماً له لا يشاركه فيه غيره يعرفه أكثر الناس به حتى غير المسلمين.

الجهل المطبق بالإسلام:

وذكر لنا الأخ رمضان كما ذكر غيره أن عامة الناس هنا يجهلون الإسلام جهلاً مطبقاً حتى يعتبره بعضهم نوعاً من الوثنية، وليس ديناً

توحيدياً سماوياً، وذلك من تأثير العداوة والتعصب للمسيحية الذين كان المستعمرون البرتغاليون ينشرانها عن الإسلام.

وقد صاحب ذلك إقامة ستار فكري حديدي دون الدعوة الإسلامية، بل حتى دون عرض الحقائق الإسلامية على أنظار الشعب دون دعوة إليها، أو تحبيذ لاعتناقها. وقال: إلا أن ذلك لم يجعل الشعب يعادي المسلمين أو يضايقهم أو حتى يسعى الآن دون دخول الناس في الإسلام. وقال: حتى الدولة الشيوعية لا تضايق المسلمين أفراداً ولا تتدخل في إرادة من يود الدخول في الإسلام، وإن كانت لا تزال تمتنع عن تسجيل جمعية إسلامية بحجج متعددة كلها واهية لو وجدت أشخاصاً أقوياء النفوذ فى الحكومة لرجعت عن ذلك.

وذكر من إقبال الناس على الإسلام، وسهولة الانقياد إليه أمراً عجباً، وقال أنا أسلم على يدي عدد من الناس وأنا أعلمهم ما أعرفه عن الإسلام مع قصور معرفتي ولكنني أبذل جهدي فيما أرى أنه واجب.

انعدام الكتاب الإسلامي:

وذكر أن الكتب والنشرات الإسلامية بالبرتغالية معدومة هنا وأما بالنسبة إلى اللغات المحلية فإنها مما لم يفكر أحد بالبحث عنه لاستحالته فى الوقت الحاضر. وأن كل ما يفعلونه الآن أن يأخذوا بعض الكتب والنشرات المكتوبة بالفرنسية فيترجمونها إلى البرتغالية، ويعلمون الناس ما تحتويه على قدر ما تسمح به امكاناتهم.

ثم أحضر إلينا من داخل بيته اضبارات متعددة كادت تنوء بحملها يداه، وأرانا كيف يعمل في ترجمة الآيات التي يلزم تعلمها لمن يدخل في الإسلام حديثاً من القرآن الكريم وكيف يشرحها بالبرتغالية.

وذكر أن المسلمين ضعفاء عن أن يستطيعوا أداء فريضة الحج وأنه لو فرض وجود من يستطيعون ذلك منهم فإن إجراءات استخراج جواز تستغرق وقتاً طويلاً.

والحقيقة أن الأخ رمضان هذا هو من الجنود المجهولين عند الناس المعروفين عند الله بل من المؤسسين الصابرين على الدعوة الإسلامية، لا يريد من ذلك إلا الثواب من الله تعالى لأنه لا يتقاضى على ذلك أي مقابل من الناس . بل أن عمله هذا يكلفه كثيراً من الوقت والمال وهو يؤم الناس دون أن يتطلع حتى إلى زعامة المسلمين.

فقد أخبرنا غيره أن رئيس المسلمين الذي هو همزة الوصل ما بينهم وبين الحكومة أو لنقل رئيسهم السياسي هو مسلم يعمل في التجارة، وليست لديه معرفة دينية.

اللباس الإسلامي:

طرح علينا الأخ رمضان مسألة قال: إنها تشغل ذهنه وهو موضوع اللباس الإسلامي وقال: لابد أن يكون هناك لباس خاص للمسلمين يعرفهم الناس به حتى يستطيع من يرغب بالدخول فى الإسلام أن يتعرف بسهولة على المسلمين، بل حتى أن يكون ذلك شعاراً للمسلمين يعرف به بعضهم بعضاً.

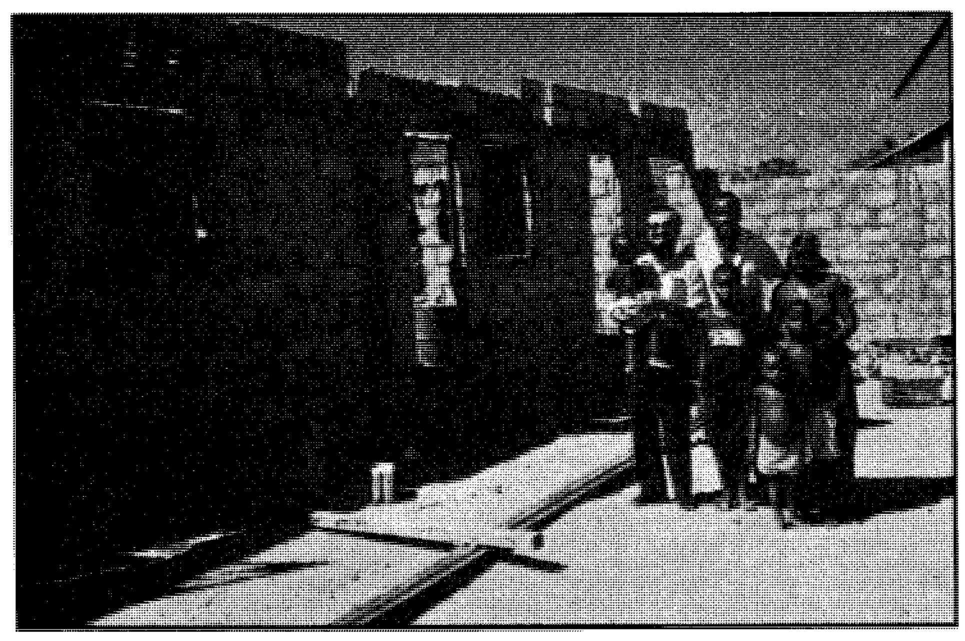
فقلت له: إنه ليس هناك لباس إسلامي واحد لأن الإسلام هو في القلب، وإنما اللباس الذي أمر به الإسلام هو أن يكون ساتراً للعورة، ذا منظر جميل حسب الإمكان لأن الله تعالى يقول: «خذوا زينتكم عند كل مسجد». أي عند الحضور للصلاة.

ولكن هناك ألبسة للمسلمين معروفون بها لا يشاركهم غيرهم من أهل الأديان الأخرى فى لبسها وهي متعددة والأهم فيها هو ما قلناه من كون اللباس ساترًا ولائقًا.

وقد درج كثير من الإخوة المسلمين في العالم وبخاصة حدثاء العهد بالإسلام أو الذين هم فى بلاد لم يكن فيها مسلمون قدماء من بلادهم على ارتداء لباس المسلمين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة المسمى بالزي العربي فهو ساتر وجميل.

وإذا كان بعض المسلمين يعملون أعمالاً تتطلب خفة الحركة أو كثرتها، ولا يصلح لها اللباس الطويل فإنه يمكن أن يكون للمسلم من هؤلاء لباس خاص بالعمل ولباس من لباس المسلمين فى سائر أوقاته. فسأل عن اللباس العربي وكيفية الحصول عليه؟.

فقلت له: إنني يسرني أن أقدم لك هدية منى من ثياب معى جديدة وهي لباس عربي مؤلف من قميص و(شماغ) أحمر وطاقية . أما العباءة فقد اعتذرت بأنني ليس معي إلا واحدة احتاج إليها فى المقابلات الرسمية وبخاصة مع الرؤساء والرسميين فى البلاد الباقية في برنامج رحلتنا وهي برازافيل وغينيا- وربما ساحل العاج- وأخيرًا السنغال وجزر الرأس الأخضر. فسر بذلك وأعظمه وشكر شكرًا جزيلاً.



المؤلف يحمل طفلاً للإمام رمضان في بيته

وقبل ختام هذا اللقاء الممتع حضرت بنية له اسمها عائشة وعمرها سبع سنوات بعلب فيها البيبسي كولا باردة. وفي الختام التقطنا صوراً تذكارية معه فى بيته ومع أسرته وهم أولاده رجب وموسى ورمضان وعائشة وزوجته حبيبة وهي مثله حديثة عهد بالإسلام. أما من ولد من أولاده بعد إسلامه فإنه ولد مسلماً.

المقبرة بأجرة شهرية:

تركنا حي (بالنقا) عائدين إلى قلب المدينة فمررنا بمقبرة فيها أسست فى عهد البرتغاليين فأخبرنا المرافقون أن مدة إقامة الميت فى قبره محدودة بستة أشهر، لا يجوز أن يتعداها، وإذا أراد هو فى حياته أو أراد أهله بعد وفاته أن يقيم جسده في القبر أكثر من ستة أشهر كان عليه أن يدفع أجرة شهرية مقابل ذلك متى ما توقفت نُفي من قبره بمعنى أخرج

كما يخرج كل ميت بعد ستة أشهر- أو تخرج بقاياه على الأصح إلى مدفن جماعي تترك فيه حتى تتحلل. وهذه عادة رأيتها فى مدينة بورت اليقري عاصمة ولاية (ريو قراندي دي سول) وهي آخر الولايات البرازيلية الجنوبية جهة الجنوب، أخبرني بها الإخوة المسلمون المقيمون في تلك المدينة.

وقد ذكرت ذلك مع ما ذكرته من أحوال ذلك القسم من البرازيل فى كتاب : «في جنوب البرازيل» من الرحلات البرازيلية.

ومررنا بمكان مرتفع مغروس بأشجار تتدرج بتدرج ارتفاعه فذكروا أنها حديقة تسمى (ميرا مار) وهي تشرف على جزء مهم من مدينة (لواندا) فأردت أن اختلس صورة فيها من خارج السيارة، ولكن الأخ المسلم احمد جان اضطرب عند ذلك وخشى على نفسه وعلينا، فأسرعنا الانصراف.

وعدنا إلى الفندق على أمل أن يأتوا إلينا فى الساعة الرابعة عصراً لنكمل جولتنا في مدينة لواندا أو فى أطرافها التى لم نرها من قبل ويسمح الأمن والنظام فيها بالتجوال ولله الحمد، على كل حال.

وعند الساعة الرابعة لم يحضر السائق ولا الأخ أحمد جان وطال الانتظار حتى كاد ينتهى النهار. ثم حضرا قبيل السادسة، واعتذر السائق بأنه غلبه النوم. ولم يعترض الأخ أحمد جان على اعتذاره رغم أن نومه لم يكن ينبغي في نهاره، لأننا قد استأجرنا سيارته طوال اليوم ولم يستثن من ذلك عذره بغلبة النوم.

ولكن كانت جولتنا فى هذا النهار ممتعة. فقلنا لهم: إن غداً هو الأحد

يوم عطلة، لذلك نرى أن نبدل الأصيل الضائع من هذا اليوم بأصيل يوم غد ، على أن تبكروا فى صباح الاثنين الذي هو يوم عمل نحتاج فيه إلى الذهاب لبعض السفارات العربية ومراجعة الدوائر الرسمية حول شراء تذاكر السفر الى برازافيل، ومراجعة سفارة الكنقو التى عاصمتها برازافيل للحصول لى على سمة دخول إلى بلادها وهو دخول لم احتسبه من قبل، وإلا لكنت حصلت على السمة من بلاد فيها سفارة سعودية تطلبها لي فتحصل عليها فى غضون ساعات مثل داكار.

يوم الأحد ١٤٠٩/١١/٨هـ - ١٩٨٩/٦/١١م.

الفكرة العامة:

مضى ليل البارحة وصباح هذا اليوم في تجميع المعلومات فى فذلكة خاصة عن هؤلاء القوم الأنقوليين وأخلاقهم فى بلادهم فى حالتهم الحاضرة أي في تكوين ما يسمى بالفكرة العامة وبالفذلكة وكانت الفذلكة هي أن القوم افريقيون أصلاً وفصلاً ورائحة، بل إن الرائحة المميزة لأجساد الأفارقة الذين يعيشون تحت خط الاستواء وما قرب منه هي فيهم أكثر ظهوراً حتى من الأفارقة الاستوائيين الذين عرفناهم من قبل مثل الكينيين والزائيريين.

وربما كان مرجع ذلك إلى الحالة السائدة في بلادهم فى عدة نواحٍ غير مريحة فمثلاً نقص الماء فيها مما يترتب عليه نقص الاغتسال لمن يريد أن يغتسل فإذا اجتمع نقص الاغتسال وعدم التنظيف مع وجود تلك الرائحة كانت الطامة الكبرى لأمثالنا. وقد عانينا كثيراً من تلك الرائحة وأصعب ما فى الأمر أنها بلوى لا يستطيع المرء منا أن يظهر شكواه منها، لأن معنى ذلك – كما يفهم بعض الناس – هو السخرية من

هؤلاء الأفارقة أو حتى تعييرهم برائحة العرق الذين هو مساوٍ عند بعضهم بالتعيير باللون. ومع أن الأمر ليس كذلك، لأن اللون خاص بصاحبه ولا يتعدى تأثيره على من ليست له علاقة حميمة مباشرة به، وأما الرائحة فإن تأثيرها يتعداه إلى غيره سواء اكانت له علاقة أو لم تكن، أو حتى لم يكن يعرفه.

ولكن الأوروبيين العنصريين كانوا يشهرون بالإفريقيين وبرائحتهم غير المحببة للأوروبيين فحمل ذلك الأفارقة على رد الفعل حتى قال بعضهم: إننا نحن الإفريقيين نشم من أجسادكم - أيها الأوربيون- رائحة قبيحة تزكم الأنوف، وتسد منافذ الهواء.

والواقع الذي جربته أن الأمر كذلك عند بعض الأوروبيين البيض فقد صادفت فى هذه الرحلة أفرادًا من الأوروبيين ركبوا معى الطائرة أو وقفوا بجانبي فى مكان مزدحم وهم لم يتنظفوا فصارت لأجسادهم رائحة كريهة من العرق والصنان تدير الرأس، وتكاد تكتم الأنفاس.

وفيما يتعلق بتقاسيم الوجه والجسم فإن أهل أنقولا ينتمون فى هذه الناحية الى أهل الجابون والأقسام الغربية من زايير وأولئك القوم فى تقديري هم أقل الأفارقة حظًا من الجمال.

ولا شك أن هذا ليس عيبًا فيهم وأمثالهم ولكنه وصف مجرد خالٍ عن إرادة أي شئ من ذلك.

قوم طيبون:

وفيما يتعلق بمظاهر القوم وتصرفاتهم مع الأجنبي أمثالنا فإنه ظهر لنا أن القوم ذوو طبيعة طيبة، ولذلك لا ينضح الشر من عيونهم كما

يكون في بعض المناطق في العالم، ولا هم بالذين يشعر المرء غير الأسود بينهم بالخوف والفزع من تصرفاتهم، كما يحدث فى بعض أنحاء زايير. بل إن شعوري كان الاطمئنان إليهم وعدم الخوف من تصرفاتهم. رغم كون بلادهم فى حالة خاصة من عدم الأمن وشمول الريبة والترقب بسبب الحركات الثورية والحرب التى كانت قائمة بينهم وبين حكومة جنوب إفريقية العنصرية.

ورغم شئ ذكره الجميع هنا وحذروا منه وهو أن جواسيس الحكومة ورجالها في كل مكان وهم من كل لون ولا يتركون شيئًا يفوتهم اللهم إلا إذا كان فى الأمر مجاملة للغرباء الذين لا تخفى غربتهم على أحد هنا بسبب اللون الأبيض.

وكنت أود أن التقط صورًا لخليج (لواندا) من فندقنا الذي يقع في الطريق الجنوبي من جزيرة لواندا فلم أجرأ على ذلك، لأن الفندق ملئ بالعيون والجواسيس فعرفنا واحدًا من كبار المسئولين كما نعته لنا العاملون فى الفندق وهو ساكن مثلنا فى الفندق ولكن لغرض معرفة ما يدور فيه، ودعوناه إلى فنجان من الشاي الذي اشتريناه أمس من المتجر بالعملة الصعبة، ولا يوجد مثيله فى الفندق فوافق وشربه معنا، وتحدث مع رفيقي الدكوري بالفرنسية كما تحدثت معه بالبرتغالية.

وقلنا له: إننا نحب أن نلتقط صورًا تذكارية معه، وصورًا لنا في حديقة الفندق ونرجو أن يساعدنا إذا كان يحسن التصوير فلبى الطلب والتقط الصور بنفسه دون أن نخشى تبعتها.



بين مسئولين في فندق بانوراما في لواندا

والمرافق العامة هنا في غاية السوء وأكثرها لا يعمل كما قدمت ذكر ذلك فى صعوبة الحصول على سيارة أجرة، وفى فقدان الماء من هذا الفندق الكبير الذي تسكنه طائفة من الأجانب ولا يقبل منهم أجرة إلا بالعملة الصعبة.

ومن ذلك أننا في مساء البارحة وصباح هذا اليوم حاولنا أن نكلم بعض الأشخاص بالهاتف فلم نستطع لأن هاتف الإدارة في الفندق معطل. وكان الهاتف الوحيد الذي يعمل في كل الفندق. وإلا فإن كل غرفة فيها هاتف لا يهتف به لصاحبه، ولا يستجيب إذا هتف به.

مائدة سودانية:

وسودانيتها هي غربية تاريخية أي منسوبة إلى السودان الغربي وهو

السودان التاريخي المذكور في كتبنا العربية التاريخية، وكان يسمى فى زمن الاستعمار بالسودان الفرنسي، وقاعدته الآن (مالي) وما جاورها.

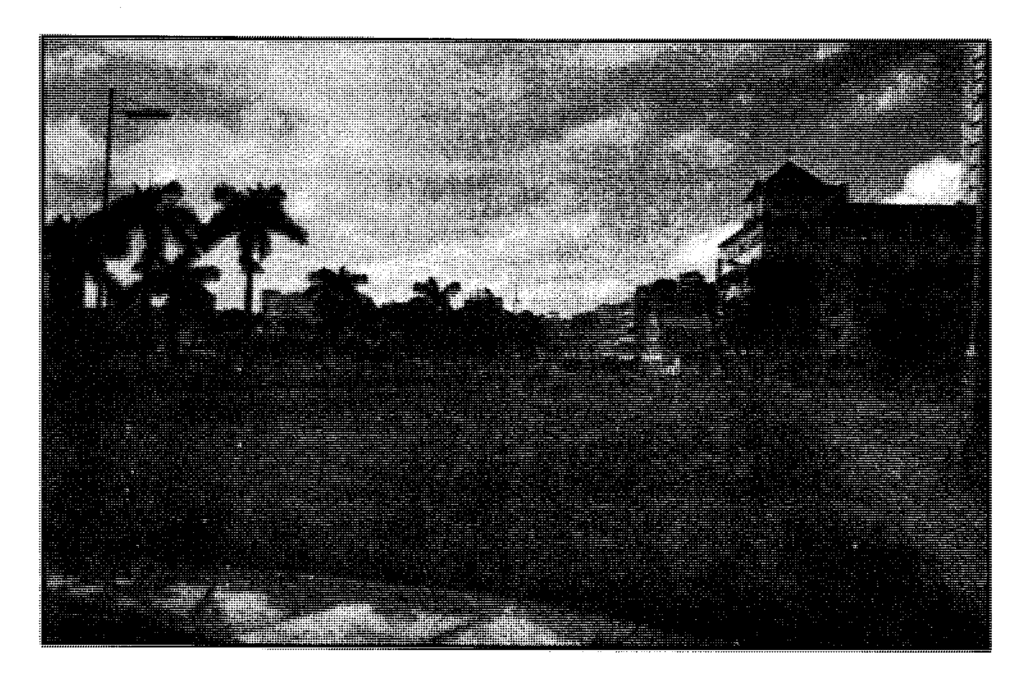
وهي مأدبة أقامتها السيدة (عائشة كواتي) التي تقدم ذكرها وهي مالية - نسبة إلى بلاد مالي قاعدة السودان الغربي القديم وأقامت في السنغال حيث تزوجت قبل عشرين سنة ورزقت بأولاد عدة. وتقدم ذكر عملها وأنها تعمل بالأمم المتحدة، ومأدبة الغداء أو العشاء هنا لها معنى غير المعنى الذي لها في بلاد الحرية والخيرات، مثل بلادنا أو البلدان الأوروبية الغربية، وما كان نظامه حراً من البلدان الأخرى، لأن المرء هنا لا يستطيع أن يجد ما يشتهيه فيأكله ولو كان جيبه مليئاً بالنقود.

وأذكر أن أحدهم هنا قال لي: إن الناس يقولون : إنك إذا أردت أن تأكل فى مطعم من المطاعم المناسبة - وكلها حكومية- فإنه يجب عليك أن تحجز الغداء قبل ذلك بأيام وقال بعضهم: بأسبوع ولا أدري صحة ذلك. ولكن قال أخر: حتى الشراب إذا أردت أن تجلس فى مقصف أو مشرب نظيف فلا بد أن تحجز مجلسك فيه قبل مدة. غير أننا وأمثالنا من سكنة فندق (بانوراما) لدينا مطعم يقدم ما يروق له لا ما يطلبه النزلاء ولا مجال للاختيار فيه، وإنما يفرض عليك أن تأكل ما يقدمه أو تتركه - إن شئت- وأنت إذا شئت تركه فإنك لن تجد مكاناً آخر تأكل فيه ما شئت فكان النزيل يأكل وينشد مع القائل:

إذا كنت في قوم عدى لست منهم
فكُلْ ما علفتَ من خبيث وطيب

ونحن نجل الطعام عن أن يكون فيه شئ غير طيب اللهم إلا ما نجسته الحرمة كلحم الخنزير فنحن لا نأكله ولو كنا في قوم لسنا منهم.

حضرت السـيدة (عائشة كـواتي) إلى الفندق في الثانية عـشرة ظهراً ومعها سـيارة الأمم المتحدة المخصصة لها وسـائقها من أهل البلاد وربما يكون عينـاً للحكومـة، ولكن رفيقي الدكوري عرف كـيف يتفادى نظره إلينا بسمعه، وذلك بأن صار يكلمها بلغة البامبرا وهي اللغة الشائعة في مـالي، ثم يتـرجم إليَّ ما أريده بالـعربيـة فـلا يعرف السـائق من كـلامنا شيئـاً من ذلك أنني أخذت معي المصوَّرة (الكاميرا) وقلت في الطريق له بأن يسأل السيدة عائشة عن رأيهـا في التقاط صور لم أستطع الحصول عليها عندما كان يصـحبنا أناس من أهل البلاد أمس. فحذرتنا من ذلك. وقـالت: إن التصـوير عندهم ممنوع في كل مكـان وأهون ما يفـعلونه أن يصادروا المصورة والشرائط التى فيها أو التى تكون مع السائح.



شارع في حي قديم في لواندا

تسكن السيدة عائشة مع أسرتها فى شقة فى بناء مؤلف من أربعة عشر طابقًا تملكه الحكومة وتؤجره عليها وأمثالها من الأجانب الذين يتسلمون رواتبهم بالدولار، وتتسلم أجرته منهم بالدولار أيضًا.

فهذه الشقة مؤلفة من ثلاث غرف ومدخل ليس واسعًا بمثابة قاعة للجلوس ومؤثثة تأثيثًا جيدًا بأثاث خشبي، وأجرتها الشهرية ألف وخمسون دولار أمريكيًا، وهذا مبلغ ضخم بالنسبة إلى دخول أهل البلاد فضلاً عن أنه كثير حتى بالنسبة إلى مستوى الأجور فى بلادنا التى لا تشكو شحًا من العملة الصعبة.

وتقول عائشة: إنها تسكن هذه الشقة مع أسرتها وخادمة من أهل البلاد تدفع راتبها بالعملة الصعبة، حسب قوانين الحكومة بالنسبة لمن يعملون من المواطنين مع أناس أجانب.

ولكن الغريب ما ذكرته من أنها لا تدفع راتب الخادمة إليها لأنه لا يجوز حسب قوانين الحكومة التي لا بد لأمثال السيدة عائشة من الأجانب من مراعاتها أن يدفعوا العملة الصعبة إلى أي مواطن غير مخول بحيازة العملة الأجنبية ، وكل المواطنين كذلك إلا المصرف الحكومي وفروعه، وإنما عليها أحد أمرين إما أن تدفع المبلغ للمصرف الحكومي وهو يعطى الخادمة قيمته بالكوانزا الذي هو العملة المحلية بالسعر الرسمي الذي يقل قليلاً عن ثلاثين كوانزا للدولار الواحد وهذا لا يساوي أكثر من ١٪ من السعر الحر للدولار الذي يتم بكثرة دون أن تعلم الحكومة كما سبق.

والأمر الثاني: أن تذهب مع الخادمة إلى السوق الحرة التى تبيع الأشياء بالعملة الصعبة فتشتري بجميع المبلغ سلعًا وبضائع مما هو فيه

وأكثره من المأكولات وتعطيها الخادمة بعد أن تأخذ من السوق الذي هو متجر كبير كما قدمت ذكره شهادة بذلك.

قالت: والخادمة تفضل هذه الطريقة.

كيلو اللحم بأربعمائة دولار:

بعد أن اطمأن بنا المجلس عندها وسمعنا منها ما تقدم أردت أن أعرف القوة الشرائية للكوانزا، عن طريق معرفة أسعار بعض السلع الضرورية فسألت السيدة عائشة عن قيمة الكيلو من لحم البقر الجيد، فأجابت أنه بأربعمائة دولار!!!

ولما استعدت منها ما ذكرته ظناً مني أنها أرادت أربعة دولارات كررت قولها أكثر من مرة أن سعر كيلو اللحم هو أربعمائة دولار.

ثم فسرت ذلك بأن كيلو لحم البقر الجيد يتراوح سعره ما بين ٢٢ ألفاً وأربعة وعشرين ألف كوانزا وأن هذا المبلغ يساوي بالصرف الرسمي أربعمائة دولار. ولكن ليس معنى ذلك أن الذين يملكون دولارات من الأجانب يشترونه بهذا المبلغ، لأنه يباع في السوق التى تبيع بالنقد الأجنبي بسعر غال ولكنه ليس أغلى منه في أوروبا مثلاً فهو يباع بأربعة دولارات في السوق السوداء إذا دفع المشتري نقداً.

كما أنه ليس معنى ذلك أن المواطنين الذين لا يملكون دولارات يشترونه بهذا الثمن بمعنى أنهم يدفعون المبلغ كله ثمناً لكيلو من اللحم، لأن هذا المبلغ يعادل راتب شهر ونصف للعامل الجيد وللموظف الذي تخرج حديثاً من الجامعة. لأن راتب الموظف الجديد المتخرج من الجامعة يتراوح ما بين ١٦ ألفاً وثمانية عشر ألف كوانزا، وإنما

أكثر المواطنين لا يعرفون اللحم ولا يستطيعون شراءه إلا إذا وجدوه في المتاجر الحكومية، وسمحت لهم البطاقات التى يحملونها بشرائه. وهو قليل فى تلك المتاجر، بل نادرًا ما يعرض فيها. ويفضلون أن يشتروا بدلاً منه السمك الذي يباع الكيلو الواحد منه بعشرة آلاف كوانزا. أي ما يعادل أكثر من نصف راتب العامل الواحد في الشهر.

قالوا: وإنما يوجد في متاجر الحكومة مواد غذائية متوفرة مثل الأرز والسكر والذرة والحليب المجفف ولكنها لا تسمح للشخص الواحد إلا بما قيمته خمسة آلاف كوانزا فى الشهر كما تقدم. وعلى ذلك تقاس أشياء مماثلة. فالدجاجة الواحدة بخمسة عشر ألف كوانزا ويساوي ذلك خمسة دولارات بالصرف الحر للدولار. وكذلك ثمرة فاكهة البابای الجيدة بألفي كوانزا، وهو يعادل ثلثي دولار أمريكي بالصرف الحر، ولكنه يساوي راتب أكثر من ثلاثة أيام للموظف الجامعي الذي عين حديثًا.

وقال لنا كثير من الذين سألناهم عن الأمر: أن ذلك صحيح لكن هناك أشياء لا بد من النظر إليها بعين الاعتبار هنا وهي أن الدولة تؤجر للموظفين المساكن بأجر زهيد جدًا، لأنها ملتزمة بتوفير المساكن لهم، وأنها أيضًا ترى نفسها ملزمة بتوظيف الناس الذين يقبلون برواتبها الضئيلة لذلك تعين الموظفين بكثرة دون أن يكون لديها ما يكفل لهم الحياة المعتادة عند غيرهم.

ويقع منزل السيدة عائشة في الطابق الرابع عشر من المبنى المذكور ولذلك تشرف شرفة فيه على أماكن بعيدة من حي (سدا ديلا) الذي يقع فيه، وغيره وقد انتهزت هذه الفرصة فالتقطت لهذا الحي وما حوله من الشرفة صورًا لم أستطع التقاطها من الشارع.



المؤلف ينظر من نافذة في الطابق السادس عشر إلى حي سدادلا في لواندا

ومن المناظر من هذه الشرفة منظر بناء كبير من ١١ طابقاً قد تسربت المجاري منه وكونت مستنقعاً أسود كريه المنظر والمخبر عند باب هذا المبنى الكبير ولا من يهتم به.

وكانت مأدبة الغداء سودانية لذيذة الطعم، في غاية النظافة فأكلنا منها ما لم نجده في المطعم أو غيره من الأرز والسمك المنوع واللحم والخضروات التى كان منها البامية والقلقاس، وبعد ذلك فاكهة من البرتقال والموز أظنها مستوردة.

وكانت المشكلة هي في الرجوع إلى الفندق فالسيارة التى كنا قد استأجرناها لم تحضر وكنا أشعرنا الفندق بأن يرسلوها إلينا في البيت. وسائق السيارة الذي أحضرنا ذهب لحضور مباراة مهمة عندهم بين

فريقين لكرة القدم أحدهما القابون جارتهم والثاني من أنقولا . وحاولنا أن نجد سيارة أجرة أو أية وسيلة تنقلنا فلم نستطع وقد أخبرونا أن الحصول على سيارة بالأجرة فى مثل هذه الحالة من رابع المستحيلات. وغلب على ظن أصحابنا أن سائق السيارة التى كنا استأجرناها بأجر يومي مغرٍ لم يحضر وقالوا: ربما كان أيضاً ذهب لمشاهدة المباراة الكروية.

ولذلك كرروا قولهم: ان حالة هذا البلد عجيبة، فأنت تكون معك في بعض الأحيان نقود كافية أو أكثر من ذلك ولكنك لا تستطيع أن تقضي بها حاجتك. وبعد الخامسة جاء سائق مكتب الأمم المتحدة بعد أن انتهت المباراة وحملنا للفندق فلم نجد خبرًا عن السيارة التي أستأجرناها.

أخبار أنقولا من السعودية:

من مزايا الفندق الذي نحن فيه أنه لا يحيط به أبنية مزودة بالكهرباء كما أنه لا يستعمل الأدوات والآلات الكهربائية لذلك كان استقبال الإذاعة السعودية واضحًا فكنت استمع إلى إذاعة الرياض وكأنني هناك. ومن عجائب هذا الزمان التى أصبحت مألوفة بحيث لا تثيرالعجب الآن أنني سمعت بأخبار مهمة عن أنقولا هذه التى نقيم فيها من إذاعة الرياض لم نستطع معرفتها هنا بسبب حاجز اللغة وعدم وجود صحف باللغة الانكليزية. ومن تلك الأخبار أن إعادة اللاجئين الذين فروا من ناميبيا المجاورة إلى أنقولا قد بدأت بالفعل وعددهم ستون ألف لاجئ، وكانوا لجأوا إلى انقولا بسبب الحرب التي كانت موجودة فى بلادهم بينهم وبين جنود حكومة جنوب إفريقية التي تحتل بلادهم. وخبرًا آخر يذكر أن المعارك تحتدم الآن فى جنوب أنقولا بين الحكومة

وقوات الثوار من منظمة يونيتا المعادية للشيوعية. وجاء في خبر مهم وهو أن تسعة آلاف أنقولي لجأوا إلى ناميبيا هربًا من هذه المعارك فكأن ناميبيا بذلك ترد الدين إلى أنقولا باستقبالها اللاجئين منها بعد أن تم الاتفاق على أن تجلو عنها قوات جنوب إفريقية.

يوم الاثنين ١٤٠٩/١١/٩هـ.

الطواف على السفارات العربية:

لم يحضر سائق السيارة الذي كنا اتفقنا معه على الحضور ولا الأخ المسلم أحمد جان فى الموعد المحدد لذلك وهو الثامنة من هذا الصباح وكنا على عزم الاتصال بالسفارات العربية في لواندا لنعرف كيفية صرف النقود التي معنا للمسلمين في هذه البلاد ومنها صك (شيك) معتاد بمبلغ من المال بالصكات السياحية.

لذلك هاتفنا السفارة المصرية فرد عليَّ شخص لا يعرف العربية ولا الفرنسية ثم تبين أنه يعرف الانكليزية فشرحت له بأننا من رابطة العالم الإسلامي فى مكة المكرمة ونريد أن نتكلم مع السفير، أو مع الشخص الذي يليه في الرتبة فى السفارة فأعطانا القنصل، ولا أريد أن أذكر اسمه فأخبرته باسمي ووظيفتي والغرض الذي من أجله أريد أن أرى السفير في السفارة فقال: هذا فيه صعوبة لأن السفير غائب والقائم بالأعمال غائب، فالمسئولان في السفارة غائبان.

فقلت له: لكننا نريد أن نراك أنت ونتحدث إليك ولكن بمجرد أن نجد سيارة تنقلنا لأن السيارة التى كنا استأجرناها ابطأت علينا. فبانت الحيرة على لسانه وقال: هؤلاء القوم – يريد المسلمين– قطعنا علاقتنا

بهم من سنتين. ومجيئكم للسفارة وما فيها أحد مسئول صعب! فسألته عن العمل إذاً؟ فأجاب أنا آتي إليكم فأخبرته برقم الغرفة وقلت: إننا ننتظرك في قاعة الاستقبال ونشكره مع أنني كنت أود أن أراه فى مقر السفارة وقلت له:

إننا سنسافر غداً ولدينا أعمال متعددة نريد أن ننجزها فى هذا اليوم، فقال: مسافة نصف ساعة وأكون عندكم. فشرحت له مرة أخرى الغرض من الاجتماع وأنه لعمل خيري إسلامي يتلخص في معرفة الطريقة التى نسلم بها النقود لإخوتنا المسلمين.

فقال: نحن ما نسمح لأحد منهم الآن بالمجئ للسفارة لكن نساعدهم عند الحكومة حتى تعترف بهم.

ثم بقينا في انتظاره وإذا بأخينا المسلم أحمد جان يصل وحده ويقول آسفاً: إن السائق اعتذر عن المجئ بسبب خراب أصاب سيارته كما قال وأنه كان يتردد على بيته أمس ولا يجده.

هذا وقد مضى نصف الساعة المحدد ونحن فى انتظار القنصل المصري فى لواندا ومضى نصف ساعة آخر ونحن على أحر من الجمر فى انتظاره ولم يصل. فعرفنا أنه لا يريد أن يأتي، ونحن نريد أن نذهب للسفارة الجزائرية بعد المصرية، ولكن المشكلة مشكلة السيارة فوقفنا مع الأخ أحمد جان فى الشمس أكثر من نصف ساعة أمام باب الفندق نستجدي كل سيارة تمر أن تحملنا بأجرة ولا يمن علينا أحد بذلك . ومن المؤلم لي حقاً أنني رأيت رجلاً أعرج برجل واحدة واقفاً مثلنا ينتظر أن تمر به سيارة وقد تركناه واقفاً في الشمس دون أن يجد من يحمله. وبعد ذلك وقفت لنا حافلة صغيرة

فركبنا وقد مضى على موعد القنصل المصري ساعة ونصف ولم يحضر. فركبنا فى السيارة وكانت مزدحمة، والوقت ضحى، وقد عرقت الأجساد، ففاحت منها رائحة صنان دار لها رأسي ودمعت منها عيناي ولكن ما العمل؟

ولم تمض الحافلة بعيدًا بل أنزلتنا فى شارع (مارجنال) القريب من جزيرة لواندا فأعطيناه أجرته وهي في غاية القلة عن كل شخص عشرون كوانزا. ويساوي ذلك بالصرف الحرأقل من (سانتي)واحد، أي أقل من ١ ٪ من الدولار. وهذا من أسباب تعطل المصالح، وعدم وجود سيارات أجرة تيسر للإنسان الانتقال لأن الأسعار التي حددتها لها الحكومة ضئيلة.

وفى موقف هنا للحافلات والسيارات وجدنا سيارة فولكس واجن لا يصح أن يطلق عليها اسم السيارة فهي مجموعة من الحديد الصدئي الكئيب المنظر والمخبر فأستأجرناها من صاحبها بتسعة آلاف كوانزا لمدة ساعتين وكان أول ما فعل أن طلب منا أن نعاونه على دفعها لأنها لا يتحرك محركها إلا بذلك. ثم ركبنا معه وسار وكل جزء من أجزائها له صوت يقارب صوت محركها في الضجة وعدم المرونة.

السفارة الجزائرية:

اخترقت هذه السيارة الكئيبة الحي القديم الجيد في لواندا ثم وقفت عند باب بناء صغير مؤلف من ٤ طوابق، ولكنه في حالة مزرية فدرجات المدخل متكسرة كلها بل مدخله كله كئيب المنظر، كأنما أراد أهله أن يبقى خرابًا، فلم يصلحوا ما خرب منه. لذلك لم أصدق أن مثله يسكن، فعدنا الى مدخل البناء لنتأكد فيما إذا كنا بالفعل لم نضل، وكان الأخ

أحمد جان قد أشار إليه ونحن نقف في السيارة ثم بقي ينتظرنا لأننا لم نرد أن يطلع على ما يكون منا فى السفارة. فرأيت لافتة السفارة مكتوبة عليها بالعربية (سفارة الجمهورية الجزائرية الشعبية الديمقراطية) وتحت ذلك العبارة نفسها بالبرتغالية.

ولكننا لم نصدق مع ذلك أن السفارة قد تكون فى هذا المبنى الذي رأينا درجه الداخلي أيضاً مكسراً قذراً. فرأينا فى داخل المبنى باباً طرقه رفيقي الدكوري يسأل من بداخله عن السفارة فلما لمسه وقع الباب على الجدار، وتبين أنه لم يثبت فيه وأنه كان قد خرب فلم يصلح فخرجت بنية عابسة فسألتها بالبرتغالية عن السفارة الجزائرية؟ فأجابت: فوق. ودخلت.

وهنا جاء الأخ أحمد جان وكان رأى حيرتنا عند الباب فأخبرنا أن السفارة في الطابق الرابع من هذا المبنى. دخلنا مصعداً مهملاً ولم نستطع أن نبصر الأرقام عليه لأن النور الذي بداخله قد ذهب منه كما ذهب من المصعد الذي في فندقنا ففتحنا الباب ووضع أحدنا أصبعه على رقم (٤) ثم أغلقناه. فارتفع المصعد ولكن المشكلة كانت رائحة خبيثة تنبعث منه وكأنما هو مبولة، ولا أدري هل بال فيه أحد بالفعل أم أن رائحة البول والعفن من أحد الأماكن أو من أكثر الأماكن التى مر بها. دخلنا الشقة التى فيها السفارة فوجدنا عند مدخلها مكتباً عليه رجل إفريقي شاب طلبنا منه أن يحضر لنا مسئولاً من السفارة فحضر أحد الإخوة الموظفين فعرفناه بأنفسنا وبأننا من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة جئنا إلى هذه البلاد لغرض مساعدة الإخوة المسلمين على بناء المسجد ونريد أن نلتقي بالسفير ونبحث هذا الأمر فرحب بنا الرجل كثيراً.

مع السفير الجزائري:

غاب الأخ الجزائري الموظف لحظة فى الداخل ثم عاد برفقة السفير (ابن عوض جمال الدين) فاستقبلنا السفير استقبالاً كريماً وأجلسنا في مكتب له صغير في السفارة وجلس بجانبي. ولم يكن في مظهر السفراء الكبار في السن فكان يبدو فى منتصف العمر، وكان يتكلم العربية بطلاقة حتى أننا لم نحتج أن نغير من ألفاظنا معه شيئاً. وكان استماعه لنا جيداً ورده متزناً، فأخبرته بأنني أحمل صكاً معتاداً (شيك) باسم الجماعة الإسلامية في أنقولا، كما أحمل صكات سياحية أريد أن أقدمها للمسلمين فى هذه البلاد غير أن المشكلة أنه لا توجد لهم جمعية رسمية مسجلة فى الحكومة يمكن أن تصلح شخصية معنوية تدفع إليها تلك النقود، ونحن نريد أن نستنير برأي السفير الجزائري شخصياً ونعرف ما إذا كانت السفارة يمكن أن تقوم بعمل شئ من أجل ايصال هذا المال إليهم كأن نعطيها الصكات السياحية أو الصك المعتاد فتصرفه السفارة رسمياً لحسابها ثم تدفع قيمته بالعملة المحلية للإخوة المسلمين من أجل انهاء بناء المسجد ومرافقه فى لواندا شرط أن يصرف في السوق الحرة لأن الفرق بين السعر الرسمي للدولار وبين سعره في السوق الحرة هو مائة ضعف كما يعلم السفير.

فأجاب: أن الأمر كما ذكرتم ولكن السفارة لا تستطيع أن تعمل شيئاً في هذا الموضوع ولا تستطيع أن تساعد المسلمين، لأن هذا العمل يعتبر تدخلاً في الشئون الداخلية لهذه البلاد، لأنه إعطاء مال لطائفة من المواطنين بدون اطلاع الحكومة، وثانياً: أنها لا تستطيع أن تصرف المال لأية جهة غير معترف بها.

وقال السفير: ثم هناك مشكلة أخرى وهو أن صرف الصكات (الشيكات) بأنواعها هو من اختصاص جهة حكومية واحدة فى هذه البلاد ولا يجوز لأية جهة أخرى غيرها أن تقوم بذلك.

ثم أعاد مرة ثانية القول بأنه ما دام المسلمون غير مسجلين فى الحكومة فإن جمعيتهم أوجماعتهم تعتبر من الناحية القانونية غير موجودة.

وقد ودعناه بعد أن شكرناه على حسن استقباله آسفين لعدم وجود أية مساعدة عنده على حل هذه المشكلة. ولكن موقفه كان أكرم من موقف الذي تهرب حتى من مقابلتنا.

والسفارة المغربية:

قصدنا مقر السفارة المغربية التي تتخذ من شقة في فندق (برزدنت ميرديان أفريكا) مقرًا لها. وتقع تلك الشقة فى الدور الثالث عشر من الفندق المذكور الذي يقع فى قلب المدينة التجاري أو الذي كان تجاريًا فاخرًا فى القديم وتحولت به الحال الآن إلا فى الغلاء فلا يزال غاليًا رغم أن الماء ينقطع عنه في كثير من الأحيان، وإذا انقطع الماء عنه لمدة طويلة توقف تكييف الهواء فيه أيضـًا.

وجدنا في مدخل السفارة مكتبًا عليه فتاة مغربية مهذبة فأخبرناها بأننا نريد مقابلة السفير وأننا من رابطة العالم الإسلامي فى مكة المكرمة. فذكرت أن السفير ليس في السفارة الآن، وأن الكاتب الأول غائب عن أنقولا ولا يوجد فى السفارة إلا المحاسب.

استقبلنا المحاسب واسمه (بشير بن الطيب) استقبالاً طيبًا فأخبرناه

بالغرض الذي جئنا من أجله للسفارة، وأنه من أجل مساعدة المسلمين بمساعدتنا على كيفية ايصال المال الذي معنا اليهم. وتبين لنا أنه كاسمه طيب، ولكنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع من قبل، بخلاف السفير الجزائري الذي تبين أنه ملم بالموضوع، وإن كان ذكر أنه لا يستطيع أن يساعد على ذلك بأي شئ.

ثم قال: إن القنصل المصري هو عارف بالموضوع ويمكن أن يساعدكم وسوف أتصل به هاتفياً الآن، فذكرنا له أننا اتصلنا به فى صباح هذا اليوم وأنه ذكر في الهاتف أنه لا يستطيع مساعدة المسلمين وأنه قطع صلته بهم منذ سنتين.

فعجبنا من أن يذكر مسلم بملئ فيه أنه قطع صلته بإخوته المسلمين ثم أخبرناه أننا نريد مقابلة مسئول فى السفارة المصرية فذكر أنه لا يوجد من المسئولين أحد وأنه هو المسئول في غيابهم، ولا يتحمل دعوة أحد إلى السفارة فطلبنا منه أن يحضر لمقابلتنا فى الفندق لبحث الموضوع فوعدنا ولكنه لم يأت.

ثم اتصل المحاسب المغربي بالقنصل المصري وقال له: عندي ناس من الرابطة العربية ... فقاطعته مصححاً كلامه : لسنا من الرابطة العربية. وإنما نحن من رابطة العالم الإسلامي فى مكة المكرمة ومعنا نقود لإخوتنا المسلمين هنا نريد من يساعدنا من السفارات العربية على إيصالها إليهم. فذكر أن القنصل أخبره أننا اتصلنا به فى هذا الصباح وأنه وعدنا بأن يأتى إلينا ولم يأت.

ثم قال الأخ المغربي : إن المصري يقول: إنه لا يمكن عمل شئ للمسلمين!

وهكذا خرجنا من هذه السفارة المغربية التى هي آخر السفارات العربية التى استطعنا الوصول إليها جزعين من حالة ممثلي الدول الإسلامية فى هذه البلاد التى دخلها الإسلام حديثاً وهناك فرصة بل فرص حقيقية كبيرة لإدخال أهلها إلى الإسلام. وقارنت حالهم هذه بحال بعض سفراء الدول النصرانية الذين يسهلون لدعاة النصرانية من بلادهم. وممن لهم علاقة بهم حتى وإن لم يكن أولئك السفراء من المؤمنين بالعقيدة النصرانية!.

مع العاملين المسلمين:

عدنا على حافلتنا تلك إلى الفندق بعد الواحدة ونحن فى غاية من الأسف والأسى، بل اليأس من هؤلاء المسئولين مدركين أن الأعذار التي ذكروها قد تكون مقبولة عند الناس، فما هو موقفهم أمام الله سبحانه وتعالى، وهم باستطاعتهم أن يقدموا لإخوانهم المسلمين هذه الخدمة بالصفة الشخصية للواحد منهم، وليس باسم سفارته ما دام أنهم سياسيون ولهم حساب بالعملة الصعبة، ولا شك أن بعض هذا الحساب يصرفونه بالسوق الحرة، لأنه لا يعقل أن يصرفوا هم أو أي عاقل الدولار بجزء من مائة جزء من قيمته الحقيقية إكراماً لأنظمة الحكومة فإنهم لم يعدموا وسيلة يوصلون بها هذا المال إلى المسلمين، ومن ذلك أن يقيدوه فى حساب لهم بالعملة الأجنبية ونحن على كوننا من الطارئين على البلاد وجدنا من يصرف لنا الدولار بهذه القيمة من دون خشية من الحكومة، لأن الناس كلهم هكذا يعملون. فإن المشكلة عندنا هي كيفية اعطائه المسلمين وهم ليست لهم جمعية رسمية معترف بها الآن وليس مشكلة كيفية صرفه.

أما السفراء فيمكنهم أن يعملوا ما كان يعمله السفير المصري السابق (محمد السّلاوي) جزاه الله خيرًا الذي كان يشتري لهم المواد اللازمة لبناء المسجد من النقود التي ترسلها له الرابطة ويقدمها إليهم بمثابة هدية وتبرع شخصي منه.

وهذا أمر لا يتعارض مع القانون ولا غبارعليه، إلا أنه يحتاج إلى وقت طويل، وإقامة في البلاد تسمح بمتابعة المشروع وذلك أمر لا يتيسر لنا كما هو ظاهر.

وتشاورنا فيما بيننا في الاتصال بالحكومة الأنقولية ومعرفة رأيها في الموضوع مع أنه من الظاهر أنها معادية للإسلام بحكم مذهب القائمين عليها الذي هو الشيوعية المعادية للأديان.

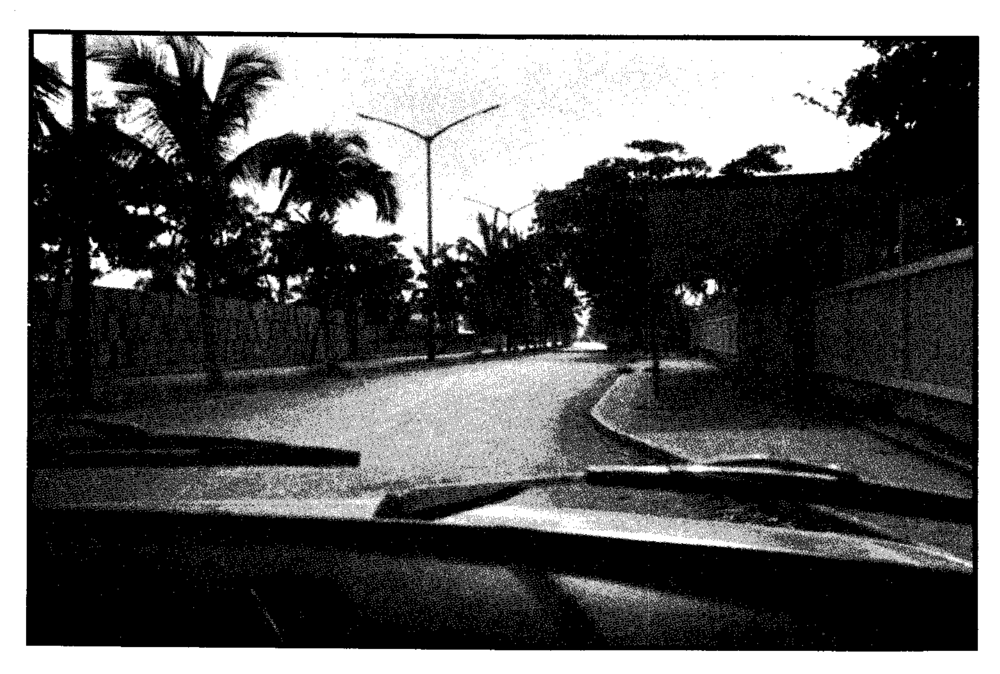
كما أن عدم تسجيل المسلمين فى جمعية إسلامية معترف بها هو عقبة أيضًا .

وتذكرنا ما نقله لنا السفير السعودي فى داكار عن سفير انقولا فى داكار الذى أعطانا سمة الدخول إلى هذه البلاد من أنه سيبرق لحكومته باستقبالنا مع أننا لم نأخذ السمة منه إلا قبل سفرنا بساعات ولو أبرق لم تصل برقيته إلى الجهات المعنية هنا إلا بعد وقت طويل لسوء الإدارة وضعف وسائل الاتصالات فيها.

وكنا حمدنا الله تعالى على أننا لم نجد من يستقبلنا من الرسميين فى المطار لأن ذلك سيقيد خطواتنا.

ثم إننا عدلنا من فكرة الإتصال بالدوائر الحكومية هنا والمقصود بها وزارة الخارجية لأننا نعرف أنهم حتى لو قبلوا ما نقول وأوصلوا النقود

للمسلمين فإنهم سيعطونهم قيمتها بالعملة المحلية وبالصرف الرسمي، وذلك يعود بقيمة مائة الدولار إلى قيمة دولار واحد وهو إهدار للمال لا تستفيد منه إلا البنوك الحكومية.



شارع في ضاحية قديمة في لواندا التقطتها من داخل السيارة

وطلبنا من الأخ أحمد جان أن يحضر هو وإمام المسجد الأخ (رمضان) ورئيس المسلمين الذي هو غير رسمي أيضاً واسمه (دو مينقو على فيلو) ذكروا أنه معتمد لدى الحكومة بمعنى أنه هو الذي يراجع الدوائر الحكومية عندما يتعلق الأمر بأحد المسلمين ويحتاج إلى ايضاح وجهة النظر الدينية الإسلامية. وإلا فهو غير رسمي وغير مسجل لدى الحكومة. وكذلك طلبنا أن يحضروا معهم محاسب المسجد.

وعزمنا على اعطائهم مجتمعين بعض الشئ للمسجد مما لا يعد مبلغاً مهماً.

تبرع رمزي:

حضر هؤلاء الإخوة في السادسة مساء عدا رئيس المسلمين الذى أسموه كذلك وهو (دو مينقو على فيلو) فإنه لم يرجع من سفره حسبما أخبرونا به. وحضر معهم محاسب المسجد الأخ (بدرو قومبو ليوناردو سليمان) وهذه أول مرة نراه . وقد أعطيناهم مبلغاً قليلاً لينفقوا منه على حاجات المسجد وهو صكات (شيكات) سياحية وتركنا باقي النقود معنا لنعود به إلى مكة المكرمة وبعضه صرفناه على بعض المشروعات الإسلامية في غينيا وشئ منه صرفناه فى (جزر الرأس الأخضر) للمساعدة على شراء أرض لأول مسجد فى تلك الجزر. كما أهديت إمام المسجد والمحاسب هدايا شخصية مني، وأعطيت الأخ أحمد جان مائة دولار أخرى مساعدة على إصلاح سيارته التي يتعيش منها. وودعونا بتبادل الدعوات. وقبل ذلك أكدنا عليهم وعلى كل من رأيناه يهتم بأمر المسلمين وهم قليل بالعمل على تسجيل جمعية إسلامية رسمية لهم.

العلاج العاجل:

والعلاج العاجل الذي رأينا أنه لا بد منه هو في أن تطلب رابطة العالم الإسلامي من أحد رؤساء الدول الإسلامية فى إفريقية مثل الرئيس عبده جوف رئيس السنغال والرئيس موسى تراوري رئيس مالي أن يكتب رسالة إلى رئيس أنقولا (جوزيه ادواردو سانتوس) ويرسلها مع مبعوث له خاص يسلمها للرئيس الأنغولي وتتضمن الرغبة فى الاعتراف بالمسلمين فى بلاده ، وتسجيل جمعيتهم الإسلامية أسوة بالأديان الأخرى ويخبره هذه البادرة إذا تمت منه فإنها تعتبر بادرة حسن نية تجاه المسلمين كلهم في إفريقية وفي خارجها.

عشاء مالي أيضا:

الدعوة إلى غداء أو عشاء فى بيت من البيوت النظيفة في (أنقولا) ليست كغيرها من الدعوات في خارجها كما تقدم. ذلك بأن المرء لا يجد فى المطاعم والفنادق الطعام الذي يريده فأحيانـا لا تجد طعامًا أصلاً وأحيانـا أخرى يكون الطعام الموجود ناقصـا وغاليا ولذلك تكون الدعوة إلى طعام فى بيت نظيف مفرحة. ومن ذلك أن رفيقي الشيخ عبد الوهاب الدكوري وهو معروف ذو أصدقاء كثر فى جميع أنحاء إفريقية كان له صديق من بلاده (مالي) يعمل في هذه البلاد اسمه الدكتور (إبراهيم ديارا) ويعمل أستاذًا في معهد اللغات العالمية فى لواندا ولكنه مبعوث من هيئة الأمم المتحدة لهذا الغرض .

وقد دعانا إلى بيته على العشاء فى هذه الليلة فحضر الى الفندق مشكورًا فى السابعة والنصف وحملنا بسيارته إلى بيته . ومن حسن حظي أنه يعرف الانكليزية فاستفدت من الحديث معه كثيرًا. وبيته شقة جيدة مفروشة بالبساط الموحد (الموكيت) ذكر أن أجرتها ٦٧٠ دولارًا أمريكيًا فى الشهر لا بد من دفعها بالعملة الصعبة، وهي فى بناء عال تملكه الحكومة. كان العشاء ماليًا - نسبة الى مالي - ولكنه فاخر فربة البيت زوجة مضيفنا هي أخت مسلمة عريقة مثل زوجها فهي من مالي، وقد أقامت فى عدة بلدان منها ليبيا، وقد تضمن العشاء أنواعًا من اللحم وأنواعًا لذيذة من السمك وأنواعًا أخرى متعددة من الأطعمة، ومنها البطاطس المطحون الا أنها اعتذرت عن عدم وجود السلطات بسبب انتشار الكوليرا في البلاد في الوقت الحاضر، وتحذير السلطات الصحية من الخضروات غير المطبوخة، وقدمت أيضـا موزًا مقليًا. وقد

استمتعت هذا المساء بحديث الأخ الدكتور (ابراهيم ديارا) وبعشائه جزاه الله خيراً.



المؤلف يقف في نافذة فندق بانوراما وجزيرة لواندا يبدو جزء منها من النافذة

يوم الثلاثاء ١٠/١١/١٤٠٩هـ

ولادة التذكرة:

تذكرة السفر التي يستطيع المرء فى الظروف المعتادة أن يحصل عليها فى وقت قصير ربما لا يتعدى دقائق معدودة فى بعض البلدان المتقدمة فى الإدارة تستغرق وقتاً طويلاً جداً فى البلدان المتأخرة فى الإدارة أو فى النظام الإداري كالبلدان الشيوعية.وفي البلدان الحرة المتقدمة إدارياً تولد التذكرة فى دقائق، وتكون ولادتها سعيدة تقترن بصداقة ظاهرة أو بمظاهر صداقة بين البائع والمشتري لا سيما إذا كان

البائع من الجنس اللطيف العطوف وقد يكسب المشتري مع التذكرة ابتسامات لها وقع السحر في نفسه إذا كان غريبًا عن البلاد وربما يكون غريب الوجه واليد واللسان.

أما في البلدان الشيوعية أو نصف الشيوعية إن صح التعبير فإن ولادة التذكرة تكون متعسرة، وأول صعوبتها أنها لا بد أن تدفع قيمتها بالعملة الأجنبية الصعبة. وهذه العملة الأجنبية الصعبة تكون لها شروط وأنظمة عند الدفع والبيع والشراء تجعلها صعبة بالفعل، وإن لم تكن صعبة على المشتري. فمثلاً نحن نحمل عملة صعبة ولا نشكو من عدم وجودها ولكننا أردنا شراء تذكرة سفر من (لواندا) إلى (برازافيل) عاصمة الكنغو. لكون الخط الذي معنا في تذاكرنا يضيع علينا وقتًا اذا أخذنا به وهو أن نسافر إلى ليبرافيل - عاصمة القابون بعد أسبوع من وصولنا إلى لواندا، وذلك يجعلنا لا ندرك الوصول إلى ما نريده بعد (ليبرافيل) لعدم وجود رحلات مناسبة هناك.

فقررنا شراء تذكرتي سفر جديدتين، وحاولنا أن ننهي ذلك يوم الجمعة فلم نستطع . وقال لنا أحد الإخوة العاملين في هيئات الأمم المتحدة هنا: إن الأمر صعب يتطلب منا جهدًا لا نستطيعه وقد أمر أحد موظفي الحكومة وهو ضابط في قوات الأمن أن يقطع التذكرتين وظل ذلك الموظف يركض في هذا الأمر . وآخر ما فعله ومعه سيارة الأمم المتحدة أن تردد بين المصرف الحكومي وبين المكتب الرئيسي لشركة طيران انقولا، لأن الشركة ليس من حقها قانونًا أن تملك عملة صعبة، وإنما عليه أن يودع المبلغ فى المصرف ثم يأتي بشهادة ايداع بذلك إلى الشركة.

وأخيراً بعد يومين من العمل الشاق عاد الموظف المختص المكلف بالتذكرتين وهو يتأفف ويتصبب عرقاً الى مكتب الأمم المتحدة ويقول: إنه قد أنجز ما يريد إنجازه.

في قلب (لواندا) ثانية:

سألنا فندق (بانوراما) عما إذا كان بإمكاننا أن نبقى أمتعتنا في الغرف ساعة أو بعض ساعة بعد الثانية عشرة ظهراً الذي هو موعد المغادرة عندهم، فأجاب بأن ذلك ممنوع، وأنه يجب علينا أن نخلى الغرف في ذلك الوقت. وعادة الفنادق في البلدان المتقدمة أن يسمحوا للنزيل بأن يبقى فى الغرفة ساعةأو حتى ساعتين إذا رأوا أنه محتاج إلى ذلك، محافظة منهم على سمعة الفندق واجتذاباً لرضاء النزلاء.

ولكن في مثل هذه البلاد الشيوعية، لا يهم الموظفين أرضي النزلاء أم سخطوا لأنهم لا يكسبون من ذلك شيئاً، وإنما هي رواتبهم التى يتسلمونها على كل حال لأنهم أجراء عند الحكومة. فدفعنا للفندق أجره ٢١٥ دولاراً أمريكياً عن ٤ ليال لكل واحد منا ، ولا يقبلون الدفع إلا بالعملة الأجنبية الصعبة كالدولار، لأنهم يعرفون أن عملتهم ليست لها قيمة حتى في بلادهم، على أنهم يقبلونها إذا كان النزيل من مواطنيهم، ولكن الذين يقوون على النزول فى الفنادق من مواطنيهم قليل، أو لا يكادون يوجدون . ولو كان الدفع منهم يتم بالعملة المحلية.

وكان الأخ (أحمد جان) قد أحضر معه سيارة استأجرها لنا فتركنا أمتعتنا الثقيلة في مستودع الفندق، وذهبنا لمكتب الأمم المتحدة لتسلم التذكرتين.

واخترقنا قلب لواندا القديمة وهو متسخ مهمل. من التناقضات فيه أن الماء في الشوارع كثير ، بل وافر لأن المجاري أكثرها قد فسدت قنواته وانسدت ، وأما في البيوت فإنه يصل نادراً، والسيارات كثيرة بسبب كثرة المهاجرين للخارج وعودتهم بسيارات من هناك. ورخص الوقود لأن (أنقولا) تنتج نفطًا كافيًا. ولكن أكثرها يحتاج إلى إصلاح وتجديد لا يستطيعه أربابها. وتسير السيارات في الشوارع إشارات ضوئية من إشارات المرور.

ومن الطريف أننا رأينا في قلب المدينة الذي كان جيدًا أعدادًا من الإفريقيات وقد حملن على رؤسهن أوعية مليئة بالماء الذي أحضرنه من صنابير بعيدة عن بيوتهن وذكرني منظرهن وبالوقاية التي يضعنها فوق رؤسهن تحت وعاء الماء المليان، ما كانت النساء عندنا يفعلنه في القديم قبل أن تدخل أنابيب المياه النقية إلى بيوتنا فقد كن يحضرن ماء الشرب إلى البيوت بهذه الطريقة ، وأما الماء الخاص للاستعمالات الأخرى كالوضوء والغسل فإنه يكون من آبار في البيوت. ومن المؤلم أنك ترى هؤلاء الإفريقيات قد حملن أوعية الماء على رؤسهن وحملن في الوقت نفسه أطفالهن على ظهورهن وتحزم المرأة طفلها فوق ظهرها برداء، أو خزقة قوية طويلة وتسير هكذا قد حملت حملاً فوق رأسها وحملاً فوق ظهرها ، وربما يكون معها حِمْل- بكسر الحاء وهو حَمْل بفتحها في بطنها. وتسير دون حذاء، وليس ذلك تأخر وإنما لصعوبة الحصول على الحذاء عليهن.

وعلى ذكر الحذاء نقول إن اللباس في لواندا سواء بالنسبة إلى الرجال

والنساء هو الأوروبي المخفف ولكنه غير نظيف وغير معتنى به وأنواعه رديئة. ولم أر لهم فى المدينة زيًا وطنيًا خالصاً.

في سفارة الكنقو:

لم يكن من هدفنا أن نزور (الكنقو) في هذه الجولة ولكننا اضطررنا إلى ذلك بسبب عدم وجود طيران مناسب من (أنقولا) إلى (غينيا كونكري) التي سنزورها زيارة رسمية وكنا أرسلنا جوازينا مع مندوب من مكتب الأمم المتحدة في (لواندا). وذهبنا ضحى هذا اليوم لتسلم الجوازين . وقد وجدنا السفارة في الطابق الرابع من مبنى ليس فيه مصعد، وقد وجدنا بعض الإفريقيات قد تضايقن من صعود الدرج، وهن يجاهدن في الوصول إلى مقر السفارة وذلك أن النساء في إفريقية وبخاصة من التكرونيات يقمن بالتجارة أكثر من الرجال ويسافرن إلى الأقطار البعيدة لهذا الغرض.

وقد تضايقنا من غرفة في السفارة كان قد اجتمع فيها طائفة من أهل البلاد وجيرانهم ممن جاهدوا مثلنا في الصعود إلى الدور الرابع ففاح من أجسادهم صنان آذى الأنوف، والأعين وأصاب الرؤس بصداع لا يمكن الشكوى منه، لأنه ليس من اللياقة أن يسد المرء أنفه وهم يرونه إذ إن ذلك يجرح مشاعرهم. وهذا من البلاء بالمصيبة أن لا تستطيع الشكوى منها. وقد أعطوني سمة دخول سياسية . وأما رفيقي الدكوري فإنهم ذكروا أنه يستطيع الحصول عليها من مطار عاصمتهم (برازافيل).

وأسرعنا إلى الفندق فوجدنا الدكتور عبد الرحمن السميط رئيس لجنة مسلمي إفريقية في الكويت ينتظرنا في الفندق ذكر أنه عرف بوجودي

هنا فجاء مشكوراً ليلتقي بي، ويبحث في بعض الأمور المتعلقة بأحوال المسلمين في هذه البلاد .

والدكتور السميط من أنجح العاملين في إفريقية من الإخوة العرب مسعى، وأخبرني أنه قدم هنا ومعه بعض العاملين في اللجنة ليبقوا هنا تسعة أيام للبحث مع الحكومة الأنقولية في فتح مدرسة مهنية ودارللأيتام تنفق عليها اللجنة.

ولكن الله سلّم.

خرجنا إلى المطار وأنا مشفق من أن يساء فهم الغرض الذي من أجله حملت نقوداً كثيرة من العملة الصعبة، وهي نقود لم نعلن عن دخولنا بها عند القدوم إلى انقولا، وذلك لكونهم لم يطلبوا مني ذلك، بل أفسحوا الطريق لنا من بين الركاب لكوني أحمل جواز سفر (دبلوماسياً).

وخشيت أن يكتشفوها الآن فيحدث لبس أو سوء فهم في بلاد لا توجد فيها إدارة حديثة، بل أنه لا توجد فى بعض جهاتها إدارة حكومية أصلاً. وبخاصة أن الأمر يتعلق بعملة أجنبية صعبة يعتبر مجرد استملاكها أمراً عظيماً.

وعندما وصلنا المطار وجدناهم يشددون في تفتيش المغادرين، فلا يقتصر ذلك على حقائب اليد أو حقائب الأمتعة وإنما يفتشون أبدانهم وجيوبهم. ولكنهم عندما رأوا جوازي (دبلوماسياً) وكذلك جواز رفيقي الشيخ عبد الوهاب الدكوري هو (دبلوماسي) أفسحوا لنا الطريق باحترام وتركونا نمر من دون تفتيش.

ولم يقتصر أمر احترامهم عل عدم تفتيشي، وإنما تركونا نمر أيضاً

من التفتيش الذي يقوم به رجال الأمن فيفتشون المسافرين تفتيشاً دقيقاً حذرًا من أن تكون معهم أسلحة يختطفون بها الطائرة في هذه البلاد المضطربة.

وتنفست الصعداء وحمدت الله تعالى على السلامة من سوء فهم أو مشكلة قد تؤخر سفرنا وبعد الانتهاء من مكاتب الجوازات والجمارك والأمن والكل ينظر في الجواز، وجدنا ضباطًا ينظرون في الجوازات ويطلبون من المسافرين الصعود إلى قاعة في الطابق الثاني وهي قاعة المغادرة ولكن على الذين فيها أن ينزلوا منها للمغادرة. وفي هذه القاعة مقصف لا يقبل عملتهم ولا حتى عملة غرب إفريقية المعروفة بسيفا والمهم أنهم لا يردون عليك ما يتبقى لك من النقود بعملة صعبة وإنما بعملة محلية لا تساوي إلا ١٪ من قيمتها في بلادهم ولا تساوي خارجها شيئاً.

وقد بقينا في قاعة المغادرة فترة نادوا في نهايتها على ركاب طائرتنا فنزلنا من القاعة وعند أسفلها ضباط ينظرون إلى جوازات المسافرين للمرة الخامسة، إلا أنهم عندما يرون ظاهر جوازي ويسمعونني أقول: (دبلوما تيكو) يتركونني أمر من دون أن ينظروا في داخل الجواز.

وعند الخروج للطائرة ترددت الحافلة التي رأيناها عند القدوم على الركاب تأخذ بعضهم وتنزلهم عند الطائرة ثم تعود لتأخذ غيرهم وهكذا.

وقد أوقفونا جميعًا عند باب الطائرة حتى اكتمل جمع المسافرين وكنا في الشمس وكان الجو صاحيًا إلا أن الهواء بارد منعش. ثم أدخلونا إلى الطائرة فرقة فرقة.

وعندما صعدت سلم الطائرة وجدته قذرًا لم يلق العناية وهو يهتز

بالركاب ويقرقع خشيت أن يكون عنواناً على الطائرة ولكننا وجدناها من طراز بوينغ ٧٣٧ وقد امتلأت بالركاب ولم يكن فيها أحد من غير الإفريقيين السود غيري، لأن البلاد ليس فيها أموال ولا أعمال ولا أمان يغري بالسفر اليها، وهي تابعة لطيران أنقولا (ليناس ايراس انقولا) فليناس معناها بالبرتغالية: خطوط وايراس:جواء. وشعارها رأس الوعل المشهور عندهم. وتحركت الطائرة مع مدرج من مدارج واسعة في المطار وكانت كذلك قبل الاستقلال عندما كان البرتغاليون يحكمونها، وكانت مدينة مزدهرة اقتصادياً وإن يكن المتمتعون بازدهارها الاقتصادي من أهلها قليلاً. ورأيت الأعشاب الهامدة بجانب المدارج لأن هذا الوقت ليس وقت أمطار .

مغادرة أنقولا:

قامت الطائرة في الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين ظهراً وأعلن مكبر الصوت فيها أن الطيران إلى مدينة (برازافيل) سيستغرق خمسين دقيقة. وارتفعت الطائرة مسرعة وظهرت جزر في البحر غيربعيدة من الشاطئ الذى هو شاطئ المحيط الأطلسي وكلها ذات مظهر نصف صحراوي بمعنى أنها غير خضراء وقد ظلت الطائرة تماشى شاطئ البحر فترة أو على الأصح تباري شاطئ البحر لأنها كانت تطير وليست تمشي بطبيعة الحال. وعندما كانت تغيب عن شاطئ أنقولا أو هو يغيب عنها كنت أنظر الى جهتها وأقول:

وداعا يا أنقولا!

فرغم المصاعب الهائلة التي تواجهها هذه البلاد من حرب أهلية طاحنة ومن نظام شيوعي أعمى ومن فقدان للإدارة الصحيحة ومن ترد

للأوضاع الاقتصادية فإننا لم نواجه أية مشكلة فيها يصعب حلها ووجدنا المسئولين فيها وعامة الشعب على غاية من حسن المعاملة معنا، وعدم إرادة الشر للأجانب الذين يحلون في بلادهم وأغلب المصاعب التي قابلناها هم يشكون منها لأنهم يقاسونها أكثر من غيرهم من الأجانب.

انحرفت الطائرة جهة اليمين داخلة فى جواء القارة الإفريقية وقد بدأ داخل القارة هذا أكثر خصباً من سواحل أنقولا.

أما المضيفات فإنهن ثلاث اثنتان من المختلطين أي المهجنين الذين في دمائهم شئ من الدماء الأوروبية والإفريقية وثالثة سوداء خالصة وليس معهن مضيف واحد. وأما إعلان الطائرة فإنه كان بالبرتغالية لغة أنقولا مالكة الطائرة بعدها الفرنسية لغة البلد الذي تتجه إليه الطائرة وهو الكنقو الذي كان مستعمرة فرنسية، ولا لغة غيرهما، وقدمت المضيفات الغداء وهو صحن واحد فيه أرز ولحم، ومعه خبزة دون زبد أو غيره ثم كأس من عصير الفاكهة.

فوق الكنقو:

والمراد بذلك نهر الكنقو الذي يفصل بين زايير وجمهورية الكنقو. فقد رأيناه عندما تدنت الطائرة وقبل أن تصل إلى أرض الكنقو نهراً واسعاً ذا جزر رملية حمراء وجزر أخرى مرتفعة خضراء. وتصب فيه روافد له عديدة أشبه بالأنهار الصغيرة. وعلى ضفافه فيما بعد منها غابات كثيفة، مما جعل الخصب وكثافة الخضرة هي السائدة وأغلب هذه الخضرة إنما هي خضرة الغابات والأشجار الملتفة وأما الحقول المزروعة فيها فإنها موجودة، ولكنها قليلة. وعلى أية حال فإنه لا توجد

بقعة واحدة فى المنطقة لم تشملها الخضرة وهذا أمر لافت للنظر بعد أراضي أنقولا التي تبدو من الطائرة وكأنها شبيهة بالصحراوية بخاصة في هذا الفصل الجاف من السنة.

ثم بدت مدينة (برازافيل) على ضفاف نهر الكنقو الشمالية تحيط بها ضواح فيها المنازل الشعبية التي أهم ما يميزها أن شوارعها ليست مستقيمة، بل أنه ليست فيها شوارع مستقيمة معتادة وإنما هي أزقة متعرجة غير مزفلتة ما عدا الشوارع الرئيسية التي تكون عادة قليلة العدد في الضواحي. وتنعكس أشعة الشمس على سقوف المنازل التي هي من الصفيح الأبيض.

في مطار مياميا:

وهذا اسمه، والا فهو مطار برازافيل عاصمة الكنقو. هبطت طائرتنا فيه في الرابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد طيران من (لواندا) استمر ساعة كاملة، وليس خمسين دقيقة كما كانوا أعلنوه من مكبر الطائرة. والمطار صغير، وكنت هبطت فيه منذ سنين فى الليل، فلم أتبين سعته، وقد رأيته اليوم صغيراً إلا أنه ذو مدارج طويلة من أجل أن تتمكن الطائرات النفاثة من الهبوط فيه. دخلنا مبنى المطار الصغير مع الداخلين فوجدنا ضابط الجوازات مقطب الأسارير لا يكف عن إصدار الأوامر للقادمين يأمرهم وينهاهم ولا أدري ماذا يعني، ولكن عمله هذا غير معتاد. وليس في الركاب من هو غير أسود . حسب اصطلاحهم إلا أنا. وعندما وصلني الدور أنا ورفيقي الشيخ عبد الوهاب الدكوري ولم تكن معه سمة دخول أسرع الضابط مشكوراً بانهاء ذلك كله بسرعة ومثله ضابط الجمرك الذي لم يفتشنا للجواز السياسي.

في مدينة برازافيل:

لن أطيل القول فى هذه المدينة وما شاهدته فيها لأنني قد كتبت قبل هذا فصلاً عنها فى كتاب .«بقية البقية الحديث من إفريقية». وإنما أذكرهنا قصة مرورنا بها. ركبنا سيارة أجرة من المطار قاصدين المدينة وسلاحي في التفاهم هو الفرنسية على لسان رفيقي في الرحلة السفير عبد الوهاب الدكوري فهو يعرف الفرنسية جيداً. وسرنا من المطار إلى المدينة مع شارع طويل أخضر ينطق بالعناية بخلاف شوارع لواندا التي قدمنا منها التي هى مهملة خالية من العناية حتى يخيل لمن يراها أن ذلك أمر مقصود.

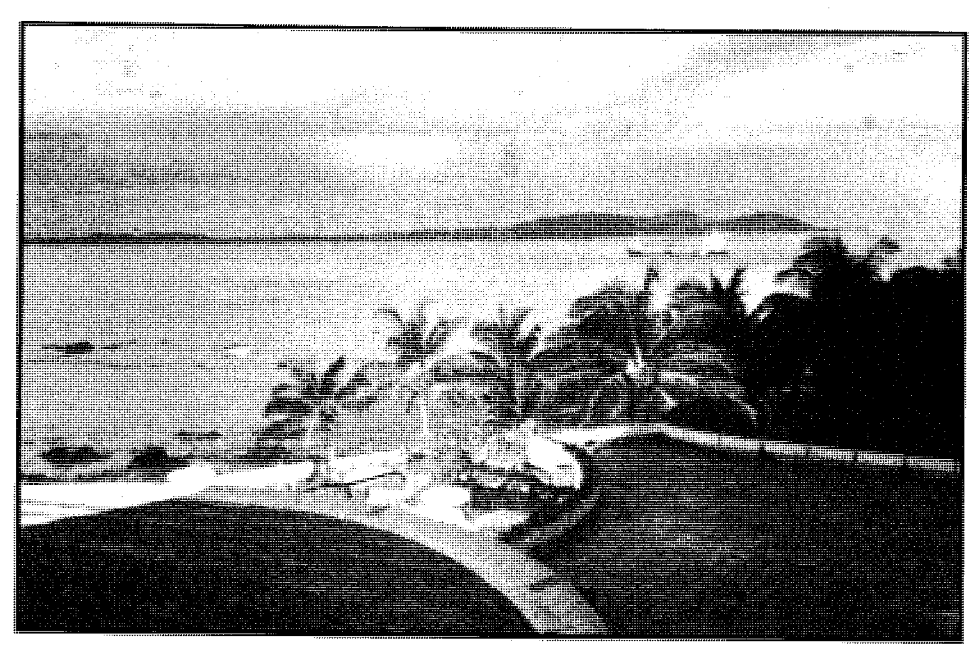
وكذلك الفرق فى التشجير والخضرة في المدينة فهي هنا شاملة وأشجارها باسقة ظليلة، وقصدنا مكتب شركة الطيران الإفريقية (ايرافريك) قبل أن نذهب إلى الفندق اغتناماً للوقت ونحن نريد السفر من برازافيل إلى ابيجان عاصمة ساحل العاج، فأخبرنا المسئول في المكتب أنه ليست لديهم رحلات ملائمة من برازافيل إلى ساحل العاج . فطلبنا منهم أن يغيروا تذاكرنا التي هي دولية صادرة من الخطوط السعودية في جدة، وكنا وضعنا عليها فى داكار ورقة الحجز الصغيرة من لواندا إلى ليبرافيل فاعتذروا عن تغييرها بحجة وجود ورقة الحجز الصغيرة هذه وذكروا أمراً غير مقبول وهو أن مكتب (ايرافريك) فى داكار قد أغلقها فصارت لا يجوز تغييرها مع أنها في الأصل مفتوحة ولا تزال كتابة الخطوط السعودية عليها بأنها مفتوحة واضحة ظاهرة.

وسألنا عن رحلة مناسبة من هنا إلى ساحل العاج فأخبرونا أن الخطوط الأثيوبية هي التي تسافر غداً إلى هناك، فذهبنا إليها على أمل

شراء تذكرة جديدة منها فأخبرنا الموظف المسئول فيها أن الشركة لا يجوز لها أن تبيع تذاكرها فى هذه المدينة. قال: عليكم أن تشتروا تذكرة من ايرافريك ثم تحولها الشركة إلينا وتأذن لنا باركابكم من هنا!

وكان الموعد مناسبًا اذ تُغادر الطائرة الأثيوبية (برازافيل) إلى ابيجان غدًا في الرابعة عصراً.

ونزلنا فى فندق كنا نزلنا فيه قبل سنوات اسمه (أم بامو بالاس) وهو من الدرجة الأولى من ذوات النجوم الخمس أجرته في الليلة الواحدة ٢٧ ألف فرنك إفريقي غربي ويساوي ذلك ٩٧ دولارًا أمريكيًا بعد التخفيض من أجل الجواز السياسي.



نهر الكنغو من نافذة الفندق في برازافيل ويرى ساحل زابير على الضفة الأخرى

وتقع غـرفتي فيـه في الطابق السـادس وتطل على نهر الكنقـو العظيم لأن الفندق واقع على ضفته مباشرة وترى منها بوضوح جمهورية زايير ومدينة كنشـاسا عـاصمتـها ومعـروف أن زايير كان اسـمهـا فى السابق الكنقـو الـبلجـيكي عندمـا كـانت تحت الاسـتـعـمـار البلجـيكي وكـانت عاصمـتها تسمى (ليـوبولد فيل) أي مدينة ليـوبولد وهو ملك البلجيك. ثم صار اسمه بعد الاستقلال (كنقو ليـوبولد فيل) ثم غير اسم عاصمته إلى كنشـاسا واسم دولتـه الى زايير وقـيل لي : إن زاييـر اسم الأسد في لغـة بعض القبائل التى تسكن البلاد.

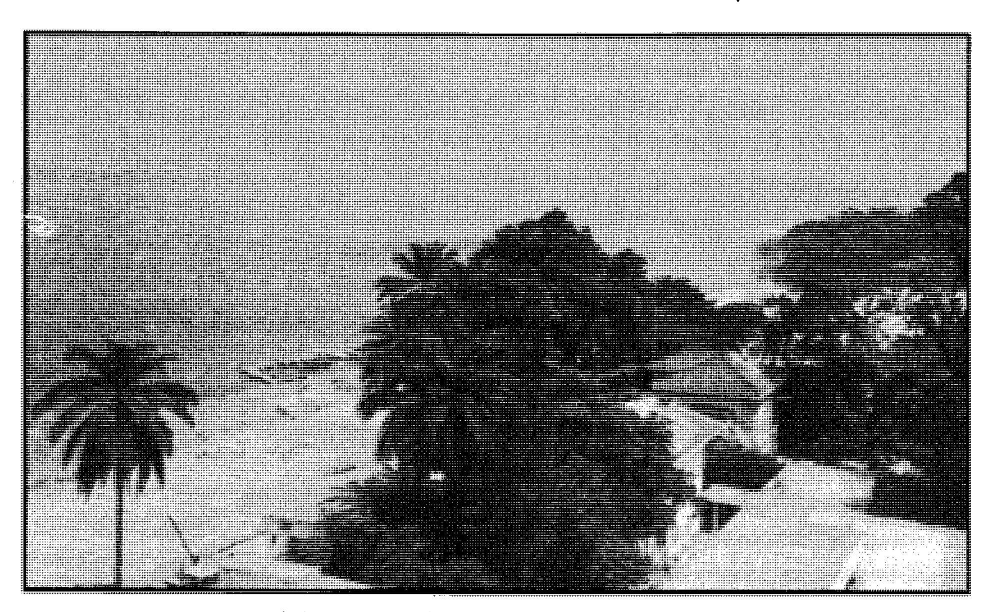
يوم الأربعاء١١/١١/١٤٠٩هـ -١٤/٦/١٩٨٩م .

صباح كنقوي:

ويمكن أن نقـول كـمـا يقـول الفرنـسيـون عندمـا ينسـبـون إلى الكنقـو (الكنقـولي) كانـت لي إطلالة قبل شـروق الشـمس على نهـر الكنقو ومـا حوله وهو يسبح فى غـلائل من الضباب وبخار الماء ومـا شبهت منظره إلا بمنظر الأنهار في أوروبا، وقد حجب الضـبـاب والندى مدينة كنشاسا فصرت لا أستطيع رؤيتهـا، ولم أستطع ذلك إلا بعد أن ارتفعت الشمس كثيراً .

وسـاءلت نفسي: لماذا لم يتـقـدم هؤلاء؟ والسؤال هو: لماذا لا يأخـذون بما يستطيعون الأخذ به من أسباب التقدم؟ وتبادر إلى ذهني فارق اللون ما بين الأوروبيين والأفـريقيين وقلت في نفـسي: إن اللون لا اعتـبار له، لأن اللون الأسمر كان هو السيد القـائد للقافلة المدنية الإنسانية في القديم ولا يزال اللون الأصفر يزاحم اللون الأبيض في سـباق العلوم والمعارف فيسبقه أو يكاد، ولا شك في أن اللون ليس له اعتبار فى هذا الأمر، وإنما

ارتبطت في أذهان الناس بعض الألوان بالتأخر والجهل، بسبب الظروف التى أحاطت بأهلها والجهل الذي أطيق عليهم، وهم إن أخذوا بأسباب المدنية والرقي وكانت لديهم وسائل ذلك فإنهم بالغوه بلا شك، على أنه ينبغي أن نتذكر هنا أن أسباب اختلاف ألوان الناس هو في الأصل موقع بلادهم الجغرافي بالنسبة الى قربه أو بعده من خط الاستواء، وإلا فإن أصل البشرية واحد ذو لون واحد فما هو اللون الأصلى للبشرية؟ إذا أخذنا أقوال المتقدمين بأن كلمة (آدم) مشتقة من الأدمة وهي السمرة الشديدة حكمنا بأن اللون الأصيل لأصل البشرية إنما هو السمرة، ولكننا لن نأخذ بذلك بسرعة، لأننا لانزعم أن كلمة (آدم) مشتقة من الآدمة في عهد أبينا آدم نفسه، إلا إذا كانت هكذا في أصل الوضع في اللغة التى كان يتكلم بها آدم عليه السلام وبنوه وترجم الاسم بعد ذلك إلى اللغات السامية ومنها العربية إلى آدم المشتق من الأدمة، والله أعلم.



نهر الكنقو في الصباح من نافذة الفندق في برازافيل

عودة إلى مشكلة التذكرة:

وهكذا كانت التذكرة مشكلة كبيرة فى أنقولا ومشكلة هنا في الكنقو. وقد ذهبنا مبكرين إلى شركة الخطوط الإفريقية فوجدنا فيها موظفاً أسود سمح الوجه سريع العمل فاشترينا منه تذكرة إلى إبيجان من برازافيل بـ ٢٤٧ دولاراً أمريكياً، وذهب بعد ذلك إلى مدير مكتب الشركة، فسمح بأن تنقلنا الشركة الأثيوبية وكتب معنا مذكرة رسمية، وحملنا بسيارته إلى مديرية الطيران المدني العامة من أجل أن تأذن بذلك وأن تكتب بالإذن مذكرة رسمية إلى شركة الطيران الأثيوبية.

وقد أبطأوا علينا في كتابة المذكرة ونحن على وجل من ألا نستطيع اللحاق بالطائرة الأثيوبية وقال الموظف عندما استعجلناه: الناس سكرى وأنتم لستم كذلك وتريدون أن يكون الناس مثلكم.

ثم حملنا موظف (ايرافريك) بسيارته إلى الشركة الأثيوبية حيث سلمها المذكرة الرسمية المطلوبة من الطيران المدني التي تتضمن الإذن باركابنا معها هذا اليوم. وقد أعطينا موظف الشركة الإفريقية خمسة عشر ألف فرنك إفريقي غربي (سيفا) مقابل حملنا معه بسيارته وسعيه في انهاء هذا الموضوع. وكنا هاتفنا الفندق عندما عرفنا أننا سنتأخر وأخبرناه بأننا قد نحتاج إلى التأخر أكثر من موعد المغادرة وهو الثانية عشرة فقال: إنه يمكنكم أن تبقوا حتى الثانية ثم أسرعنا إليه ننقده أجرته ونحمل أمتعتنا إلى المطار.

مغادرة الكنقو:

وفتحوا لنا غرفة كبار الزوار في المطار وهي صغيرة إلا أنها نظيفة

مكيفة وكفانا شرطي هناك ما يتعلق بالجوازات فمنحناه ما انتظره من حلوان (بقشيش) وقد تأخر وصول الطائرة الأثيوبية إلى الساعة الخامسة ذكروا أن تأخرها كان في مطار (أديس ابابا) .

ثم غادرنا برازفيل قاصدين (ابيجان) ولكن الطائرة ستنزل قبل ذلك في اكرا عاصمة غانا.

وكان قيامها في السادسة بتوقيت برازافيل وليس في الخامسة كما كانوا أخبرونا . وسيستغرق الطيران من برازافيل إلى (اكرا) ساعتين ونصفاً اذْ هبطنا في مطارها في التاسعة والنصف بتوقيت غانا الذي يتأخر ساعة واحدة عن توقيت الكنقو.

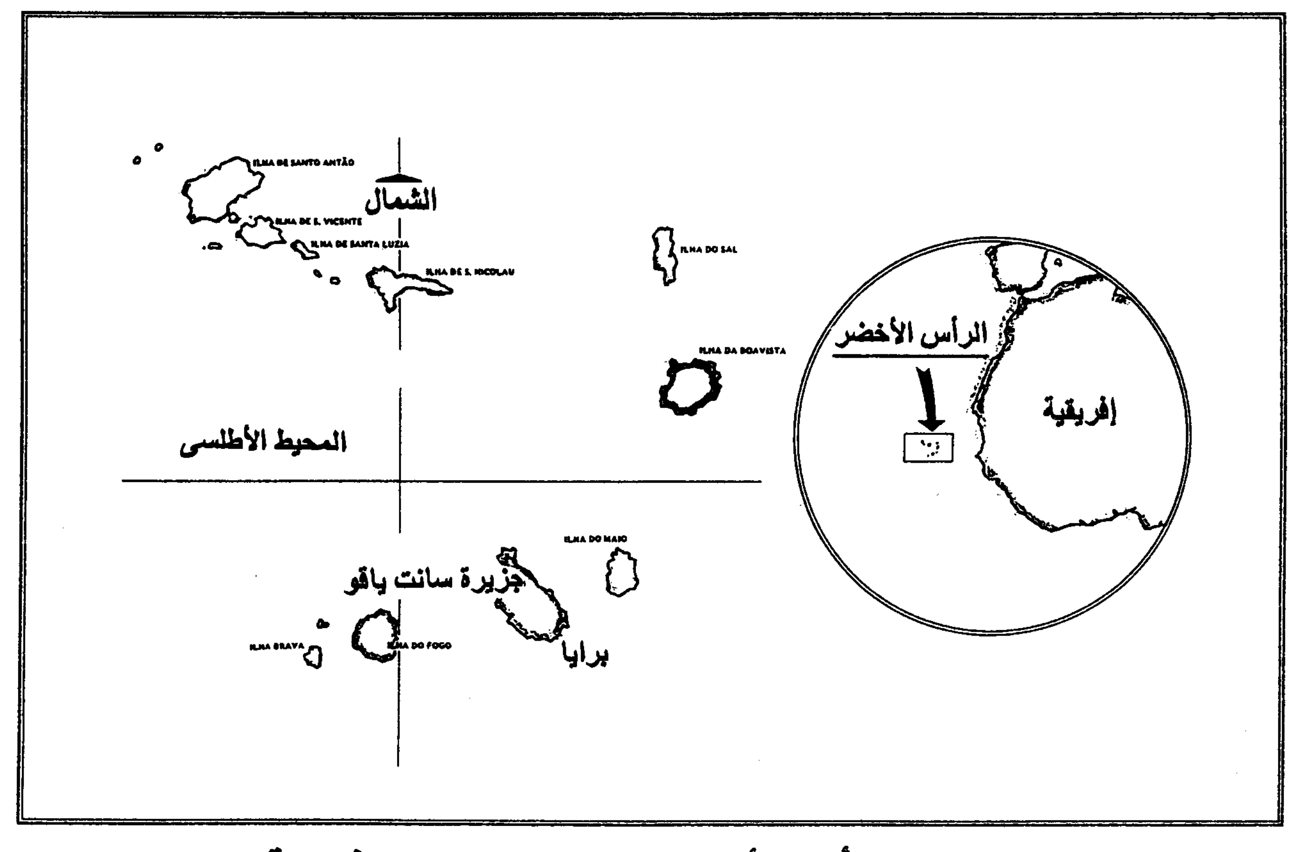
والطائرة الأثيوبية هي من طراز بوينغ ٧٣٧ وكانت أكثر مقاعدها خالية من الركاب وكانت الأنوار في مطار (اكرا) خافتة بل أن قسماً من مبنى المطار كان مظلماً، وكذلك الحال في أنوار المدينة التي رأيناها من الطائرة فكانت خافتة ضعيفة. وقد نزلنا نحن إلى غرفة العابرين كما نزل كثير من الركاب ولم يركب غيرهم لأنه لا يجوز للأثيوبية أن تنقل ركاباً منها إلى ابيجان مثلما أنه لا يجوز لها أن تنقل الركاب من برازافيل إلى (اكرا).

ثم غادرت الطائرة مطارأكرا في العاشرة والربع وقضت في الجو ساعة إلا ربعاً وصلت بعد ذلك إلى مطار ابيجان عاصمة ساحل العاج.

وللحديث عن ذلك تتمة مذكورة في كتاب :«بين غينيا بيساو وغينيا كونكري». نسأل الله تعالى أن يصلح أمرك وأمري.



القسم الثاني:
جزر الرأس الأخضر



تقع جزر الرأس الأخضر غربا عن القارة الإفريقية

مقدمة:

جزر الرأس الأخضر تعرف رسميًا بهذا الاسم فاسمها بالبرتغالية اللغة الرسمية لها (كابو فيردي) لأنها هي لغة المستعمرين لهذه الجزر. وبالفرنسية لغة المستعمرات الفرنسية القريبة منها كالسنغال وغينيا ومالي وحتى موريتانيا (كب فيرد) لأنهم صاروا يختصرون اسمها بكل الألفاظ على (الرأس الأخضر) فقط. وهذا ما نترجمه الى العربية عند الاختصار باسم (الرأس الأخضر) وهو الشائع، وإن شئنا الحذلقة قلنا (الرأس الخضراء) لأن الرأس تذكر وتؤنث والتأنيث أشهر.

ليس رأسا وليس أخضر:

ولكننا إذا تركنا التسمية ولن نتركها إلا إلى حين ورجعنا إلى المعنى نجد أن الرأس الأخضر ليس رأسًا وليس أخضر. فهو ليس رأسًا من الرؤس الأرضية الداخلة فى البحر وإنما هو جزر تبعد عن أقرب يابسة من القارة الافريقية القريبة التى تتصل بها وهي منطقة داكار في السنغال بحوالي ٦٠٠ كيلو متر. وهو ليس أخضر لأنه منطقة صحراوية جافة وسط مياه المحيط الأطلسي وقبالة بلاد أفريقية معظمها أخضر.

وتسأل بعد ذلك عن سبب تسميته بهذا الاسم الذي يناقض حقيقته والجواب ربما لمحته من خلال الجملة الأخيرة قبل هذه وهي كونه قبالة ساحل إفريقي معظمه أخضر. فمنشأ التسمية وهي تسمية استعمارية برتغالية أن البرتغاليين كانوا عند مسيرهم إلى إفريقية الغربية يظلون مدة طويلة يسيرون تجاه ساحل صحراوي في جنوب المغرب وغرب (موريتانيا) فكانوا يحسون بقلة الخضرة والنبات في تلك المناطق

إلى أن يقتربوا من منطقة داكار في السنغال فيبدأ بالاخضرار لذلك سموا منطقة داكار وهي رأس من الأرض داخل في البحر بالرأس الأخضر. وذلك قبل أن يكتشفوا هذه الجزر التي كانت مختفية وراء مياه المحيط. وعند اكتشافها لم يكن لها اسم يعرفونه، ولم تكن مسكونة فأسموها جزر الرأس الأخضر بمعنى الجزر التى تقابل الرأس الإفريقي الأخضر الواقع فى منطقة داكار السنغالية. ثم حذفوا كلمة (جزر) -جمع جزيرة- من اسمها اختصاراً إلا حيث يستدعى الأمر التعريف بذكر اسمها الكامل رسمياً. وسوف يأتي فى أثناء الكلام فيها بيان ذلك مفصلاً إن شاء الله. لن أذكر هنا ما اعتددت على ذكره من أحوال البلاد التى نكون على وشك الوصول اليها لأننا ذكرنا ذلك، أو بعضه من خلال الحديث عنها في اليوميات داخل الكتاب، وبخاصة ما يتعلق بالإسلام والمسلمين ولكننا نذكر هنا بغاية الاختصار نقاطاً معتادة مما يكاد يعرفه الجميع.

جزر الرأس الأخضر، هي مجموعة من الجزر يبلغ عدد الجزر الكبيرة فيها أي التي تستحق الذكر (١٥) جزيرة. والجزر الرئيسية فيها هي (سانت ياقو) التي فيها العاصمة (برايا) (سانت فيسانت) و (سانتا لويزا) و (سانت نيكولو) و (سالي) و (فونو) و (برافامايو). ويلاحظ أن أكثر أسماء هذه الجزر هي أسماء دينية نصرانية، وذلك أن البرتغاليين كانوا قد وصلوا إليها في عصور التدين بل التعصب للمسيحية عندهم، بعد أن قضى على الحكم الإسلامي في الأندلس التي كانت بلاد البرتغال تعتبر جزءاً منها. وقدكانت هذه الجزر مستعمرة برتغالية منذ عام ١٤٦٢م إلى أن نالت استقلالها فى عام ١٩٧٥م.

موقعها: تقع في المحيط الأطلسي على بعد (٥٥٠) كيلو متر تقريباً من داكار عاصمة السنغال جهة الغرب، والمراد بذلك عاصمتها (برايا) التي هي ميناء على البحر كما يفهم عن كلمة (برايا)في البرتغالية التي تعني شاطئ البحر. وكانت محطة مهمة للسفن البرتغالية التى تكون قادمة من بلاد البرتغال في أوروبا أو ذاهبة إليها. وتبلغ مساحة أراضيها ٤٠٣٣ كيلو متر مربع.

السكان: يبلغ مجموع سكان جزر الرأس الأخضر في الوقت الحاضر ٣٦٤,٢٠٧ نسمة أغلبهم من الخلاسيين أي المختلطين ما بين البيض والسود، ولكن اللون الأسود تكون له الغلبة فى الأكثر على الألوان الأخرى في الوراثة، لأنه أقوى منها، لذلك بقيت أغلب سمات اللون الأسود ظاهرة فيهم حتى في المختلطين. وتوجد نسبة بينهم من ذوي اللون الأسود الخالص، فيهم بعض المهاجرين الإفريقيين حديثاً من (غينيا بيساو) التى كانت تشترك مع الرأس الأخضر فى وقوعها تحت الإدارة البرتغالية الاستعمارية. وعاصمتها (برايا) ويبلغ عدد سكانها (٥٠) ألف نسمة. والحكم فيها: جمهوري برئاسة الرئيس (اريستيد بيريرا) وهو أول رئيس لجمهوريتها، والرئيس الحالي هو (انطونيو ما سكار نهاس مونتيرو).

الناتج القومي الإجمالي ٢٦٣ مليون دولار فى العام حسب عام ١٩٨٨م ومستوى الدخل السنوي للفرد ٤٢١ دولاراً، وتبلغ ديونها الخارجية ١٥١ مليون دولار. وأهم الموارد المالية للبلاد تأتي من الملح وصيد الأسماك والسياحة.

وتدين الأغلبية الساحقة من سكان البلاد بالمسيحية اذ يعتنقها حوالي

٩٧٪ من السكان، وهناك قلة من الوثنيين وعدد محدود من المسلمين كما سيأتي . وعملتها الوطنية: سكودو. ولغتها الرسمية: البرتغالية ولكنها ليست لغة نقية وإنما هي مختلطة بلغة الكريو التى هي لغة مختلطة ما بين البرتغالية ولغات إفريقية محلية.

يوم الثلاثاء ١٧/١١/١٤٠٩هـ - ٢٠/٦/١٩٨٩م.

من السنغال إلى جزر الرأس الأخضر.

برحت فندقي في داكار وهو (نوفوتيل) إلى مطار داكار فوقفت بنا سيارة الرابطة وهي سيارة عليها لوحة سياسية عند باب غرفة كبار الزوار مما يلي ساحة وقوف الطائرات، وهم لا يسمحون بدخول السيارات بل والأفراد إلى تلك المنطقة إلا ما كان ذا صفة سياسية (دبلوماسية).

وجلسنا في قاعة كبار الزوار المعروفة بصالون الشرف في المطار. وهو جلوس تكرر أكثر من مرة خلال هذه الرحلة في غرب إفريقية لأننا كنا نمر بمطار داكار في كل مرة نذهب فيها إلى قطر جديد لعدم وجود طيران منتظم فيما بين الأقطار الإفريقية الغربية. ومن ذلك أن آخر جزء من جولتنا فى غرب إفريقية هذه كان في (كونكري) عاصمة غينيا ولا توجد رحلة مباشرة منها إلى جزر الرأس الأخضر بل لا بد من المرور بقطر إفريقي آخر مثل داكار.

وغرفة كبار الزوار فى مطار داكار هي قاعة واسعة مؤلفة من عدة أركان كل ركن مفصول عن الآخر بحاجز لا يمنع الرؤية، وهي جيدة التأثيث مكيفة الهواء، نظيفة مريحة.

والأهم من ذلك أن الذين يعملون فى خدمة الركاب الذين يكونون فيها رأيت عملهم جيدًا متقنًا لا سيما لمن يعرفونهم بأنهم لا ينسون من يعمل في قضاء حوائجهم، لأن الحلوان (البقشيش) شائع هنا أكثر من شيوعه في القارات الأخرى.

وقل أن جلست في هذه القاعة الا وعرفت رجالاً بارزين من أهل غرب إفريقية وذلك لكون رفيقي السفير الدكوري رجلاً معروفاً في غرب إفريقية كله وله أصدقاء من كبار الموظفين من وزراء وزعماء وغيرهم. وفي هذه المرة التقينا وفداً من مالي جاء إلى السنغال ليبحث مع الحكومة السنغالية أموراً تتعلق بالسد الذي يجري العمل على إقامته على نهر السنغال وتشترك فيه مالي والسنغال وموريتانيا وما يخشى من النزاع الحالي بين موريتانيا والسنغال أن يؤثر عليه. وهو برئاسة وزير الدفاع في مالي، ومعه ثلاثة أشخاص، وقد عرفنا أن أهم ما جاء من أجله هو العمل على ابعاد هذا المشروع المشترك المهم عن تأثير الخلافات السياسية بين الأعضاء المشتركين فيه. كما اجتمعنا فيه بالأخ (ساجو سيسي) مدير المراسم في وزارة الخارجية السنغالية ، وهو يعرف العربية جيداً، لأنه متخرج من القاهرة وهو عضو نشط في جمعية الفلاح وهي الجمعية الإسلامية القوية التي تنحى منحى سلفياً في السنغال.

ومما تجدر ملاحظته أن (ساجو) في اسمه مصطلح لأهل غرب إفريقية يعني الابن الذي ولد بعد التوئمين فإذا ولد لأحدهم توأم من الولد فإن الولد الذي يأتي له بعده هو ساجو سواء أكان ذكراً أم أنثى، ولذلك يطلق لفظ (ساجو) في اسم الذكر والأنثى الذي يكون على تلك الصفة.

من داكار إلى برايا:

و(برايا) وتعني الشاطئ باللغة البرتغالية هي المدينة الرئيسية في الجزيرة الكبيرة التي نقصدها وهي جزيرة سانت ياقو من جزر الرأس الأخضر وفيها المطار المحلي لمن يقدمون على طائرات صغيرة من جزر

البلاد الأخرى المتباعدة أو من البلدان الافريقية المجاورة مثل داكار وبانجول عاصمة غامبيا.

غادرت الطائرة مطار داكار في الساعة الواحدة إلا عشر دقائق ظهراً متأخرة عن موعدها المحدد في الأصل عشر دقائق، وهذا لا يعد تأخيراً في عرف شركات الطيران حتى ربع الساعة لا يعد كذلك ولا تعتذر الطائرات عن تأخير القيام إذا كان في ذلك المقدار. وهي طائرة مروحية ذات محركين لستة وخمسين راكباً وقد امتلأت كلها بالركاب. وقد أعلنوا أن المسافة ستكون ساعتين من الطيران وذلك لكون الطائرة مروحية كما قدمت وإلا فإن المسافة لا تزيد على ٥٥٠ كيلو متراً. ومع ذلك كانت قيمة التذكرة غالية جداً، فقد كنت اضطررت إلى تغيير تذكرتي السعودية خلال هذه الرحلة الإفريقية بسبب ضعف الشركات فيها والتعقيد الإداري في بعضها واشتريت من داكار تذكرة إلى (برايا) ذهاباً وإياباً فكانت قيمة ذلك (٣٨٠) دولاراً أمريكياً في الدرجة السياحية لأن الطائرة كلها تعتبر درجة سياحية وليس فيها أولى. ولو قسنا ذلك بمستوى الأسعار في بلادنا لكان الفرق شاسعاً إذ قيمة التذكرة من الرياض إلى جدة ذهاباً وإياباً ٤٨٠ ريالاً أي مائة وسبعة وعشرين دولاراً مع أن المسافة بين جدة والرياض أبعد من المسافة بين داكار وبرايا بزيادة النصف.

فإذا حسبنا الفرق المتمثل في نوع الطائرات وتنجيدها والضيافة والخدمة زاد الفرق بينهما واتسعت الهوة.

وركاب الطائرة أكثرهم من مواطني جزر الرأس الأخضر ولذلك كانوا عنواناً على تلك البلاد قرأناه قبل الوصول إليها. وخلاصته أنهم شعب إفريقي قد اختلط بألوان غير سوداء فأثرت فيه تأثيراً محدوداً لأن

اللون الأسـود أقـوى فـي الوراثة من اللـون الأبيض. والطائـرة تابعـة لخطوط السنغال الجوية المحلية ويسمونها (اير سنغال).

ومن المعلوم أن السنغال هي إحدى الشركات العشر في شركة الطيران الإفريقيـة الكبيرة المسماة (إيرافريك) وهي شركة دولية بمعنى أنها تطير في الرحلات الدولية إلى جانب الرحلات التي تكون بين العواصم الإفريقية. ولكن لكل دولة مشتركة فيها شركة طيران صغيرة خاصة بها تطير في داخل بلادها، وتصل إلى عواصم جيرانها الأدنين بصفة محدودة، لأن طائراتها تكون من الصغيرة ذات المراوح والمضيفات فيها فتى وفتاة من السنغاليين.

وكان الإعلان بالفرنسية تلتها انكليزية مختصرة، وحالما نهضت صارت تطير فوق المحيط الأطلسي ثم استمر ذلك طول الرحلة فلم نلمح يابسة منذ أن فارقنا مطار داكار حتى لمحنا مطاربرايا.

أما الضيافة فكانت شطيرتين من الخبز بينهما جبن ، وشطيرتين آخريين بينهما لحم دجاج مع عصير البرتقال. واستمر الطيران سهلاً لا نشاز فيه وكذلك المنظر لم يتغير وإنما هو منظر واحد هو الماء والسماء. ولذلك لم يكن في الطيران امتاع وذكرت عدة مرات كان الطيران فيها كذلك في أماكن متفرقة من بحار العالم ومحيطاته كان أشبهها بهذه الطائرة طيرانًا كان لي من (بورت فيلا) عاصمة جزر نيو هبريدز (وانا واتو) فى أعماق المحيط الهادئ إلى مدينة هونيارا عاصمة (جزر سليمان) فى جنوب المحيط الهادئ أيضاً. وقد ذكرت ذلك في كتاب :(جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ) المطبوع. وإن كانت الفوارق بين الرحلتين كثيرة جدًا.

في مطار برايا:

قبل الموعد المحدد لوصول الطائرة بخمس وعشرين دقيقة أعلنوا الأمر بربط الحزام وبدأت الطائرة فى التدني من علياء السحاب، وما زالت المعالم تحتها مفقودة ما عدا باخرة كانت تمخر عباب المحيط وترسل خلفها نهراً من الزبد الأبيض. وقبل خمس دقائق فقط من هبوطها لمحنا على أيمن الطائرة جزءاً من الأرض صحراوياً مشابهاً لمنظر لأرض الصحراء في بلادنا، وليس فيه أي خضرة، ثم هبطت في مطار ضيق المدرج واقع على حافة المحيط تماماً.

وكان هبوطها في الثانية والنصف ظهراً بعد أن أمضت ساعة وخمسين دقيقة من الطيران خلاف ما ذكروه من أن ذلك سيستغرق ساعتين. وكان هناك شاهد على كونها صحراء عريقة فى صحراويتها تمثل في شجرات من شجرات العشر وهو من الشجر الصحراوي الذي لا تأكله الماشية وتعتقد العامة أنه من منازل الجن، ولا أعلم أنه ينتفع منه إلا أن يحرق ويستعمل فحمه في صناعة البارود.

وقد نمت تلك العُشرات - جمع عُشرة بمعنى شجرة عُشر - فى شق من زفت في ساحة المطار لا شك بأنه صار كذلك بسبب الجفاف وقلة الأمطار.

وقد جعلني هذا أشعر بأننا فعلاً قد وصلنا إلى أرض صحراوية لاسيما بعد أن خلت المنطقة التي تحيط بالمطار من أي عود أخضر وإنما فيها أشجار صحراوية هامدة وهي مع ذلك قليلة ومتفرقة. وقارنت في

ذهني بين منظر هذا المطار ومنظر مطار القصيم قبل ثلاثين سنة فكانت المقارنة في صالح مطار القصيم الذي كان يسمى في ذلك الحين مطار بريدة حتى إن مطارنا على قلة الخضرة فيه في ذلك الحين هو أكثر خضرة من هذا المطار الواقع في الرأس الأخضر السابح وسط الخضم الضخم من مياه المحيط الأطلسي الذي كان أسلافنا العرب يسمونه (البحر المحيط الأعظم).

ثم دخلنا مع الركاب إلى قاعة الوصول وهي صغيرة ضيقة، وهي في الوقت نفسه قاعة تسلم الامتعة وقاعة ختم الجوازات وإن كان موظف الجوازات في غرفة صغيرة مجاورة يعطيه الواصلون جوازاتهم من نافذة في جدارها.وقد اختلط الركاب ببعض المستقبلين وموظفي المطار فإذا بهم الجنس المختلط الذي تخيلناه ورأينا نماذجه في طائرتنا. وقد اختلطت في هذه القاعة الصغيرة التى لا يجد المرء فيها موضعاً لقدمه أصوات الناس كما اختلطت ألوانهم، وليس فيها كرسي واحد. ثم جاء الحمالون بالأمتعة فأنزلوها بأيديهم، وصار الركاب يصرخون بهم أن يحملوا معهم أمتعتهم الثقيلة فلا يستجيبون لذلك من كثرة الهرج والمرج، مع العلم بأن طائرتنا هي صغيرة مروحية أي قليلة الركاب فكيف بهم لو كانت كبيرة؟ والشئ المزعج أنهم طلبوا من الركاب أن يملأوا استمارتين للوصول فى هذا المكان الضيق ولم يعطونا إياها في الطائرة كما تفعل أكثر الشركات. وأسئلة الاستمارات معتادة وغير مطولة.

وكان يعمل مع الجوازات ضابطان أحدهما أسود والآخر خلاسي مع ميل إلى السواد والخلاسي - إن لم تكن تعرفه- هو ذو اللون بين الأسود والأبيض- وهذا اصطلاح رغم سعته صار يطلق على من ولدوا بين أبوين أسود وأبيض، وإن كان تأثير الأبوين فيهم مختلفاً، فاللون الأسود أكثر ظهوراً فى الوراثة، وأقوى تأثيراً من اللون الأبيض كما هو معروف. وكان وصول الأمتعة قد تأخر حتي مَلَّ بعض الركاب من الوقوف، وجلسوا على أرجلهم. ثم خرجنا من القاعة وضابط التفتيش يفتش بعض الناس دون تفتيش لنا معتدين بجوازينا السياسيين، ولم يعترضنا أحد، ولم يطلع على جوازين أحد. ولاحظنا أن بعض الركاب خرجوا أيضاً دون تفتيش، لأن الضابط كان مشغولاً بالآخرين . وباب القاعة إلى داخل المدينة ليس عليه حراسة.

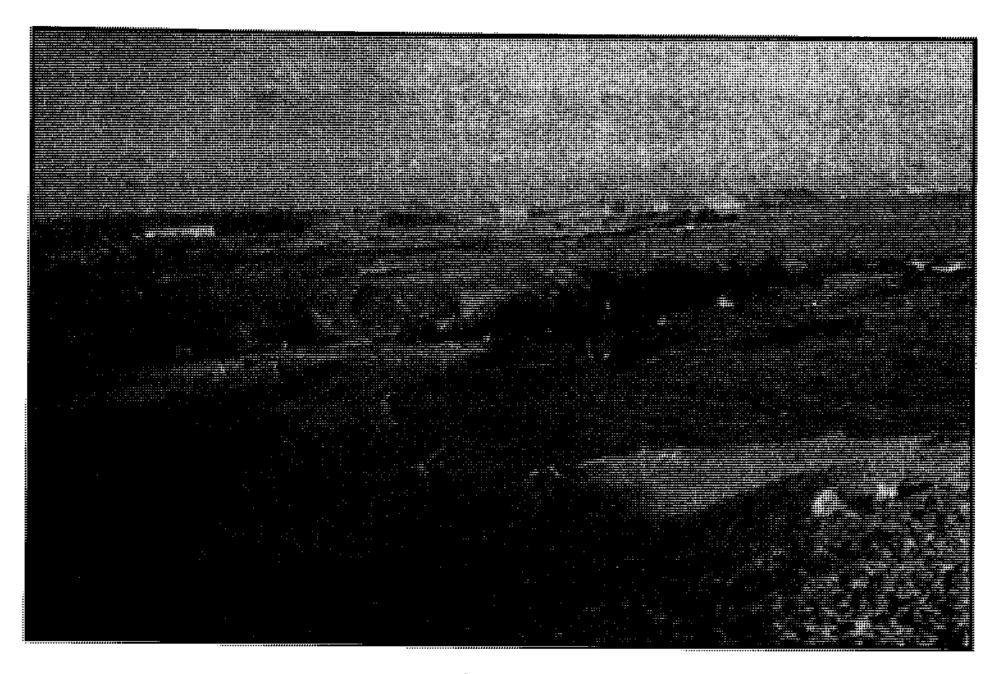
في بلدة برايا:

ويعنى اسمها باللغة البرتغالية لغة المستعمرين التى لا تزال هي اللغة الرسمية: الشاطئ أي شاطئ البحر. وذكرت معنى هذه الكلمة التي كانت تقرع سمعي في مدينة (ريو دي جانيرو) في البرازيل وتعني الشاطئ الواقع بالقرب من فندق كنت أسكن فيه في (كوبا كابانا) فكانت الكلمة يرتبط معناها بالجمال في كل شئ وبالسعة المتناهية ، والرخص الذي لا يدانى، والشعب الذي لا حدود لطيبته وهو شعب البرازيل، والربى الخضر التى تنهض من قرب البحر فتعانق السحاب في مشاهد رائعة لا توجد في غير (ريو دي جانيرو).

واليوم صارت (برايا) في الرأس الأخضر تعني الجدب والصحراء والأرض الغبراء، والوجوه الصدئة، والآفاق المشهبّة.

خرجنا من قاعة الوصول الصغيرة التى تجمع بين مكاتب الجوازات وتسلم الحقائب والتفتيش الجمركي فألفينا أنفسنا خارج المطار. وأقبل عدد من الناس يسألوننا عما إذا كنا نريد سيارة أجرة . وكنت أعرف كلمات وجملاً من البرتغالية تعلمتها في البرازيل فصرت أتكلم بها معهم غير أنهم كانوا لا يفهمونها بسهولة ، وتبين لي بعد ذلك أن لغتهم برتغالية مختلطة (كريول).

واتفقنا مع سائق أجرة على أجرة يوصلنا بها إلى فندق فى قلب المدينة ذكر لنا اسمه، ولم نكن نعرفه فسار بسيارته وهي قديمة محطمة على طريق مرصوف بالحجارة. لأن أرض الجزيرة هنا جبلية فهبط من تلة عليها مبنى المطار إلى وادٍ فيه أشجار صحراوية ظننتها على البعد طلحًا من أشجار الطلح التي توجد في الوديان الصحراوية. فلما قاربنا البلدة وجدناهم قد غرسوا على جانبي الشارع أشجارًا صحراوية أيضًا ظننتها من أشجار الطلح، وقد تبين بعد ذلك أنها أشجار أخرى صحراوية سبق أن رأيت بعضها في مدينة نواكشوط عاصمة موريتانيا وهي صحراوية جافة أكثر جفافًا من صحرائنا لأنها واقعة على أرض منبسطة على شاطئ ملحي، ولكن تلك الأشجار في مدينة نواكشوط هي خضراء يانعة رغم ذلك. وذكرلي الإخوة الموريتانيون أن هذه الأشجار الصحراوية مستوردة من أمريكا. أما في بلدة (برايا) هذه المسماة بالرأس الأخضر فإن الأشجار الصحراوية فيها هي جافة شائكة غبراء اللون. وعرفت السبب الذي من أجله ساعدت بلادنا هذه الجزر على بناء سدود يمكن أن تحجز الأمطار القليلة التي تسقط عليها حتى ينتفع بها الأهالي في مياه الشرب.

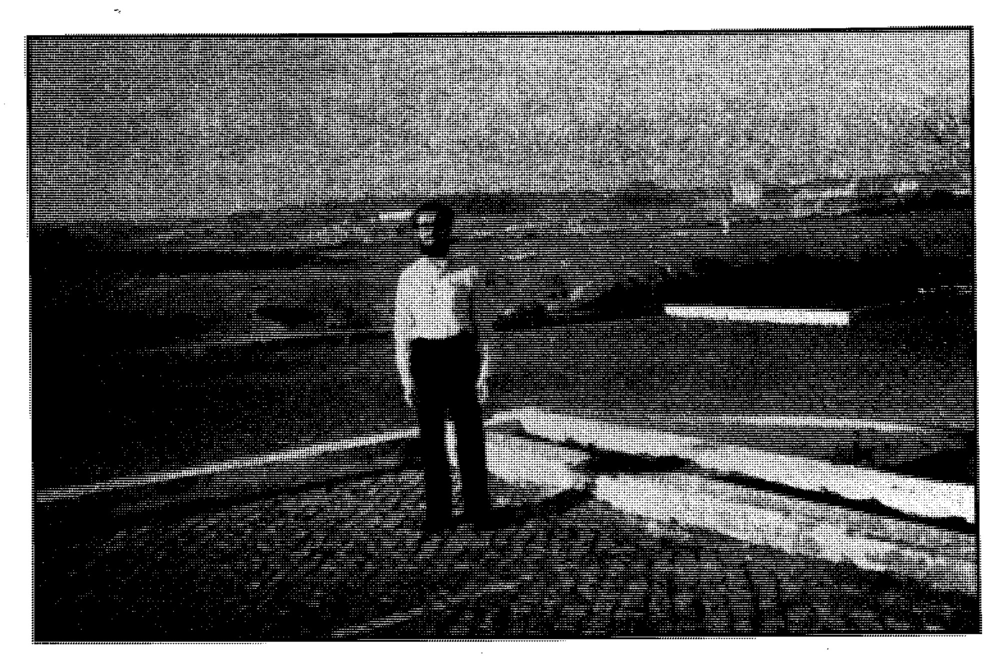


شاطئ برايا في الرأس الأخضر

وعندما وصلنا المدينة كان الوقت صائفاً كأننا في القائلة في بلادنا رغم أن الجو ليس شديد الحرارة ولكنه الجفاف والشمس فرأيت الناس فى بلدة برايا التي هي عاصمة دولة الرأس الأخضر سوداً من الإفريقيين الخلص تخالطهم طوائف من الخلاسيين أو من ذوي اللون الرمادي الأغبر. وذلك لكونه اجتمع عليهم مع الجوالصحراوي العيش في موقع من خط الاستواء يصبغ الناس بالسواد، وإن لم يكونوا تحت خط الاستواء مباشرة، فإنهم محاذون – في الموقع– لبلاد السنغال التي يوجد فيها طوائف سوادهم حالك بسبب الجو. ولم نجد في الفندق الذي نقصده غرفاً لأنه فندق صغير، فانتقلنا بالسيارة إلى فندق صغير آخر وسائق سيارة الأجرة يدمدم بكلمات لا تنم عن الرضا لأننا كنا قد اتفقنا معه على مائتي سكودا، والسكودا هو عملتهم وهو اسم العملة البرتغالية

أيضـاً. فأفـهمـته أننا سوف نزيده ومـع ذلك لم يكن منشرح الصـدر معنا هو وصاحب له كان معه في السيارة.

فندق برايا:



المؤلف أمام فندق برايا في الرأس الأخضر

خــرجنا من قلب بلـدة برايا إلى فندق واقـع في الجـهــة الجنوبيــة من المدينة على رأس تلـة جبلـية جـافـة اسـمـه (فندق برايا مـار). وبرايا هو الشـاطئ كـما قـدمت و (مـار) هو البـحـر بالبـرتغـاليـة، ولذلك تكون هذه التسمـية للفندق صحيحة، سـواء أكان المراد بذلك مدينة (برايا) أو المراد به (برايا) الذي هو الـساحل، وهـذه تسـميـة برتغـاليـة كـمـا قـدمت لأن المستعمرين البرتغـاليين كانوا المسيطرين علي الجزر لعدة قرون. ولذلك أسـموا الجـزيرة التي فـيهـا العاصـمـة (سانت ياقـو) التي تعني القـديس

يعقوب، وهي تسمية شائعة لمدن ومناطق من التي كان قد استعمرها أولئك اللاتينيون - نسبة إلى لغاتهم المشتقة من اللاتينية، وليس نسبة إلى أصلهم اللاتيني وعلى رأسهم الأسبان والبرتغاليون ويكفي أن نذكر من ذلك مدينة (سانت ياقو) عاصمة تشيلي وقد ذكرت أمر زيارتي إليها في كتاب «إلى أقصى الجنوب الأمريكي» الذي طبع قبل سنين . وأعطينا السائق الأجرة مضاعفة وهي (٤٠٠) سكودا فرضي وشكر.

وجدنا الفندق مؤلفاً من مبنى رئيسي فيه طابقان وهذا ليس فيه غرفة خالية، ومن غرف منفردة على هيئة دارات من طابق واحد سكنا في واحدة منها فيها أربع غرف كانت اثنان منها خالية. ولم أستطع مغالبة الصبر على استجلاء المنطقة، فكان أول ذلك إطلالة من باب خلفي في غرفتي الواقعة على ما يشبه الرف الصخري، تحته شاطئ البحر الذي هو صخري أسود الحجارة، وليس عليه عود أخضر بل هو صحراوي أجرد.

جولة في بلدة برايا:

ركبنا سيارة أجرة رخيصة من الفندق فذهبنا أنا وصديقي السفير الدكوري إلى قلب بلدة برايا لنرى منها في بياض ما بقي لنا من هذا اليوم ما نستطيع رؤيته، فما أسرع أن وقف بنا السائق في :

ساحة ديسمبر:

ويسمونها بالبرتغالية (براسا دا ديسمبرو) وهي ميدان صغير في قلب المدينة وأرضه مبلطة بالحجارة . تحيط به أبنية من طوابق متواضعة وفيه الحوانيت الكبيرة نسبياً، وبعض مكاتب الشركات .

ومنها مكاتب شركات الطيران. وقد اكتظت بطوائف من هذا الشعب ذي اللون الأسود غير النقي فسواده قد شابته شوائب من أثر المستعمرين ولكنها شانته ولم تزنه وإنما انتقل بها من لون المداد إلى لون الرماد. وإن كان بعضه لا يزال إفريقياً نقياً. ونقول إنه إفريقي وإن كان خارج القارة الإفريقية كما أسمى الناس أهل الجزائر الواقعة في البحر الزنجي شرق القارة الافريقية اصطلاحاً بالأفارقة كأهل مدغشقر وجزر رينيون وسيشل وموريشيوس. وذلك لكون معظم السكان في تلك الجزر حاشا مدغشقر هم في الأصل من القارة الإفريقية .



المؤلف في ساحة ديسمبر في برايا

أما مدغشقر فإن العنصر الغالب على سكان الهضبة الوسطى فيها التي فيها العاصمة (تاناناريف) هو الجنس الملايوي المعروف عندنا في

الحجاز بالجاوي ولكن سواحلها وأطراف الجزيرة فيها يسكنها شعب إفريقي أصيل، وإن كانت أصالته في بعض الأحيان أصالة سواحلية. وقد ذكرت شيئًا بل أشياء عن مدغشقر في كتاب (مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين) وذكرت تلك الجزر في البحر الزنجي الواقع في شرق إفريقية في كتاب: «جولة في جزائر البحر الزنجي» وكلاهما قد طبع منذ سنوات.

وأرجو عفو القارئ الكريم عن التنويه بأشياء ربما يعتبرها تافهة. ولكنني ظننت أن بعض الذين يقرأون هذا الكلام الذي أكتبه الآن عن غرب إفريقية قد يحبون الاطلاع على ما كتبته عن تلك الأماكن في شرقها.

قلت: إن بعض الشعب هنا أسود اللون وبعضه رمادي اللون، فأيهما أكثر؟

الواقع أن الجزم بمعرفة الأكثر من الأقل هنا يحتاج إلى احصاء ووقت وكتابي هذا هو كتاب مشاهدات وملاحظات وخيِّل إليَّ مما لاحظته أن الشعب يكاد يكون مقسومًا بالتساوي ما بين الإفريقيين السود الأصلاء، وبين المولدين الدخلاء أو أنصاف الدخلاء الذين كان سبب وجودهم بهذه المثابة هو وصول الأوروبيين والبرتغاليين إليها.

أولاد (......)!

من الغريب أنك تسمع قصة وجود هذا الشعب في هذه الجزر الصحراوية، وتميزه بوجود اللون الرمادي والخلاسي فيه من أهل الجزر نفسها، فيقولون لك ويكادون يتفقون على ذلك القول بدون أن

تراهم يستحيون أو حتى يتخافتون في كلامهم : إن هذه الجزر لم تكن مسكونة عندما وصلها البرتغاليون، واعتبروا أنهم قد اكتشفوها، لأنها لم تكن معروفة في الكتب التي وصلتهم.

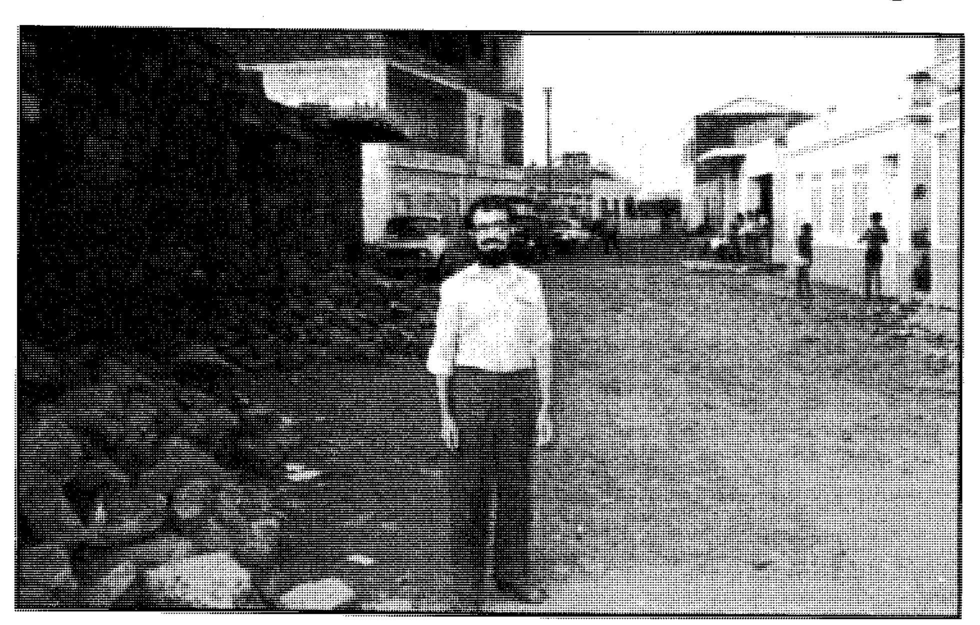
ولم يكن مسموحاً آنذاك بالزواج من الإفريقيات ومن أجل كونهن يعتبرن عند البرتغاليين من الوثنيات لكون السود لم يكونوا مسيحيين آنذاك ، وكانوا يعتبرون كل من لم يكن مسيحياً بأنه من الوثنيين الكفار. فاتخذوا هذه الجزر قاعدة لسفنهم الكثيرة التى كانت قد جابت ساحل إفريقية الغربي ثم دارت مع رأس الرجاء الصالح بعد ذلك إلى شرق إفريقية، حتى وصلت إلى الهند بهداية ملاح عربي شهير هو ابن ماجد الذي هداهم إلى الطريق من مدينة ماليندي على ساحل إفريقية الشرقي. وهي واقعة الآن فى كينيا إلى ساحل المليبار في الهند. وكانوا أثناء إقامتهم بحاجة إلى نساء إذ لم تكن نساؤهم تصحبهم فى هذه الرحلات البحرية الشاقة بل غير المأمونة فعرفوا النساء السوداوات، ونثروا على أولادهن من بياضهم. وكرروا ذلك طيلة عقود، بل قرون من السنين كانوا أثناءها قد استعمروا أقطاراً إفريقية عدة، وجلبوا منها إلى هذه الجزر طوائف من العمال والخدام والخادمات. فكان من ذلك هذا الشعب الخليط الذي لم تخرج خلطته عن دائرة السواد إلا أنها كانت تتراوح به بين السواد الحالك، والسواد الخفيف. ومن بعض الحالات القليلة خرجت به الى اللون الخلاسي الذي يتناصف البياض والسواد فيه لون حامله لا يطغى فيه أحدهما على الآخر.

ولم يكن الأمر هنا في هذا الاختلاط مقتصراً على اللون بل اختلاط

أيضاً في الصفات فتجد الشعر المرسل على وجوه سود وترى الشعر المعقد المفلفل على رؤس خلاسية. وقل ما شئت من اختلاط التقاسيم الذي هو - في الأصل - مظهر من مظاهر اختلاف الأقاليم من فم واسع كبير، وأنف قصير، وشفاه غليظة وآذان صغيرة لا تجتمع كلها في وجه واحد متناسقة كما تراها في أنقياء الأنساب، وإنما هي مجتمعة في شخص أو أشخاص، وغير موجودة في أشخاص آخرين من أهل هذه البلاد الواحدة.

جزر الرأس الأخضر وغينيا بيساو:

وجدت شجرة طلح في شارع رئيسي من قلب المدينة اسمه (شارع كبرال) فالتقطت صورة تحتها تحية لهذه الطلحة النجدية في هذه الجزر الأطلسية التي لم تبعدها اطلسيتها عن نجد إلا في السكان رغم شظف المكان.



في شارع في برايا

وكبرال هذا هو رئيس الحكومة الاستقلالية التي استقلت عن البرتغال مؤلفة (جمهورية غينيا بيساو) و (جزر الرأس الأخضر) وكانت تحت سيطرة هؤلاء القوم المولدين أهل جزر الرأس الأخضر مع كونهم أقلية عددية بالنسبة إلى الأكثرية من أهل غينيا بيساو، وكانوا يدلون بعلمهم وثقافتهم التي اكتسبوها من المستعمرين البرتغاليين الذين علموهم، لأنهم نشأوا على ثقافتهم وأما أهل غينيا بيساو فإنهم شعب آخر فيه نسبة من المسلمين فثارعليهم أهل غينيا بيساو طالبين ألا يستأثر أهل الرأس الأخضر بقيادة هذا الاتجاه دونهم. فكان أن علم أهل جزر الرأس الأخضر أن الأمر قد انفرط من أيديهم فأعلنوا الانفصال عن غينيا بيساو، وكونوا هذه الدولة الصغيرة الصحراوية الجافة.

مقومات دولتهم:

غينيا بيساو دولة غنية الموارد ففيها عدة أنهار وفيها محصولات زراعية متعددة، وأرض خضراء واسعة. وأما هذه الجزر المسماة بالرأس الأخضر فليس فيها من ذلك شئ. وإنما يقوم اقتصادهم على ثلاثة أمور: صيد السمك لأن لها شواطئ عديدة مليئة بالأسماك وتصديره للخارج، والحصول على الملح من شواطئ البحار الصخرية لأن الشمس حارة والتبخير شديد والأرض صخرية. والثالث: تحويلات العاملين من أبنائها في الدول الأوروبية وبخاصة الدول التي تنتمي لغاتها إلى اللغة اللاتينية، وكذلك الولايات المتحدة وكندا. لما يربط أهل هذه الجزر من رباط واهٍ بالمستعمرين البرتغاليين خاصة وبالأوروبيين عامة ربما اعتبروه رحمًا ماسة. كما أن لحكومتها سياسة

متزنة وإدارة ليست جيدة، ولكنها أقل في السوء من بعض الدول الإفريقية الغنية .

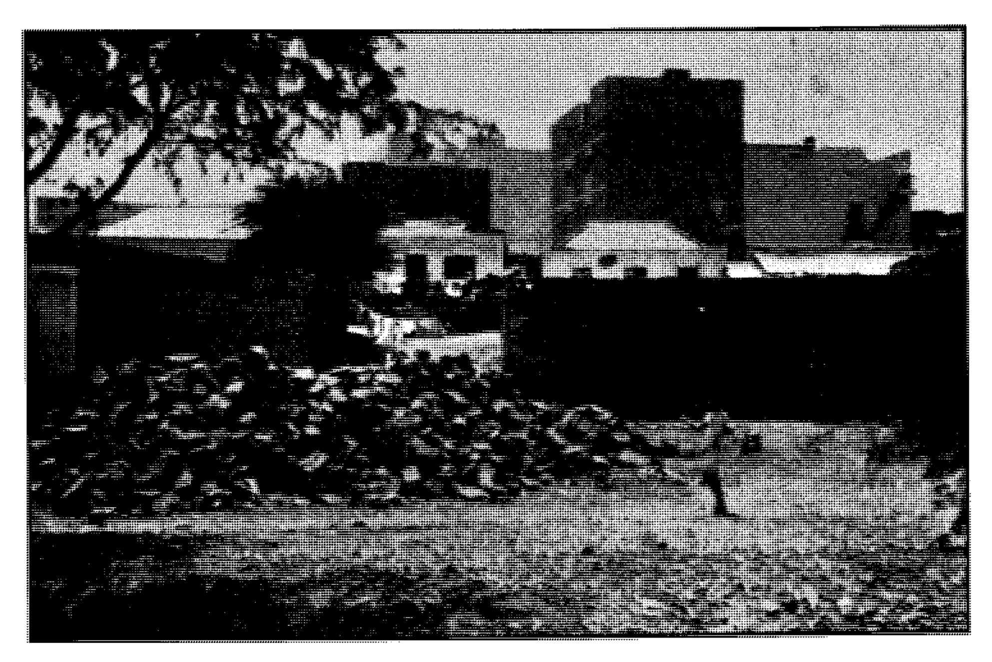
أما الخيام فإنها كخيامهم :

أبعدت في الشارع الرئيسي فى البلدة وهو شارع كبرال وانحرف الشارع قليلاً وأنا أتمشى وأتأمل أسواق البلدة فظننت أنني خرجت إلى شارع آخر غير شارع كبرال. فسألت أحد الأشخاص بالبرتغالية عن اسم هذا الشارع فأجاب بالبرتغالية : (افيندا كبرال). فذكرت بهذه التسمية (أفيندا) للشارع الكبير الطويل أسماء شوارع في مدن البرازيل الجميلة وعجبت للغة كيف تجمع بين الضدين في التسمية وقلت ما قاله الشاعر الأول:

أما الخيام فإنها كخيامهم
وأرى نساء الحي غير نسائها

وحتى الخيام فإن خيام البرازيل من دارات جميلة واقعة بين الخمائل، وزهور تبتسم ابتسامات الثغور، وربى خضر تهتز مع النسيم، كما تهتز أعطاف الحور، وجمال يصافح عينيك ويدخل إلى جنبيك دون استئذان، وحتى الآذان فإنها تسمع اللغة البرتغالية وهي اللغة نفسها في هذه البلاد، ولكنها هناك كزقزقة العصافير، وحفيف الأزاهير، حينما يداعبها النسيم. ومضى بي التفكير في الفروق ما بين تلك الربوع، وهذه الجموع حتى أوقظني رفيقي السفير الدكوري من غفوة اليقظة هذه فقلت له: بالله عليك أما كان الأجدر بك والأجدى لي أن تتركني مع خيالي الجميل في بلاد البرازيل؟ فقال: مالك وللخيال الذي لا يغني شيئاً في الحاضر والمآل؟

فرجعت ببصري أتأمل المنازل في قلب المدينة هذا فأجدها على الشارع الرئيسي متعددة الطوابق ولكن طوابقها قليلة، وعلى الشوارع الفرعية من طابقين أو طابق واحد، وأغلبها من الحجارة أو لبن الإسمنت وليس فيها (عشاش) ولا أكواخ، وأرصفتها جيدة إلا في الشوارع غير الرئيسية.



جانب من شارع كبرال

بيوت الطين:

أوغلنا في داخل البلدة مبتعدين عن الشارع فرأينا البيوت الطينية التي هي علامة الصحراوية وقد عايشتها لأنها البيوت التي فتحنا أعيننا عليها في بلادنا، وعشنا فيها أوائل حياتنا ثم رأيتها في صحارى كثيرة في العالم ومنها صحراء الصين الشعبية الواسعة من منغوليا الداخلية إلى مقاطعة كانسو الشمالية الغربية إلى بلاد التركستان الشرقية التى

أسماها الصينيون سنيكيانغ(تشنجناك).وتلك البيوت الطينية توجد في البلدان الجافة ولو لم تكن في صحارى شاملة مثلما عليه الحال في مدينة (ليما) عاصمة بيرو. والمراد من ذلك البيوت القديمة والبيوت الريفية وإلا فإن مدينة (ليما) قد أخذت تبني بيوتها الآن بالإسمنت المسلح كما صرنا نحن نفعل ذلك حتى أجهزنا على بيوتنا الطينية كلها أو أكثرها. ومعظم البيوت هنا مسطحة السقوف، وذلك لقلة الأمطار فيها. مع وجود طائفة منها مسقفة بالآجر على الطراز الأوروبي التقليدي. وقد كثر البناء بالحجر عندهم الآن لأن بلادهم جبلية وقد تيسرت آلات قلع الحجارة.

ومررنا بمدرسة حكومية ذكروا أن الدراسة فيها وجبة واحدة كما هي عندنا بمعنى أن الدراسة فيها في الصباح والضحى فقط، وليست هناك جماعات من الطلاب غير طلاب الصباح يحضرون إليها في المساء كما يكون في معظم البلدان الكثيرة السكان، وأخبرونا أن الدراسة فيها مختلطة ما بين الصبيان والصبايا.



منازل في برايا

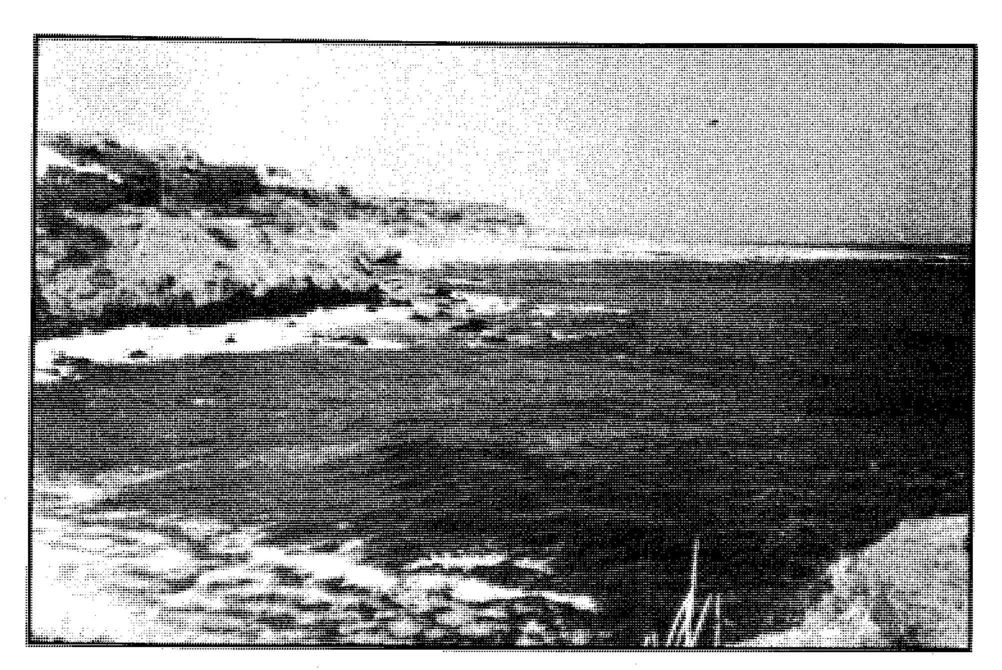
وبمناسبة الحديث عن الطين رأيت كومة من شئ أسود كالتراب الدقيق ملقى في زقاق فسألنا عنه أحد الموجودين قربه فذكر أنه طين جاؤا به للدار. ولا أدري ماذا يصنعون به إلا أن يكون ترميم الدار الطينية. ثم دخلنا زقاقاً قذراً رأينا فيه حانة (باراً) قذرة جداً حتى إن الوسخ على باب هذه الحانة يجعلها تبدو كأنما هي قد دهنت بدهن قاتم.

وأمام هذه الحانة مائدتان عليها أناس يلعبون الورق، وحولهم نساء على حالة سيئة من عدم النظافة وليس في شكل الجميع أي شئ من الوجاهة.

وذكرت بهذه المناسبة الوجاهة التي يبدو عليها السنغاليون سواء بأشكالهم أو بثيابهم وهي لا توجد هنا. ورأيت نساءهم عند أبواب

البيـوت بعضـهن جـالسات على الأرض وبعضـهن على شئ كالكراسي أو نحوها وهن كالإفريقيات الاستوائيات.

على شاطئ بريني:



شاطئ برينى في برايا

عدنا إلى الفندق في الخامسة وقد بقيت في ضوء النهار بقية صالحة فرأينا شـاطئـاً قـريباً من الفندق ينزل إليـه من التـلال الجـبليـة التي تقع عليها البلدة حـيث يوجد في ذلك الشاطئ موضع ضيق صالح لـلسباحة لأنه رملي. وفيه طائفـة من المواطنين يسبحون وقد اختلفـوا ما بين سود إلى ملونين ولكنه تلوين يغلب عليه الصـدأ، وليس كتلوين البرازيل الذي يغلب عليه الندى. ولم يطب لنا المقـام عند هذا الشاطئ فقصدنا مـقصفـاً للفندق في مكان مرتفع مثل الفندق نفسه. وهو جيد الأثاث طلبنا منه ماء

معدنيًا فجاؤا به غاليًا جدًا فسألناهم عن السبب في ذلك فأجابوا: ذلك لكونه قد أحضر من بلاد البرتغال. وتصور بلدًا حتى ماء الشرب النظيف يستورد من وراء البحار. وفندق (برايامار) هذا الذي نسكن فيه واقع - كما قلت - فوق تلة جبلية ولكنها تشبه رأس السهم لركن جبلي من المدينة بنوا عليه بلدة برايا بحيث يحيط بها البحر من جهات ثلاث إلا أنها كلما ذهبت شمالاً اتسعت ورأس السهم جهة الجنوب حتى يبتعد البحر كلما ابتعد المرء عن المدينة ذاهبًا شمالاً مع هذه الجزيرة التي تسمى جزيرة (سانت ياقو).

مساء الرأس الأخضر:

لم نجد الخضرة في الرأس الأخضر إلا في الظلام فإذا كان الظلام يسمى خضرة فإن تسميته صحيحة.

فقد تناولنا العشاء في مطعم الفندق وهو منفصل عن الفندق بينهما مسافة مكشوفة مبلطة بالحجارة. وكان الحر في مطعمه لا يطاق فقد ضقنا فيه حتى ضاقت منا الأنفاس من الحر ولم يكن فيه تكييف وإنما كانت فيه مروحة لا تستقر إلا إذا كان وجهها مرفوعًا إلى السماء لخلل فيها ولا تفيدنا وهي واحدة لكل المطعم على سعته. ولا أذكر أنني منذ مدة طويلة عانيت مثل هذا الحر، لأننا أصبحنا ولله الحمد ننزل منازل مريحة في بلادنا وفي خارج بلادنا. ومما كدر العشاء في الفندق وجود عدد من الآكلين الثملين الذين خفت أحلامهم، وكثر كلامهم، بل كثر لغطهم، وجلجلت ضحكاتهم. ثم خرجنا من المطعم إلى غرفنا في الفندق في ظلام دامس لم ينيروا الطريق فيه بمصباح . وكانت أمواج الشاطئ الذي يقع عليه غرفنا تزمجر زمجرة متصلة لم يصدها عنا اغلاق الباب والنافذة الذين يشرفان على البحر.

وقال أحد الموظفين: لماذا لم تتفرجوا على (الفيلم) ولم نكن رأينا أشرطة أو أفلامًا؟

ثم أوضح ذلك بأن المقصف الذي يتبع الفندق فيه جهاز لعرض أشرطة الفيديو يعرض منه (فيلم) برازيلي بالبرتغالية التي يفهمونها . ويأتي الناس لهذا المقصف لمشاهدة أمثاله. وقبل النوم فتحت المذياع أبحث عن إذاعة عربية فإذا بها مجلجلة فصيحة وكأنها تذيع من الفندق نفسه وإذا بها الإذاعة المغربية من (عيون الساقية الحمراء)عاصمة الصحراء المغربية الكبرى.

ولم أعجب لذلك لأننا الآن قريب من الساحل الصحراوي المغربي وإنما عجبت من كون إذاعتنا السعودية تسمع قوية واضحة في هذه الجزر، على الموجة المتوسطة مع أنني لم أكن أسمعها على هذه الموجة في داكار. فعرفت أن السبب في ذلك هو وجود البحر الذي يوصل موجات الإذاعة بسهولة إلى جانب عدم وجود المؤثرات الكهربائية التي تشوه الاستقبال كالأجهزة الكهربائية ومصابيح الإنارة البيض.

يوم الأربعاء ١٤٠٩/٦/٢١هـ.

صباح برايا:

كان الصباح امتدادًا لليل انقضى في زمجرة الأمواج وهي تصافح صخور الشاطئ في حركة لم تهدأ منذ مساء أمس، وعجبت لهم كيف لم يحسبوا لذلك حسابًا عندما بنوا الفندق إذْ تكاد أصوات تلك الأمواج تصم الآذان، وتمنع النوم . وما شبهتها إلا بالرعود المتصلة لولا أنها تكاد تكون على رتيبة واحدة. غير أن منظرها في العين كان في هذا الصباح أيضًا خلاف ما كانت عليه زمجرتها الغاضبة في الليل. فكانت

تتكسر على جباه هذه الصخور السود فتتراقص، وتتناثر يميناً وشمالاً ثم لا تلبث أن يدركها التعب فتتهاوى على تلك الصخور غير أنها ما أن تفعل ذلك حتى تكون أمواج أخرى قد لحقت بها تحاول أن تمسك بتلابيب الصخور غير أنها تكون كالغريق الذي يريد أن يمسك بجانب صخري أملس من جبل في البحر فتنزلق عليها في حركة راقصة لا تني. وعند الخروج من الغرفة التي يفتح بابها على الصحراء - إن صح التعبير- فهي تفتح على الخلاء تحييك عند خروجك منها شجرتان من شجر العُشر تقفان أو تجلسان - لا أدري - لأنهما غير مرتفعتين وإن كانتا قد حفتا بالممر أحداهما عن يمينه والأخرى يساره.

وقد خرجتا من بين الصخور التي بلطت بها أرضه. ولا غرو في ذلك لأن الجو كان صحراوياً جافاً في هذا الصباح إلا أنه معتدل مثلما يكون الجو الصحراوي قبل أن تلهبه شمس الصحراء بسياطها. وكان المطعم قد خف حره أيضاً فكانت العاملات فيه يرشدن النزلاء إلى موائد يتناول النزيل منها ما أعجبه، وكان الذي يعجبنا من طعامهم قليلاً، إذْ الخنزير الحرام كان هو الكثير وبعد طعام الفطور رأينا طائفة من شبان وشابات متجمهرين بلغ عددهم حوالي الخمسين فذكروا لنا أنهم جاؤا من أجل دخول مسابقة لوظيفة (كاتب آلة) شاغرة في الفندق. وبعضهم جاؤا من جزر أخرى فتجشموا عناء السفر على أمل أن يحظوا بالتعيين في هذه الوظيفة.

ولاحظت أن فيهم خلاسيين أكثر ظهوراً ممن رأيتهم أمس في مدينة برايا فأخبرونا أن جزيرة من جزرهم تسمى (ماندليو) سكانها أكثر بياضاً او لنقل ان شئت الدقة- أقل سواداً، وكانوا بذلك مع الذين

حضروا من جزيرة سانت ياقو هذه التي نحن فيها، ومن غيرها يصح أن يقال فيهم: إنهم يمثلون أنواع الشعب فالتقطت صورة لمجموعة منهم، ولم يمانعوا في ذلك، بل إنهم كانوا كأكثر الإفريقيين يرحبون بالتقاط الصور رغبة في التصوير، واستجابة لطلب ضيف غريب على بلادهم.



صورة من برايا

حديث عن المسجد:

بادرنا بالذهاب إلى شركة الخطوط السنغالية المسماة (اير سنغال) من أجل تأكيد الحجز معها للعودة إلى داكار. فوجدنا المكتب صغيراً وعلى المكتب مروحة صغيرة. أما المراوح على السقف فإنها نادرة هنا رغم الحاجة إليها، وذلك من باب التوفير في النفقة.

وجدنا في المكتب أخاً سنغالياً وكلمة سنغالي في غرب إفريقية تعنى

في أذهان الناس مسلماً، لأن المسلمين هم الأكثرون في السنغال فهم حوالي ٩٥٪ وغير المسلمين منهم ليست لهم من الأهمية في بلادهم وخارجها ما يبرز وجودهم ، وإنما المسلمون هم الذين يقومون بكل الأعمال.

سألنا الأخ السنغالي واسمه أبو بكر لي كما كنا سألنا قبله أناساً آخرين عن المسلمين في هذه البلاد فقال كما قال من كانوا قبله: إن المسلمين ليس لهم وجود منظم في هذه الجزر رغم كون حكومتها لا تمانع في ذلك فهي حكومة حرة كما قالوا وهي - إلى ذلك - تخطب ود الدول الإسلامية، ولكن الأمر يتعلق بالمسلمين.

وكنا عرفنا من قبل أنه لا يوجد فيها مسجد ولا جمعية مسلمة رسمية فسألناه عن الجهود التي بذلوها من أجل بناء المسجد فزادنا علماً بأن المسلمين كانوا قد بدأوا الاجتماع يوم الأحد من كل أسبوع للعمل على بناء أول مسجد في هذه البلاد وجمع التبرعات له فكان كل واحد منهم يتبرع أسبوعياً حسبما ذكروه بخمسين سكودا ويساوي ذلك حوالي ثلثي دولار أمريكي، وذكر أن السفير السنغالي كان هو الذى دعا إلى هذا الإجتماع. وقال: إننا مهتمون بإيجاد مقبرة للمسلمين أيضاً فقد مات أحد المسلمين قبل شهور فلم نجد من يصلي عليه ولا من يقبره في مقابر المسلمين، ولأنه لا توجد مقبرة للمسلمين قال: ولا توجد ثلاجة هنا يحفظ فيها فدفناه في مقابر النصارى!

وذكر أن أكبر مجموعة من المسلمين هنا هم من السنغال ويوجد مواطن موريتاني واحد وطبيب مصري وشخص واحد تونسي.

وذكروا أن الدعوة إلي الله هنا تجد مستجيبين كثراً إذا قام بها من

يحسنون الدعـوة ويتعهـدون المسلمين بعد ذلك بالرعاية والـعناية الدينية وغيرها.

المسلمون في الرأس الأخضر:

حـضـر في مكـتب الشـركـة الأخ الموريتـاني الذي ذكـروه فـشـاركنا الحديث عن المسلمين، وكذلك حضر عدد من المسلمين مصادفة فحدثونا بحديث المسلمين في هذه البلاد ثم ضممنا إلى حديثهم بعد ذلك أحاديث من غيرهم كـان من أهمهـا حـديث السفير السنـغالي الذي هو السـفيـر المسلم الوحـيـد في هذه الجـزر حـتى قـال له أحـد الوزراء المـسلمين من الزوار : أنت سفير المسلمين كلهم هنا.فكان من حديث المسلمين في هذه البلاد ما يلي:

لم يهتد إلى الإسلام من أهل البلاد الأصلاء الذين هم من الإفريقيين أو المخـتلطـين إلا قلة لا تكاد تذكـر قـال بعض المسلمين هـنا إن عـددهم خمسون وقال آخرون إنه يصل الى مـائة وذكروا مواطنهم فذكروا منها جـزيرة (سان فنسـان) إضـافة إلـى جزيرة (سـانت ياقـو) هذه التي نحن فيها، وسبب إسلامهم سفر بعض أفراد منهم إلى بلد إسلامي كالسنغال، وذلك لعدم وجـود الدعاة ، بل حـتى لعدم وجـود المسلمين الذين يهتـمون بهـذا الأمر. فـعـدد المهاجـرين المسلمين قليـل، وهم على قلتـهم معنيـون بأمور دنيـاهم لا يكادون يهتمون بـأمر دينهم. وإلا فإن القيـاس أنه ما دام أن هذه الجزر كانت متصلة بغينيا بيساو التي كانت قد ألفت معها اتحاداً في أول عهدها بالاستقلال، وما دام أنها مجاورة، ولو كان جوارها نسبيا لبلاد أكثر من فيها مسلمون كالسنغـال وغينيا كونكري وغامبيا فلماذا لم يكن فيها مسلمون كثر، بل لماذا لم يكن فـيها حتى أقلية مسلمة ذات عدد مناسب؟.

والجواب . أن السبب في ذلك أمران رئيسيان أولهما: أنها كانت مستعمرة برتغالية اعتبرها البرتغاليون أرضاً برتغالية، وأغلقوا فيها الطريق كما عملوا في غيرها من مستعمراتهم أمام دخول الإسلام، فحرموا التعليم الإسلامي كما ذكرنا عند الكلام على (غينيا بيساو) فيما سبق.

والثاني: أنها لم تكن فيها أعمال تجارية مزدهرة ولا مواد اقتصادية نشطة تستدعي وجود مهاجرين من البلدان المسلمة المجاورة..

وهذا كله يتعلق بما قبل الاستقلال، أما فيما بعد الاستقلال فإن الفرصة مهيئة للدعوة إلى الإسلام بين أهلها فحكومتها لا تمانع في ذلك. وشعبها شعب مسيحي بالاسم، وإلا فإنه بأكثريته العاطفية إفريقي سمح وإنما التقصير كان من المسلمين وبخاصة الجمعيات الإسلامية التى تعلن أنها قد تألفت لغرض الدعوة إلى الله وهي كثيرة في البلدان التي ذكرناها . إلا أنهم أشاروا إلى أن اثنين من جمعية عباد الرحمن في السنغال حضرا إلى هذه الجزر فأسلم على أيديهما شخص واحد من أهل البلاد .

وذكروا أن عدد المسلمين من غير أهل البلاد لا يتجاوز ثلاثين إلى ٣٥ من أهل السنغال و٨ من مالي وعدد مثل ذلك أو أقل من غينيا بيساو وغينيا كونكري والجميع لا يكادون يزيدون في العدد على مائة شخص من المسلمين. وهؤلاء هم المسلمون المقيمون. أما العابرون فإنهم يضافون إلى هؤلاء والمراد بهم من يأتون لغرض معين ولا يقيمون إقامة مستمرة في البلاد. ومع ذلك فقد اجتمع الإخوة المسلمون وذهب بعضهم مع سفير السنغال إلى رئيس وزراء الجزيرة وطلبوا منه أن يعطيهم

أرضاً يقيمون عليها مسجداً للمسلمين فرحب بذلك وقال لهم: إن الحكومة تبيع مثل هذه الأراضي على الجمعيات الخيرية بأسعار رمزية فإذا جمعتم ما يكفي لذلك فإننا على استعداد لاعطائكم الأرض. ومما تجدر الإشارة إليه أنه لا توجد سفارة عربية في بلادهم وذلك لصغرها وقلة اهتمام جيرانها بها فمثلاً موريتانيا والمغرب يعتبران من الجيران. إلا أنهم ذكروا أن بعض السفراء العرب في داكار يعتبرون سفراء غير مقيمين في جزر الرأس الأخضر يأتون إليها لاجراء الاتصالات السياسية كلما احتاج الأمر إلى ذلك.

جولة في جزيرة سانت ياقو:

وافق الأخ الموريتاني واسمه (بوه ولد سيدي محمود) و (بوه) هذا لقب لأحد أجداده عرف به أبناؤه وإلا فاسمه الحقيقي محمد أحمد. وقال لي: إنه كل الموريتانيين الموجودين في هذه الجزر على أن يصحبنا في جولة على جزيرة (سانت ياقو) هذه الجزيرة الكبيرة التي تقع فيها العاصمة (برايا) وتشتمل الجولة على زيارة بلدة (سانت ياقو) في أحد أطراف الجزيرة، فاتفقنا مع سيارة أجرة يقودها أحد المواطنين السود وبرحنا (برايا) العاصمة في العاشرة تماماً فكانت أول وقفة في:

بلدة فيسندا:



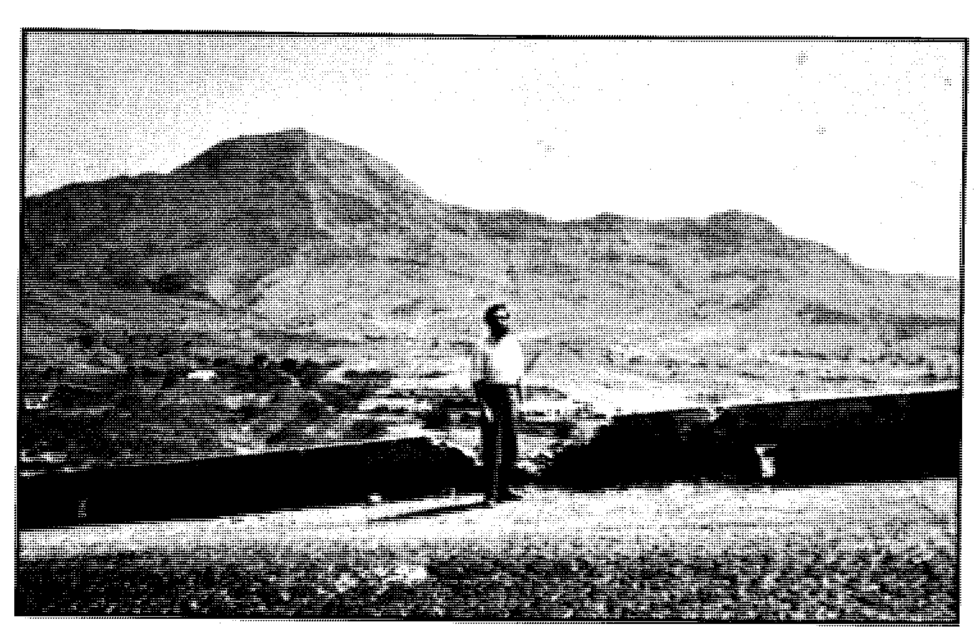
أهالي من فيسندا مجتمعين على صنبور المياه

ويصح أن تسمى بالتحتية أو السفلى، لأنها واقعة في واد متسع على حين أن (برايا) تقع على ظهر تلة جبلية متسعة أيضاً. وبلدة (فيسندا) نظيفة الشوارع شوارعها ذات أرصفة لا بأس بها وبيوتها أكثرها من طابق واحد من الحجارة أو الإسمنت. فوقفنا في حي منها اسمه (كوانت بيليه) أشبه ما يكون بالضاحية المنفصلة، وهي واقعة على جانب تلة ذات حجارة سوداء، والذين يرون من السكان يشدونك إلى الشعور بأنك في إفريقية، إلاَّ أن المنازل ليست كمنازل الافريقيين الأصيلة التى هي أكواخ أو كالأكواخ. وقفنا على حدود (فيسندا) قبل مغادرتها عند صنبور مياه يروي منه بعض الناس، ورأينا معهم خنزيراً يبحث عن المخلفات أو القمائم هناك وربما كان جاء من أجل الماء، وإلا فإن البلدة ليست فيها قمائم مجتمعة.

في قلب الصحراء:

غادرنا بلدة (فيسندا) فوقعنا فجأة في جبال صحراوية خالصة عارية من النبات تماماً وهي تشبه جبال نجد، على حين أن الأرض الصحراوية هنا أقل خصباً من أرض نجد، وذلك ما كنا رأيناه من قبل.

وأما الآن فإننا لم نر سهولاً وإنما كل المنطقة التي دخلنا إليها هي من الجبال، إلا أن الذي يشعرك أنك في بلاد رغم صحراويتها هي إفريقية أنك ترى بعض النساء الإفريقيات قد شددن أطفالهن على ظهورهن بخرق وقد حملن على رؤسهن بعض أمتعتهن وهن يسرن في الطريق الازفلتي، ولا أدري إلى أين يسرن!



المؤلف في صحراء الرأس الأخضر

أما الطريق نفسه فإنه لا بأس به لولا أنه ضيق وأنه واحد للسيارات الذاهبة والآيبة، ورأيت ما شدني الى جبال المملكة أيضاً، وهو منظر

لبعض الماعز قد تعلقن بشجر من أشجار الصحراء الشائكة يلتقمن منها الأوراق كما تفعل الماعز في بلادنا الجبلية على أطراف الحجاز وفي الوديان من عالية نجد، ولاحظت أن الماعز عندهم لا شعر عليها لأن بلادهم حارة، وقال لنا الأخ الموريتاني (بوه ولد سيدي محمود) كما قال غيره: إن المطر قليل، وهذا أمر ظاهر هنا غير أنني سألته عن موسم المطر فقال: إنه لا يوجد موسم معروف ينزل فيه المطر كما ينزل في البلدان المطيرة، وإنما ينزل ثلاث مرات، أو أربع في السنة كلها ولا يكون غزيراً، والشمس حارة والأرض هنا جبلية فيتبخر أكثره. ومع ذلك مررنا بعدة نخلات بائسة تشكو الظمأ، وربما كانت تشكو معه الغربة وهي في وادٍ صغير بين الجبال، ومثل هذه النخلات لا تثمر لأنها ضعيفة الجمارة وهي أعلى النخلة التى تطلع منها العسب - جمع عسيب.

ومررنا بمصنع صغير ذكروا أنه لمراوح الماء ، أي المراوح الكبيرة التي تديرها الريح فتخرج الماء من جوف الأرض أو ترفع ماء البحر إلى الأرض الجبلية من أجل تجفيفه واستخراج الملح منه.

وكبرت الأشجار الصحراوية التي تشبه الطلاح عندما زاد ارتفاع المنطقة الجبلية التى نسير فيها، ولا يرى المرء أية أعشاب هنا نامية أو خضراء ، وإنما توجد بقايا أعشاب جافة تماماً لا شك في أنها بقايا من أعشاب نمت بسبب المطر في وقت من الأوقات.

في ملتقى الطرق:

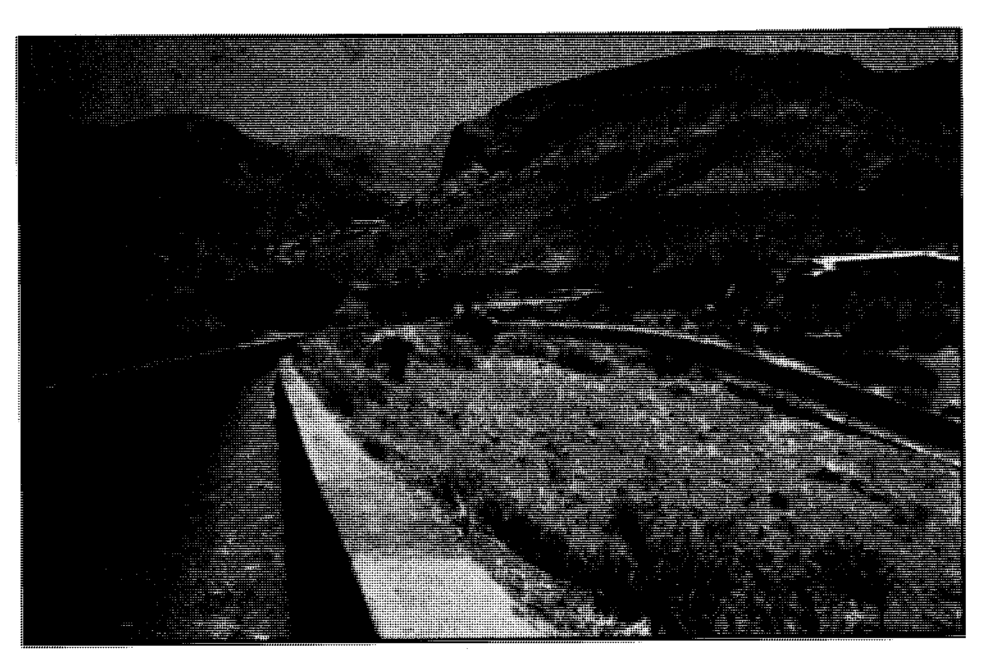
مررنا بعدة أبيات من الحجارة متفرقة مكونة من طابق واحد ولم نقف عندها وقال لنا الموريتاني والسائق : إن اسمها (مونت سيكرنو) ولم نقف عندها فليس فيها ما يوقف من أجله.

ولاحظت على بيوتها أن بعضها وإن كانت جدرانه مبنية بالحجارة غير المهذبة فإن سقوفه من القش كما تكون سقوف الأكواخ.

ووقفنا عند ملتقى للطرق اسمه (فريانت) وذكروا أن معنى الكلمة هو (مفترق الطرق) وقد نوهوا بذلك لأهمية وجود الطرق الأزفلتية عندهم وإلا فإنه ليس بذي أهمية في ذاته في البلاد التي تكثر فيها الطرق المزفلتة.

وملتقى الطرق الأزفلتية هنا هو أشبه بالصليب فيه طريقان أحدهما يأخذ ذات اليمين إلى بلدة (سانت ياقو) والثاني يأخذ ذات اليسار إلى منطقة (سانتا كاترينا) ولا بد أن تتذكر مثلي ولاية (سانتا كاترينا) في البرازيل إذا كنت سبقت لك زيارة تلك الولاية فهي أجمل الولايات البرازيلية الجنوبية وجمالها في كل شئ فيها وأهمه وأظهره (الماء والخضرة والوجه الحسن) وقد ذكرت ذلك في كتاب :«في جنوب البرازيل».

والتقطت صوراً لوادٍ قرب مفترق الطرق فيه زراعة قليلة بينها أشجارخضر نضرة في هذا الجو الصحراوي المغبر وأهمها أشجار من أشجار البابايي الفاكهة المعروفة التي تشبه البطيخ الأصفر في المنظر. واسم الوادي (ميجو برانقا) و (برانقا) أبيض وهكذا في لغتهم البرتغالية المختلطة وفي اللغة البرتغالية البرازيلية (برانكا) بالكاف وهو بلانكا باللام بالأسبانية.



الوادي المنخفض الأخضر في صحراء الرأس الأخضر

وبمناسبة رؤية أشجار البابای القليلة في هذا الوادي وهي أشجار لا تنمو إلا في بلاد حارة ذكروا أنهم لا يعرفون البرد في هذه البلاد وأنه قل أن تنزل درجة الحرارة عن (٣٠) درجة مئوية.

ثم استأنفنا السير مع الطريق الذاهب إلى بلدة (سانت ياقو) فازداد صعوده إلى جبال ليس بينها وديان وما شبهت المناظر التي يراها سالك الطريق إلا بالمناظر التى يراها سالك الطريق من مكة المكرمة إلى نجد من طريق الشرائع لولا أن طريقهم هذا ضيق وطرقنا حديثة واسعة بل إنها هناك سريعة مغلقة. وأما الجبال فإنها هي هي في المكانين جرداء ليس عليها عود أخضر.

ثم وصلنا إلى منطقة قد جعلوا في متون جبالها مدرجات غرسوا فيها أشجاراً صحراوية وقال الأخ الموريتاني : هم فعلوا هذا من أجل تنزيل

المطر، يريد أنهم أرادوا بذلك مكافحة الجو الصحراوي، وهي أشجار قليلة ولكنها بداية لأكثر منها كما قيل لنا.

وأما الناس الذين يرون هنا فإنهم الشعب الإفريقي الأسود ليس غير حتى الخلاسيين لا يرون في هذه الأماكن.

الجبل الأسود:

وحتى الجبال شاركت في طبيعتها وأسمائها الناس في السواد فقد أسموا جبلاً وصلناه (مونت نيجرو) ومعناه: الجبل الأسود بالبرتغالية.



مواشي واردة إلى الماء في الجبل الأسود

ولكن سواد هذا الجبل لم يخل من خضرة محببة فقد وجدنا في وادٍ منه بئرًا ارتوازية، قد أقاموا بجانبها ما كنا نسميه (المِدِى) وهو الحوض المستطيل من الماء ترده الماشية ويستقى منه الناس، وقد رأيت

عليه الحيوان الصحراوي المألوف وهو الحمار الأزرق أي الذي لونه بين السواد والبياض، هكذا كان قومنا يسمون الحمار إذا كان في مثل ذلك اللون، وإن لم تكن زرقته حقيقية، ومع الحمير الزرق هذه بقرتان، ورأيت مكاناً بعيداً نوعاً مختفياً في الوادي فيه أشجار خضر أظن أن مياه هذه البئر الارتوازية تذهب إليه. ثم تركنا الجبل الأسود ممتطين ظهر الطريق الأسود الذي انطلق في الصحراء الصخرية على جانبه أشجار صحراوية مغروسة ليست نضرة ولا كثيرة، وربما كان ذلك بسبب شح المياه. فقابلنا في الطريق حماران أسودان رديئان وأول رداءة الحمار كونه قصيراً لأنه معد في الأصل للحمل وإذا كان قصيراً فإن معنى ذلك أنه لا يحمل كما يحمل الحمار الطويل الجسيم. وعلى أعقاب هذين الحمارين صاحبتاهما وهما امرأتان سوداوان لأن الحمارين عليهما الحمل ولا يستطيعان حمل راكب أو راكبة معه.

ورأينا أيضاً ما ذكرنا بالصحراء وإن لم نكن نسينا ذلك فقد لحقنا بحمارين رديئين أيضاً يحملان ماء في (جوالين) - جمع جالون- من اللدائن قد ملئت بالمياه والحماران يسيران الهوينا وهما (يخضان) الجوالين من دون أن يرجو أهلها منها زبدة - بطبيعة الحال.

وقد سألت الأخ الموريتاني عن استعمال القرب هنا في نقل الماء كما نفعل نحن ويفعلون هم في موريتانيا فذكر أنهم لا يعرفون ذلك لأن سلخ الذبيحة عندهم يكون بشق جلدها شقاً، هكذا اعتادوا على السلخ لأنهم ينتفعون بالجلود في أشياء أخرى غير نقل المياه. ولما أبديت ملاحظتي على قلة السكان قال الموريتاني والسائق (الرأس الأخضري) : إن البلاد لم تكن مسكونة من قبل وصول البرتغاليين إليها وإنما جلبوا إليها

العمال من إفريقية ، فوجد فيها هذا الجنس الأسود، وبقي على سواده لأن جوها يشبه جو إفريقية إلا من قرب البرتغاليون من جدته أو جدة والدته فنثروا عليها من بياضهم ما أخطأ بعضه وأصاب بعضه، فصار نسلها في لون الرماد.

وقفة في رأس الجبل:

مررنا بوادٍ غير معمور وإن كانت فيه خضرة قليلة أكثرها من الذرة ثم واصلنا الصعود حتى وقفنا في أعلى قمة يخترقها الطريق وذلك في رأس جبل (سالا) حيث يبدأ الطريق بعد ذلك بالانحدار قليلاً قليلاً حتى بلدة (سانت ياقو) .

وفى رأس هذا الجبل حانوت (دكان) واحد صاحبه مختلط معه طفلاه ذكر أنه لا عمل لهم إلا الزراعة إذا نزل المطر في الخريف، أما الآن فإنه لا يوجد عندهم عود أخضر. وقد طاب لي الوقوف في هذا المكان لأن الهواء فيه لطيف لارتفاعه ولأنني كنت أستجلي منه الوادي الذي ذكرته على البعد، وأتأمل الأشجار التى فيه وكلها هامدة كأشجار الصحراء التى بعد عهدها بالغيث.

وهناك عدد محدود من البيوت دون أن ترى أية مقومات للحياة حولها إلا بقايا أعشاب يابسة كالقصب الواقف لا شك فى أنها كانت مخضرة إبان المطر.

استمر السير فرأينا كنيسة على مكان مشرف من المنطقة، وقلت للموريتاني كما قلت لغيره: لماذا لم يكن للمسلمين مسجد؟.

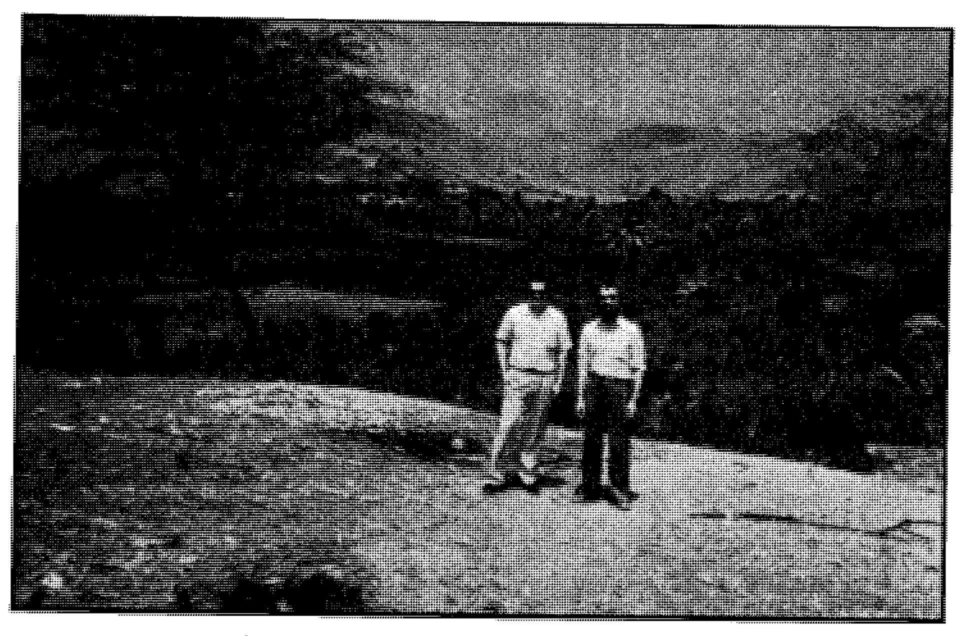
فقال: لأن الدعوة إلى الإسلام قليل، ولو كان هناك دعاة مخلصون

لدخل أكثر السكان في الدين الإسلامي، لأنهم غير متشربين بالمسيحية. وقرب هذه الكنيسة حقل ذرة يابس ترعى فى قصبه اليابس بعض الماعز.

هذه سانت ياقو:

رأيناها على البعد تقع في وادٍ منخفض بين الجبال مكتظ بالخضرة التي أكثرها ظهوراً أشجار النارجيل، ثم اتضح المنظرعندما قربنا منه وإذا بشقيق النارجيل في العيش في البلدان الحارة الرطبة القريبة من خط الاستواء وهو الموز قد انتشر في هذا الوادي الذي هو على خضرته تحيط به جبال جرداء. وقد ظهر الفرق بين برايا و(سانت ياقو) في الخضرة فسانت ياقو أكثر خضرة، وهي إلى ذلك أقدم من (برايا).

وقفنا في مرتفع مشرف على الوادي الذي تقع عليه (سانت ياقو) وقد ازدحم ذلك الوادي بأشجار النارجيل مما ذكرني بنخيل التمر عندنا عندما يطل المرء عليها من جبال أو من كثبان رملية مرتفعة كالتي تكون في القصيم. وفي هذا المكان المرتفع من الحيوان دجاج سارب وخنازير تذرع أرضه.



مع الأخ نوه ولد سيدي محمود فوق وادي سانت ياقو الأخضر

وعلى ذكر الحيوان سألت الأخ الموريتاني عن وجود الوحوش والدوآب الضارة في هذه الجزيرة، لأنني عرفت كثيراً من الجزر التي لا يوجد من ذلك شئ فيها مثل جزر مالديف وموريشيوس ورينيون.

فأجاب: إنها لا توجد، فلا وحوش ضارية ولا حيات لاسعة، ولا عقارب لادغة.

وتبين أن (سانت ياقو)واقعة على البحر حيث يمتد لسان من ذلك الوادي المنخفض فيدخل في الجبال قليلاً ثم يقف لتبدأ بعده الخضرة التى ذكروا أنها تسقى من آبار ارتوازية تأتي مياهها من مكان أبعد.

ورأيت مظاهر قلة الماء في أسراب من النساء قد ملأن أوعية اللدائن وهي (الجوالين) جمع جالون من الماء يحملنها على رؤسهن إلى البيوت. كما رأيت بعضهن يحملن أشياء ثقيلة على رؤسهن من

الحطب الذي أغلبه مأخوذ من أشجار النارجيل والعلف الذي أكثره من قصب الذرة.

في قلب سانت ياقو:

أوقف السائق سيارته في الميدان الرئيسي في وسط بلدة (سانت ياقو) وقد يسمونها (فيلا بدر باديز). والميدان صغير مرصوفة أرضه بالحجارة، قد جلس فى أسفل حيطانه رجال بلا عمل، ونساء كالتكرونيات يبعن أشياء زهيدة، وإن لم يكنَّ بالتكرونيات إذْ لا يجمع بينهن وبين التكرونيات إلاَّ سواد اللون.

ويخيل إليك إذا رأيتهن أنهن أقل ذكاء من التكرونيات وأسوأ تصرفاً. استرحنا قليلاً في هذا الميدان وشربنا أشربة باردة بعد بحث عنها لأن الأماكن التي تبيع المشروبات الباردة أكثرها تبيع الجعة (البيرة) وحدها. واشترينا موزاً من موزهم وفاكهة أخرى من البرتقال غير الجيد. وتجولت فيما حول الميدان وفي أزقة ضيقة وسط بيوت مبنية بالحجارة أو لبن الإسمنت وتدل على رقة الحال، وذلك أمر ظاهر السبب في تدني دخول الناس، وفي قلة السكان. وقد تحدثت إلى عدد منهم بوساطة الأخ السفير الدكوري بالفرنسية لمن يعرف الفرنسية وهم قليل وبالبرتغالية التى أعرف قليلاً منها تعلمته في البرازيل، فوجدت فيهم ما فى الأفارقة من سماحة الطبع، وعدم التكلف واللطف بالغريب.

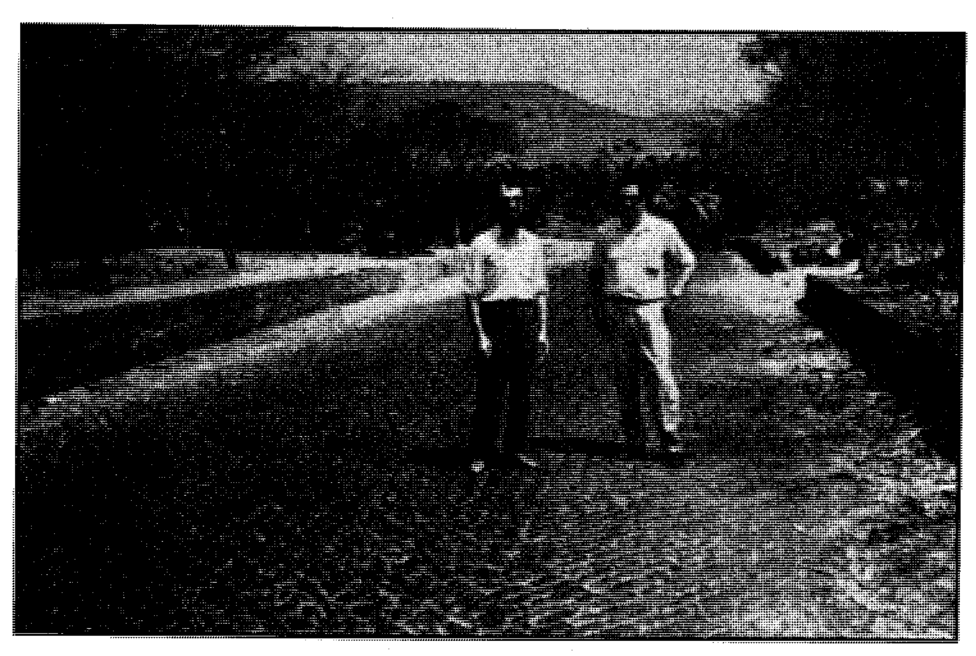
وكانت الشمس صاحية والجو جافاً جفاف الجواء الصحراوية. إلا أنه ليس شديد الحرارة وذلك لقلة الرطوبة فيه، ولكون ساعة الظهيرة لم تحن. وهذا الميدان محاط بحوانيت تعرض بضائع أكثرها مستورد من ملابس وأحذية وقبعات وأكثر أحذيتهم من اللدائن، ولم نجد مطعماً

تطمئن النفس إلى الأكل فيه فأجلنا الغداء إلى حين، وحتى القهوة والشاي لم نجد مكاناً نظيفاً فيه لذلك.

إلى سان جورج:

لم نجد ما يغرينا باللبث طويلاً في بلدة (سانت ياقو) فناسها وبضائعها من النوع المألوف لنا وهي بهم بلدة إفريقية خالصة.

فأسرعنا بالذهاب إلى (سان جورج) وهي منطقة أخرى من مناطق جزيرة (سانت ياقو) الكبيرة. فانطلقنا في الثانية عشرة ظهراً مع طريق مرصوف آخر، لا بأس بحالته لولا ضيقه، فرأينا حول الطريق نباتاً يابساً كالقصب رأيتهم يقطعونه ويحملونه كالعلف على رؤسهم.



قرب سانت ياقو في الطريق إلى (سان جورج)

واستمر الطريق جبلياً لا سهول فيه، وإنما فيه وديان بعضها جاف تماماً، وبعضها فيه خضرة قليلة لا غناء فيها.

ووجدنا لافتة تدل على مفرق الطريق إلى (سانتا كاترينا) وحديثها شجي طلي في البرازيل، وهو طلي هنا لغرابته، وربما لغرابة ما بينها وبين البرازيل على حد قول الشاعر:

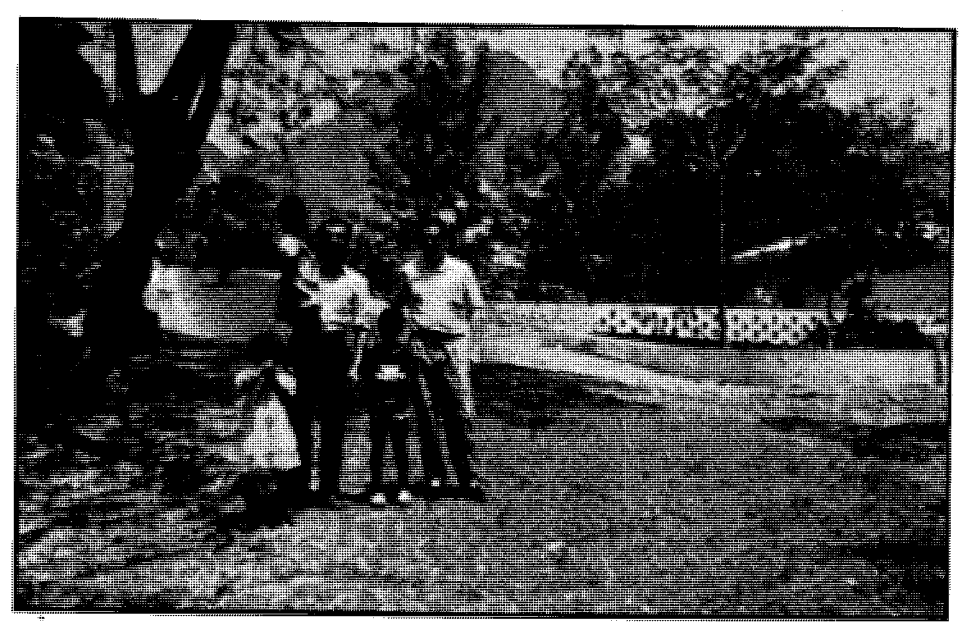
لشتان ما بين اليزيدين في الندى
يزيد سُلَيْمٍ والأغرُّ بن حاتم

ويزيد سليم هو (سانتا كاترينا) الرأس الأخضر، و (الأغر بن حاتم) هو (سانتا كاترينا) البرازيل.

ولن نطيل الحديث عن (سانتا كاترينا) هذه ولا حتى في القول بأن معناها القديسة كاترينا وذلك لكوننا لن نذهب إليها، وإنما ذهبنا إلى اسم آخر مشابه لها في التقديس المسيحي وهو (سان جورج) التي تعني القديس (جورج) عندهم.

وتقع سان بلدة (سان جورج) في وادٍ أخضر، فيه زهور ملونة، وأشجار مغروسة من أجل الظل ومكافحة الطبيعة الصحراوية. وبخاصة منها الأشجار المسماة بالجهنمية التي كثرت في بلادنا.

والزهور السود فيها مقتصرة على أطفال من الأهالي التقط أحد الرفاق لي صورة معهم فيها.



في ضاحية سانت جورج والمؤلف يحمل أحد الأطفال

أما المزروعات النافعة هنا فهي (الكسافا) الغذاء الشائع لأهالي خط الاستواء سواء أكانوا في إفريقية أو آسيا، أو حتى جزر المحيط الهادئ وجزر البحر الكاريبي بين الأمريكتين الجنوبية والشمالية، وقد شاهدت ذلك كله هناك، وكذلك أشجار الباباي وأشجار قليلة من العمبة وهو (المانقو) كما تعرفها العامة في بلادنا كما أن (سان جورج) هذه مشهورة عندهم بتربية الدجاج حيث يباع دجاجها في أنحاء البلاد.

الرأس الأغبر:

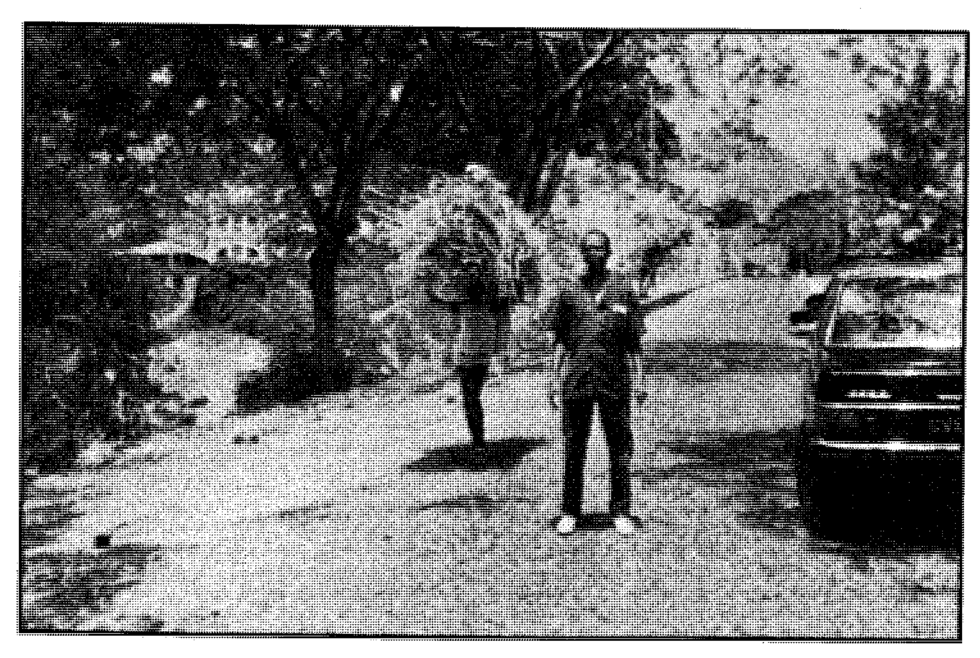
كررت للقوم عجبي من تسمية هذه البلاد بالرأس الأخضر، على كونها لا خضرة فيها، وان كنت علمت من قبل سبب التسمية وأنها مضافة إلى الرأس الذي فيه مدينة داكار من غرب إفريقية ولكن الأولى ألا تسمى الآن بالرأس الأخضر، لأن ذلك يخالف الواقع فكلهم قال: إن

أهلها الآن صاروا يسمونها بالرأس اليابس أو الجاف وينطقون باسمها (كابو سيكو) وكابو: رأس الذي يراد به الرأس البري الداخل في البحر، وسيكو: يابس او جاف بالبرتغالية، وإن كانت تسميتها الرسمية لا تزال: الرأس الأخضر (كابو فيردي) بالبرتغالية وفيردي فيها معناها : أخضر.

وبلدة (سان جورج) صغيرة ومتفرقة في شفير الوادي وبيوتها تبدو كالبيوت الريفية بين المزارع، ولكنها أجمل بلدة رأيتها فى هذه الجزر حتى الآن، وربما كان ذلك بسبب قلة ما رأيته منها. ومن أمثلة ما لم أره جزيرة لهم اسمها (مانديليو) ذكروا أنها كانت العاصمة قبل الاستقلال وفيها ميناء دولي للبواخر، ومشروع لتنقية ماء الشرب، وذكروا أن في أهلها نسبة لا بأس بها من البيض والخلاسيين. وبهذه المناسبة حدثنا الأخ الموريتاني أن هذه الجزر عندما كانت تطالب بالاستقلال كان أحد السياسيين فيها وهو خلاسي اللون أي مختلطه حتى يبدو كأنه من الموريتانيين لجأ إلى موريتانيا وحصل على جواز سفر موريتاني باسم (سيد أحمد) مع أنه لم يسلم وهو الآن يشغل منصب وزير الخارجية في الحكومة الحاضره واسمه (سلفينو دو غوش).

وقد طابت أنفسنا لمنظر الزهور ولمنظر أشجار من أشجار الكنيا غرسوها متقاربة فنمت وأظلت بعض الأماكن في ضاحية من ضواحي (سان جورج). لذلك دخلنا مطعماً للسياح اسمه (بوزاد موسوسيلو) نظيف الأثاث جميل الموقع.

وكان غداؤه جيداً من السمك والخبز والماء المعدني والسلطة وكله بـ ١٤٠٠ سكودا.



السفير عبد الوهاب الدكوري قرب المطعم في (سان جورج)

ومن الطريف أن المطعم لم يدخله أحد غيرنا مع أن الوقت وقت غداء، ولبثنا فيه فترة للراحة على الغداء.

العودة إلى برايا:

وفي الثانية ظهراً بدأنا العودة إلى برايا وتبلغ المسافة من سان جورج إلى برايا (٣٧) كيلو متراً كلها أرض جبلية.

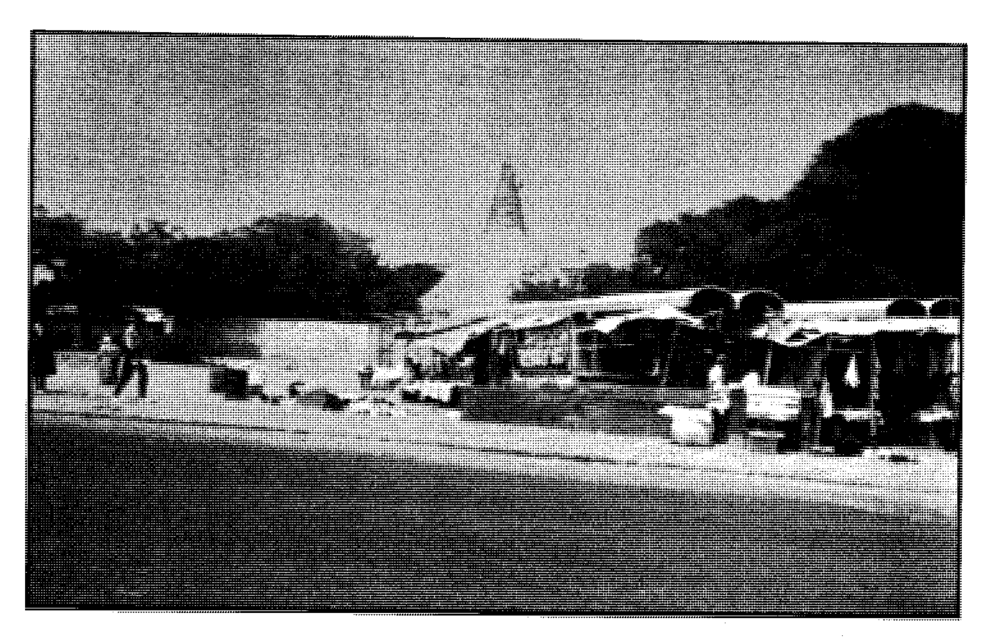
وكان سائق سيارة الأجرة من المواطنين المختلطين، وإن لم يخرجه ذلك عن دائرة السواد، فكان يطيع ما نطلبه منه من عدم السرعة، وإن كان يثقل عليه ذلك لكونه قد اعتاد على الطريق، وكانت القائلة قد قالت بمعنى اشتد حرها.

فمررنا بطريق العودة ببلدة اسمها (سان دو منقو) أي القديس دومنيقو وما أكثر البلدان والكنائس المضافة إلى قديسهم (دومنقو) هذا.

وكان أظهر ما هذه البلدة- على صغرها- كنيسة تسمى كنيسة سانت دومنقو. ومنازلها من الحجارة مؤلفة من طابقين في مظهر لا بأس به، وأما سكانها فإنهم المعتادون لنا في هذه البلاد من السود المختلطين، وكان وصولنا إلى بلدة (برايا) العاصمة حيث فندقنا (برايا مار) في الثالثة ظهراً.

فى سوكو بيرا:

ذهبنا إلى سوق يقع في منطقة منخفضة من العاصمة برايا جهة الشمال يسمونه (سوكوبيرا) جميع المعروضات فيه في حوانيت غير مبنية من الإسمنت أو الطين وإنما هي من أخشاب متفرقة مسقفة بالقش أو بالورق المقوى الكارتون أو من الخشب. والبضائع منشورة على الأرض أو فوق مناضد خشبية، ويقبل الناس وهم إفريقيون - كما قدمت- على الشراء من مثل هذه الحوانيت أكثر مما يقبلون على الشراء من الحوانيت الكبيرة . وذلك لرخص أسعارها ولعادة اعتادوها في هذا الأمر.



سوق (سوكو بيرا) في برايا

وفي هذا السوق عدد من الإخوة المسلمين من مـالي عددهم ستة وقفنا عند أحدهم واسمه (محمد تراوري) وذلك أننا تحدثنا معه كما تحدثنا مع غيـره في شئـون المسلمين. وأكثـر البضـائع في هذا السوق لا تسـتوقف النظر لأنهـا مسـتوردة رخيـصة مثل مـنسوجات هونغ كـونغ أو الصين الشعبية وأكثرها الملابس والأواني.

وبجانب هذا السوق المسمى (سوكو بـيرا) هرم ضخم على هيئة كوخ إفريقي هرمي الشكـل ذكروا أنه يكون فيـه معرض للصناعـات الوطنية خاصة وللإفريقية بصـفة عامة، ولم ندخله لأنه مغلق، ومن هناك ذهبنا في جـولة أخرى على أحـيـاء من أحيـاء بلدة برايا فكنا نجـول على غيـر هدى وتبين لنا أننا جلنا في أماكن أتيناها من قبل.

ومن الأحيـاء التى تجولنا فيـها حي اسمه (اسـادا) فيه مـحطة التلفزة

وتكثر في أسواقه الكلاب ولا أدري أهي ضالة أم هي مملوكة لبعض الناس لأنه ليست على أرقابها علامات تبين ذلك.

وهذا الحي (اسادا) يعتبر من الأحياء الراقية، لذلك كل بيوته تقريباً مبنية من الحجارة أو من المسلح، ما عدا قليلاً منها مبنيًا بلبن الاسمنت. وهي من طابق أو طابقين إلا أنها متسعة، وشوارعه لا بأس بسعتها إلا أن أغلبها غير مزفلت، وهناك سيارات لا بأس بعددها فيه وأكثر سكانه من المختلطين أي من غير السود الحالكي السواد.

ورأيت كثيرًا من أهل هذا الحي والأحياء التى قبله جالسين عند أبواب بيوتهم من الخارج وهم من الرجال والنساء وذلك ابتغاء للهواء الطلق في هذا الأصيل المتأخر أو بسبب عادة لهم قديمة.

وذكرت بهذه المناسبة أهل مالديف، وكيف أنهم اعتادوا على مثل ذلك حتى في غير أوقات الأصيل.

عودة الى ساحة ديسمبر:

ثم عدنا إلى ساحة ديسمبر التى يسمونها (براسا دا ديسمبرو) فوجدنا الناس محتشدين فيها عند غروب الشمس، إلا أن الغالب عليهم الخمول والكسل، فيما يظهر من تصرفاتهم، اذْ شاهدنا كثيرًا منهم لا عمل لهم إلا الجلوس على مقاعد أعدتها البلدية لهم، أو الجلوس في مقهاة فيها كبيرة امتلأت بالناس حتى أننا لم نجد مائدة خالية نشرب عليها قليلاً من الشراب البارد وهو هنا (الكوكاولا) فجاء خادم المقهاة، وأجلسنا على مائدة مشغولة وعرفنا أنهم لا يستنكفون من أن يجلس شخص أو أشخاص إلى مائدة مشغولة بآخرين.

وفي هذا المساء عند غروب الشمس كثر وجود المختلطين في هذه الساحة أكثر من الصباح ولا شك في أن سبب ذلك أنهم كانوا مشغولين بأعمالهم ، وبدراساتهم إذا كانوا من الطلاب.

ومن هناك ذهبنا إلى مكتب السفير السنغالي في جزر الرأس الأخضر، ويقع في فندقنا هذا فلم نجده وقال كاتب عنده: إنه مسافر إلى جزيرة (ماندليو) وإنه سوف يأتي غداً، ولم يكن لديّ ما أفعله في أول هذا الليل إلا كتابة ما تقرأه الآن.

يوم الخميس ١٩٨٩/٦/٢٢م.

ابن كَرْوَس في برايا:

ابن كَرْوَس هو مهجو أبي الطيب المتنبي ولكن هجاءه إياه كان خليطاً من الهجاء والمزح أو حتى يمكنك أن تقول: إنه بين الهجاء والمزح فابن كَرُّوس أعور، لا يبصر إلا بعين واحدة فقال فيه أبو الطيب من بين ما قاله:

ايا ابن كَروس، يانصف أعمى
وإنْ تفخَرْ، فيا نصف البصير

والمختلطون الذين رأيتهم اليوم كما رأيتهم بالأمس في هذه الجزر يصح أن يقال فيهم: إنهم نصف سود فيضجرون، وأن يقال فيهم: إنهم نصف بيض وقد يفخرون.

موريتانيا فى الرأس الأخضر:

والمراد بذلك هذه الجزر التى تسمى بجزر الرأس الأخضر وهي ليست خضراء.

ذكرت ذلك هذا الصباح عندما لم نر الأخ الموريتاني ثم جاء في ذهني أننا إن لم نر الأخ الموريتاني فقد رأينا موريتانيا. ذلك بأن هذه الجزر الصحراوية لولا أمواج البحار الصاخبة التى تلاطم جزرها لقلت: إنها قطعة من موريتانيا. بصحرائها وجبالها ووديانها.

ولم لا يقال: إنها قطعة من موريتانيا شردت منها في مياه هذا البحر المحيط الأعظم كما كان أسلافنا يسمونه. وحتى مع كونها شردت عنها في البحر المحيط فإنها قد استقرت بمحاذاتها لا يفصل بينهما إلا فاصل مائي، ولكن شرودها من الصحراء الموريتانية لم يجلب لها الخصب والنماء كما جلب ذلك لبعض جيرانها الإفريقيين.

مع سفير المسلمين:

قال السفير السنغالي عندما قابلناه: أن السفير الموريتاني في السنغال قال له عندما زار هذه الجزر. إنك سفير المسلمين جميعاً، لأنه لا يوجد فيها سفير لدولة مسلمة غيره. لذلك سعينا إلى لقائه وهو صديق قديم لرفيقي السفير الدكوري فأرسل إلينا سيارته وذهبنا من الفندق إلى بيته وهو دارة جيدة (فيلا) حديثة البناء، جيدة التأثيث، ذات فراش وثير وخزائن مكتظة بالثريات.

وتقع في جنوب حي (اسادا) في نهاية مدينة برايا على سطح قمة جبلية جرداء.

استقبلنا الأخ السفير (عمر بن الخطاب سوغانا) سفير السنغال في الرأس الأخضر مرحباً وهو يرتدي الملابس السنغالية التي هي قميص عربي في بعض الحالات ليس معه من اللباس شئ آخر.

قال السفير الأخ (عمر بن الخطاب) إنني لو عرفت بقدومكم لما سافرت إلى (ماندليو) وذلك لأكون في استقبالكم، كما أنني كنت أخبر الحكومة لتستقبلكم رسمياً.

أبديت له اعجابي بمنزله فذكر أنه حكومي قدمته له حكومة هذه البلاد من باب التبادل أى على أساس أن تقدم حكومة السنغال منزلا لسفير جزر الرأس الأخضر في داكار. ومما يذكر أنه رغم كون المنزل على هيئة دارة (فيلا) فإنه ليس فيه ولا في بيوت مجاورة له أي عود أخضر فضلاً عن أن تكون فيها حدائق، وذلك لفرط الجفاف كما قدمت.



مع السفير السنغالي خارج منزله

ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن فندقنا وهو من الفنادق الجيدة عندهم وهي فندق (برايا مار) يزود بالماء بالسيارات التي تنقل المياه وليس حوله آبار ولم تصله أنابيب المياه.

أرض المسجد:

تحدثنا معه في أمر المسجد، ووجوب أن يعمل على بنائه ما دام أنه هنا هو السفير المسلم الوحيد، ومن أجل أن ينتهز فرصة انشاء أول مسجد في هذه البلاد، فذكر أنه اهتم بذلك وأنه صار يجمع المسلمين عنده في يوم الأحد من كل أسبوع، وبدأوا ذلك قبل أربعة أسابيع، وجمعوا خمسين الف(سكودو) ويساوي ذلك حوالي ستين دولاراً أمريكيًا.

وذكر أنه قابل رئيس الحكومة وطلب منه منح المسلمين أرضاً للمسجد، فأمر الرئيس وزير الداخلية بذلك ولكن وزير الداخلية رحب بالأمر، إلا أنه أخبرهم أن الحكومة تمنح الأراضي للأغراض الخيرية بمبلغ رمزي لا يزيد على ألف وخمسمائة دولار حتى يكون ذلك تمليكًا للأرض، وليس مجرد إذن بالبناء عليها مع بقائها في ملك الدولة.

فقلت له: إنني سأعطيه الآن ألف دولار أمريكي إذا كان يكفي. فأجاب مسروراً: إنه يكفي، وأنه سوف يكمل الاجراءات اللازمة لذلك.

فقلت له: إذا اشتريتم الأرض وجمعتم مبلغاً ولو قليلاً من المال فاكتبوا إلينا في الرابطة لنساعدكم في المرحلة الأولى من بناء المسجد لأن هذا هو عمل الرابطة في هذه البلاد.

وقد تكلم كما تكلم الذين قبله عن الفرصة الذهبية لانتشار الإسلام الموجودة في هذه الجزر، وقال: إن الأمر يقتضي وجود دعاة متفرغين.

فقلت له: إن هذا صحيح ولكن الأولى هو بناء المسجد، لأنه يعرف المسلمين بعضهم ببعض عن طريق الاجتماع للصلاة، والتعارف فيما

بينهم وتدارس أمور دينهم، وسيكون إمام المسجد مرشداً لكبارهم، ومعلماً لصغارهم.

وبعد تناول الفاكهة والحلوى في بيته غادرناه على سيارة له جديدة وكان أكثر ما يضايق في شوارع هذا الحي الغبار الذي يطير عند أدنى حركة من السيارة فهو حديث في هذه المنطقة ولم تعرف شوارعه الأزفلت بعد. وغادرنا فندق (برايا مار) بعد أن نقدناه الثمن بالعملة المحلية ويساوي (٢٨) دولاراً أمريكياً للغرفة الواحدة.

وكانت معاملة أهله من موظفين وعمال معاملة جيدة، ولم نجد من حاول منهم أن يستغل غربتنا، أو يحصل على شئ لا يستحقه منا.

ثم خرجنا إلى المطار، وتكرر المنظر الجاف أمام أعيننا في الطريق، فكان مرافق من السفارة السنغالية يعمل في انهاء الاجراءات، ونحن جالسون في قاعة كبار الزوار المسماة بصالون الشرف، ولا بأس بها إلا أن الحمام فيها وهي جديدة لا يغلق من الداخل.

ويقع المطار على ظهر تلة جبلية يصعد إليه من يأتيه من جهة المدينة عل درج وهو يحمل أمتعته مما ذكرني بمطار مدينة (ماندلي) في بورما حيث لا بد لمن يأتي للمطار من أن يصعد في درج عالٍ وهو يحمل أمتعته، لأن دونه وادياً منخفضاً مثل الوادي الموجود في جانب المطار في هذه البلدة.

وقد ذكرت الحديث عن مدينة (ماندلي) في كتاب (بورما : الخبر والعيان).

ومن الطريف اللافت للانتباه أنه لا يوجد في قاعة كبار الزوار هذه

مستقبل، ولا خادم، ولا من يمنع غير المستحقين لدخولها من الدخول أو من يقدم المشروبات الساخنة أو الباردة، كما يكون في مثيلاتها في العادة.

مغادرة الرأس الأخضر:

في الساعة الثالثة إلا عشر دقائق غادرنا (برايا) على طائرة من طائرات خطوط النقل الجوي للرأس الأخضر كما كتبوا اسمها عليها وهي مروحية تحمل أربعين راكبًا إلا أنها جديدة.

وقد تأخرت (٢٠) دقيقة عن الموعد المحدد لقيامها في الأصل، إذْ كان المقرر أن تقوم في الثانية والنصف.

وعندما نهضت اتضحت أرض الجزيرة على مدى البصر من الطائرة صحراوية جرداء، ثم دخلت في جواء المحيط الأطلسي، ولم تخرج منه حتى صرنا نطير قرب داكار على الساحل الغربي للقارة الإفريقية. في مسافة تزيد على خمسمائة كيلو متر.

ومما ضايقني في هذه الرحلة ازدحام الطائرة بالركاب اذْ كانت مقاعدها مليئة كلها بالركاب، وكان الجو داخلها حارًا، والقوم مع وجود المختلطين فيهم لأجسامهم رائحة مثل رائحة الأفارقة، الذين يعيشون تحت خط الاستواء، فوجدت من ذلك عناء عظيمًا، لأنني إن أغلقت أنفي دون تلك الرائحة كان ذلك من عدم الذوق لأنه بمثابة التحدي لمشاعرهم، لأنه يكون كمن يقول لهم: إنكم ذوو رائحة مكروهة. إضافة إلى أنني أكاد اختنق وصبرت مكرهًا.

ومن الأشياء التي ضايقتنا إيضًا أننا عندما نزلنا في مطار داكار بعد

المعافاة في الرحلة، وكان فرحي عظيماً لكوني سأتمكن من أن أتنفس هواء نقياً خالياً من الرائحة عندما أخرج من الطائرة وكنت مستعجلاً الخروج منها، طلبت المضيفات من الركاب البقاء في أماكنهم، وردوا من كان يريد الخروج من باب الطائرة ممن كانوا خلف الركاب، وباب هذه الطائرة في مؤخرتها، وقالوا: يجب أن تبقوا في أماكنكم حتى ينزل الراهب. وأبطأ الراهب في النزول اذ كان في مقدمة الطائرة وهو يتخطى الناس بلباسه الكهنوتي الفضفاض وصليبيه اللذين يتدليان من رقبته على صدره.

وقد احتج الشيخ الدكوري عليهم، وقال: كيف نكون قريبين من الباب ونمنع من النزول؟

العودة إلى داكار:

وكانت العودة إلى داكار عودة حميدة رغم عدم وجود سمة الدخول إلى السنغال، فهذه رابعة المرات فى هذه الجولة الإفريقية التي أدخل فيها داكار من دون سمة دخول فيمنحونها لي فى المطار.

وكانت أيضاً عودة حميدة لكونها نهاية الجولة، وكان من المقرر أن أذهب بعدها إلى موريتانيا إلا أن الأمين العام للرابطة ذكر أن الأعمال كثيرة في هذه الأيام لمناسبة موسم الحج، والوفود صارت تتوافد على الرابطة وتحتاج إلى من يستقبلها ورغب في أن أقطع رحلتي وأعود إلى المملكة على أن تكون زيارة موريتانيا في فرصة أخرى.

وقد نزلت من الطائرة في مطار داكار في الساعة الخامسة الا ثلثاً بتوقيت جزر الرأس الأخضر وهي الرابعة إلا ثلثاً بتوقيت داكار.

ووجدنا مطار داكار عند مطار (برايا) بمثابة مطار الرياض عند مطار داكار، بل رأينا داكار كلها في أعيننا بعد العودة من برايا بمثابة باريس بالمقارنة مع داكار، وأمضيت في داكار بقية هذا اليوم حيث غادرتها بعد يوم واحد إلى جدة عن طريق باريس.

فهرست محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

* * *